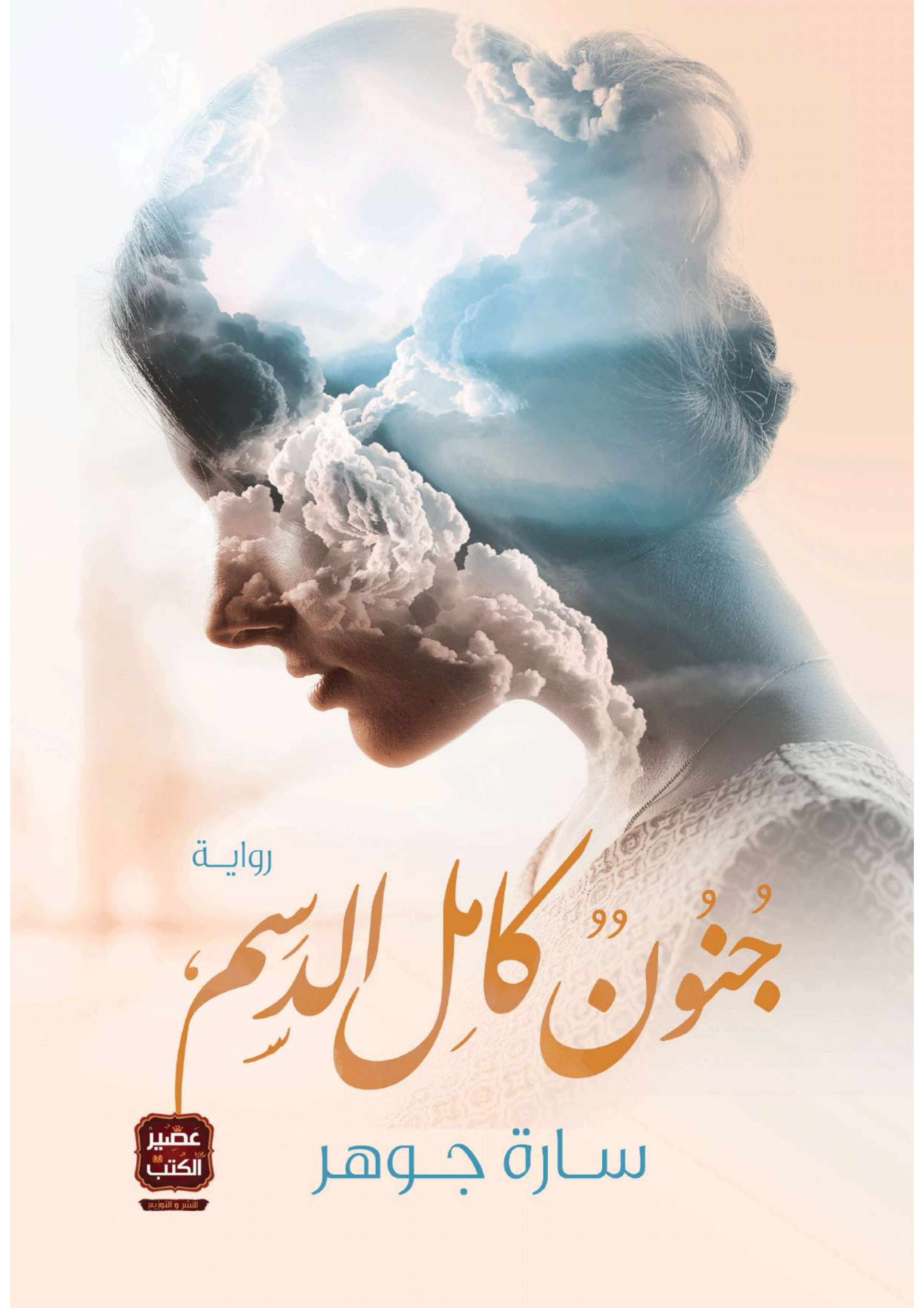

رواية
جنون كامل الدسم
سارة جوهر
عصير الكتب
للنشر و التوزيع

جنون كامل الدسم

الكتـــاب :جنون كامل الدسم

المـــؤلـــف :سارة جوهر

تدقيق لغوي: هند سعد الدين

تنسيق داخلي : سمر محمد

الطبعة الأولى: ينـاير 2019

رقم الإيداع : 2018/26898

I.S.B.N : 978-977-6542-14-3

المدير العام:محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

رواية

جنون

كامل الدسم

سلام على عقلٍ كان مُتزن حتى هوى فـ جُن وفُتن

سارة جوهر

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

إهداء

إلى الحبيبة في السماء أمي العظيمة، بقلبي وعيني

ها أنا ما زلت أحاول.

إلى أمي الثانية سكنى وسكينة روحي خالتي الحبيبة

التي عاصرت معى كتابتها تغمدك الله برحماته وكرمه

وأسكنك جناته

شكر خاص إلى الياسمينة الجميلة:

ياسمينة محمد.

ما الخطأ في أن يتعلق الغريق بلوح خشب أو عود أو قشة؟ ما الجُرم في أن يصنع لنفسه قنديلًا مزججًا ملونًا لكي يتحمل عتمة أيامه؟ ما الخطيئة في أن يتطلع إلى يوم جديد آملًا مستبشرًا؟!

«رضوى عاشور»

الهاربة

وقفت أرتعش في الظلام وصوت زخات المطر يضاعف من خوفي، لا أدري أين سأذهب الآن بعد أن غادرت منزلي، كنت مشتتة ومتخمة بالوجع وهواء الخريف يُعيدني إلى ذكرى من الزمن الماضي القريب إلى قلبي، ترى إلى من ألجأ فلا أهل ولا عمل ولا سكن؟

زادت حدة المطر وتزاحمت دمعاتي مع قطراته، كنت أبكي يُتمي ووحدتي وجروحي المترنحة، أنهرت في النهاية واستسلمت لتعبِ وافترشت الرصيف بعد أن أنهكني التجوال في الطرقات بلا هدف، ها هي خيبة أُخرى تُضاف لخيباتِي السابقة فمتى ينفذُ رصيدي مِن الخيبات؟

لم يعد لديّ سواه فأرسلت إليه مترددة، أتراه سيجيب رسالتي في هذا الوقت من الليل، أم سيتجاهلني كما كنت أفعل معه دائمًا؟ أنقذني اتصاله من مخاوفي السوداء وأمدني بالقوة لمعاودة السير.

انتبهت جميع حواسي حين رأيت رسالتها وظننت بأني أحلم فصفعت وجهي مرتين، ترى ما الذي ذكّرها بي الآن بعد منتصف الليل؟ تمالكت دهشتي وهاتفتها، لكن فاجأتني نبرة صوتها المضطربة واستغاثتها بي.

أغلقت معها واللهفة تضرب أوصالي، لقد لجأت إليّ أخيرًا هل يعقل هذا؟ أيكون الحظ قد ابتسم لي أخيرًا؟ قفزت من فراشي ثم ارتديتُ ثيابي على عجل وطلبت سيارة أجرة وأنا أفكر في سر لجؤها إليّ.

استجمعت قوتي وضممت عباءتي الرقيقة إلى جسدي المنهك ثم اتجهت للمحطة كما طُلب مني، كان مظهري العام مُدعاة للفت الإنتباه، لكن كنت في عالم آخر يفصلني عن الأنظار الفضولية والعبارات الوقحة، انتقيت ركن خالٍ بساحة الانتظار وانزويت على نفسي أنتظره.. كل هذا ما كان ليحدث لو لم يتركني والدي!

(ا)

كان اليوم أبشع أيام حياتي الكريهة، اضطررت إلى ترك المنزل بعد أعوام من سوء معاملة والدتي وإهاناتها المتواصلة لي والتي زادت بعد رحيل والدي، لا أدري ما الجرم في أني ابنة يامن، لماذا تنسى دائمًا أنه كان زوجها قبل أن يكون والدي؟

كنت أعمل ليل نهار بوظيفتين لا يطيقهما مخلوق على أمل أن أنجو من جحيمها، لكنها كانت تستنزف ما كنت أدخره بشتى الطرق حتى صرت أدفع مقابل إقامتي، كانت نهاية حياتي معها اليوم بعد أن أصرّت على تزويجِ ابن شقيقتها الفاسد، أفقت من ضجيج أفكاري على صوت الهاتف:

- أين أنتِ؟
- أنا في المحطة.
- لقد أوشكت على الوصول، انتظريني عندك.

انكمشتُ على نفسي بثيابي المبتلة وجسدي المنهك، لم أجد ما أرتديه فوق منامتي الممزقة سوى عباءة استعرتها من جارتي بعد أن أتلفت أمي جميع ثيابي، ترى هل تمقتني الحياة أم أنها تختبر صبري؟ يا الله من بين جميع من حولي لا أجد من ألجأ إليه سوى شاب بالكاد أعرفه، أتراه سيستغل حاجتي إليه؟ لا أظن لقد كان يدعمني طوال الفترة الماضية ويشد أذري، ورغم مراوغتي له إلا أنه كان يكتفي بالعتاب واللوم.

- ميرال.

أفقت على صوته، بدا أنيقًا رغم آثار النوم البادية عليه، كان يرتدي معطف أسود وسروال شبابي من الصوف، وزاد البرد من شحوب بشرته البيضاء والتصقت خصلات شعره على جبهته بفعل المطر، وقف يتفحصني ولم يستطع إخفاء توتره، أعلم أن مظهري العام مريع، وزاد من بشاعته أصابع أمي وأختي المحفورة على وجهي، تحاملت على نفسي ونهضتُ، لاحظ «وليد» الوهن البادي عليّ فساعدني على السير، حتى صعدنا للقطار، كنت أشعر بالهواء ينفذ إلى عظامي، وبدأ جسدي يرتجف بقوة، أحكم وليد معطفه حول جسدي، وفقدتُ وعيي بعدها من شدة التعب، كان صوته يصلني من عالم آخر.

(٣)

كانت تجلس منزوية على أحد مقاعد الانتظار تضم ساقيها إلى جسدها وتخبئ رأسها بينهما، رفعت رأسها نحوي فهالتني الكدمات الزرقاء التي غطت وجهها وآثار الضرب البادية عليها.

- ميرال هيا بنا.
- أين سنذهب؟
- إلى شقتي.
- لكن..
- هذا وضع مؤقت حتى تتدبري أمركِ، وأعدك بأني لن أتعرض لكِ.

(٣)

كان الصباح قد أوشك على البزوغ حين وصلنا، غابت ميرال عن الوعي بفعل الحُمَّى التي أصابتها، تركتها أسفل المياه الباردة، حتى استردت وعيها جزئيًا وأبدلت ثيابها بمنامة من ثيابي، دلفت إلى الفراش وناولتها خافض للحرارة وغفت سريعًا، لكنها لم تتحسن، كان جسدها ينتفض رغم الأغطية الثقيلة التي أحطتها بها، تفحصت الكدمات المطبوعة على وجهها وأسفل عينيها، ولمست الجرح الموشوم على شفتيها في دهشة، ماذا فعلت لتستحق كل هذا؟

جاء الصباح سريعًا لا أدري، كيف سأذهب للعمل وأتركها مريضة؟ هل جاءت لتقلب نظام حياتي؟ ظلت تهذي لأيام رغم أن الطبيب طمأنني على حالها، لكنها لم تستجب لمفعول الدواء، وكلما غفوت أيقظتني صراخاتها كانت تصيح بقوة وتتقلص عضلات وجهها في فزع، أحضرت الطبيب للمرة الثانية وأخبرني بأنها تعاني من اضطرابات النوم ثم وصف لها مهدئ.

تذكرت كيف وجدتها على موقع التواصل بعد طول بحث، كانت تتجاهلني في البداية، لكن تمكنت من لقائها بعد فترة، لكنها لم تتذكرني وسعدت لذلك، فلم أكن أرغب أن تتذكر نسختي الشاحبة حين كنا بالمدرسة، لم أتخيل يومًا أن تكون حياتها قاسية هكذا، فقد كانت تبدو فتاة مدللة، لكن يبدو أن الحقيقة كانت خلاف ما ظننته، عَلا صراخها فجأة فعدتُ إليها مسرعًا، كانت تقف بجوار الفراش فزعة تلتفت حولها بتحفز.

- من أنت، أين أنا؟

- ميرال اهدئي أنا وليد.

احتفظت بوقفتها المتحفزة وشردت قليلًا..

- كيف أتيت إلى هنا؟

رمت لي السؤال بنبرة اتهام صريحة:

- كنتِ مريضة للغاية حين وصلنا فأحضرت لكِ طبيب وبقيت بجوارك علىَ مدار الأيام الماضية.

هدأت وعادت إلى الفراش، كان الإنهاك باديًا عليها، وشوهت الكدمات الزرقاء بياض بشرتها الثلجي، فتركتها تستريح وذهبت لأعد الفطور وتناولناه سويًا، انتهت من تناول فطورها سريعًا ولم تكن تناولت سوى الفتات فناولتها دواؤها، ثم سقطت في النوم سريعًا أثناء حديثي معها فتركتها تستريح، وذهبت للتسوق.

(٤)

استيقظت من نومي ولم أجد وليد، فجلستُ انتظره بغرفة المعيشة الصغيرة، كانت شقته في حاجة إلى النظام، لم تكن بالغة الفوضى كغرفتي لكن مزدحمة بالأكياس والعلب الفارغة إلى جانب قطع الأثاث المتناثرة، تذكرتُ الحقيبة الصغيرة التي أحضرتها معي، تُرى أين ذهبت؟ أخشى أن أكون أضعتها في محطة القطار!، كانت هذه الحقيبة آخر ما تبقى لدي بعد أن دمرت والدتي كامل أشيائي، فوضعت فيها متعلقاتي الثمينة وحاسوبي المحمول وتركتها عند جارتي، لا أدري كيف سأتدبر أموري الآن؟ فنصيبي بميراث والدي تحت الوصاية، وما تبقى بحسابي البنكي لن يغطي مصاريفي وحتى لو وجدت عملٍ فلن يغطي نفقة الدراسة والسكن، ولا يصح أن أبقى بمنزل وليد طويلًا، عاد وليد أثناء استغراقي بالتفكير، كان محملًا بالمشتروات وضعها على الطاولة واتجه إلى غرفة النوم.

- وليد أين كنت؟ لماذا لم تخبرني بخروجك؟

أجابني وهو يتجه نحوي:

- أنتِ هنا يا ميرال؟ ماذا تفعلين خارج الفراش؟
- كنت أنتظرك.
- كيف حالكِ الآن؟
- أفضل بكثير.
- هيا لتعودي إلى الفراش حتى لا تسوء حالتك مرة ثانية.

- لا تقلق أنا بخير، لاحظت أن هذه هي غرفة النوم الوحيدة بالمنزل، أين نمت في الأيام الماضية؟

- قضيتُ أغلبها بجوارك وكنت أتجه إلى الأريكة حين يغلبني النعاس.

- يا اللّه جئت لإزعاجك! وأقلب حياتك سامحني أنا..

قاطعني:

- ششش كُفي عن السخافة، لقد أنقذتيني من وحدتي، انتظري حتى تشاهدي ما أحضرته لكِ.

تركني ثم عاد ومعه أكياس أطعمة للطهو وحلوى وفاكهة وأدوية، وقطع ثياب جديدة.

- ها، ما رأيك؟ لم أشتري الكثير من الثياب مخافة أن لا يعجبك ذوقي.

- ما كل هذا! رائعة جدًا لكن لن أستطيع قبولها.

- ألم تعجبكِ؟

- رائعة جدًا، لكن لا أستطيع قبولها ما دمت لم أسدد ثمنها.

- حسنًا اعتبري ثمنها قرض وسدديه متى أردتي.

- سأذهب غدًا إلى البنك لسحب وديعتي.

- ألن تجربي الثياب؟

- سأجربها، لكني بحاجة للاستحمام أولًا بعد هذه الحمى.

دلفت ميرال إلى الحمام وتركتني غارقًا في حيرتي حولها، كيف وصلت إلى هذا الوضع؟ هل لوفاة والدها دخل بهذا؟ لا أظن فوالدها كان ثريًا، ولا بد أنه أمن حياة أسرته جيدًا، لا يهم ما حدث المهم أنها معي الآن، وعليّ أن اكتسب ثقتها وأقنعها بالإقامة معي.

(٥)

- ألو مرام احضري أنتِ وزوجك فورًا.
- ماذا حدث؟
- احضري الآن هناك مصيبة حدثت.

أغلقت شذى الهاتف في حنق وراحت تذرع شقتها وهي تفكر في حل لهذه الكارثة التي كانت بانتظارها حين أستيقظت، قاطع حضور مرام تفكيرها.

- صباح الخير يا أمي.
- من أين سيأتي الخير؟ أختكِ هربت.
- كيف فعلتها؟
- لا أدري دخلت إلى غرفتها لأخبرها أن تستعد للقاء ابن خالتك، لكن فوجئت بهروبها.
- سيجن خالد لو علم بهذه الفضيحة، ابنتك المستهترة ستتسبب في خراب بيتي.
- أين هو الآن؟
- ذهب إلى العمل وسيلحق بي، ألم تغلقي الباب عليها؟
- أغلقته جيدًا ولم يكن معها نسخة من المفاتيح.
- كيف فعلتها؟

انطلقتُ إلى غرفة ميرال للبحث عن شيء نستدل به على مكانها، كانت الفوضى تضرب الغرفة الواسعة، ثياب ممزقة وقناني عطور

محطمة في كل مكان وكأن إعصار ضربها، لم أجد جدوى من البحث فعدت إلى والدتي حانقة.

- كيف هربت إذاً؟ هل ألقت بنفسها إلى الشارع؟
- بالتأكيد لا، أظن أنها قفزت إلى شرفة الجيران وهربت مِن خلالهم.
- أي جنون هذا يا ربي!، هذه شيطانة على هيئة بشر.

قالتها والدتي وانطلقت إلى منزل جارتنا، قرعت الجرس بنفاذ صبر ويدها الأخرى تدق الباب بعنف، وما إن أتاها رد من الداخل حتى ارتفع صوتها متوعدًا، فتحت الجارة الباب لاستقبالها فاندفعت للداخل وتبعتها.

- أين هي؟
- عن من تتحدثين يا شذى؟
- ابنتي التي ساعدتيها على الهرب.
- ابنتك ليست هنا اهدئي واجلسي.

صحت بغضب:

- إما أن تخبرينا عن مكانها أو سأبلغ الشرطة.
- سأتصل أنا بهم إن لم تنصرفي فورًا.
- وهل ستخبريهم على تشجيع ابنتي الصغيرة على الهرب، أنتِ المسؤولة أمامي إذا لحق بها أذى.
- سأخبرهم عن اقتحامك لمنزلي، وعن تعذيبك لابنتك واستغاثاتها المستمرة.
- ما شأنك أنتِ بهذا، هذه ابنتي وأؤدبها.

اندفعتُ للداخل بحثًا عن ميرال ووقفت الجارة تطلب النجدة بدعوى تهجمنا على منزلها، تدخل الجيران على أثر الضجيج والعراك، وعدنا إلى شقتنا.

- ماذا سنفعل الآن؟

- لا أدري يا مرام لكنها ستعود حتمًا فليس لها مأوى آخر، وسأجعلها تتذوق عواقب فعلتها.

حضر خالد وقصّت عليه أمي ما حدث ثار وفقد أعصابه:

- تلك اللعينة تتكبر على أخي، ألا يكفي أنه وافق عليها رغم فضائحها التي يعلمها الجميع!

- ستعود يا خالد فليس معها نقود أو إثبات شخصية.

لم يتوقف البحث عن ميرال، الأيام تمر ولا أثر لها ما العمل يا أمي؟! لقد فتشنا المدينة بأكملها لكن بلا جدوى.

- لقد حدث ما كنت أخشاه ستنتظر بلوغها سن الرشد وتعود لتطالبني بميراثها.

أحال خالد حياتي إلى جحيم كان ينقم عليّ لأني لم أكن ميرال حبيبة طفولته ولأنها لم تكن لتتزوجه ولو أمطرت السماء حجارة، كان يأمل أن يضعها تحت عينيه بتزويجها من أخيه والتحكم بها بعد ذلك لكنها أفشلت خططه.

(٦)

عادت ميرال إلى الغرفة تترنح من الإعياء همست:

- لا أعرف كيف أشكرك على كل ما فعلته لأجلي.

- لا داعي للشكر نحن أصدقاء، هيا جففي شعرك وسأعد لكِ مشروب دافىء.

غادرتُ الغرفة وتركتها تعبث بخصلاتها السوداء في شرود، كانت مراقبتها تقطع الأنفاس إعجاب، كل هذا الجمال ولم ترتبط بعد، هل يعقل هذا؟

نعم.. فلو كان لديها حبيب للجأت إليه بدلًا مني، لكنْ من الصعب تخيل أن تبقى فتاة بجمالها وحيدة، أعددتُ المشروب وعدتُ إليها.

- تناولي المشروب قبل أن يبرد أرجو أن ينال إعجابكِ.

جلستُ أتأملها وأنا أتساءل سبب تلك الكدمات التي تغطي وجهها وجسدها.

- وليد.. ألم تجد الحقيبة الصغيرة التي كانت معي؟

أحضرت حقيبتها ووضعتها أمامها وهممت بالرحيل لكنها استبقتني:

- ابقى معي فأنا بحاجة للحديث إليك.. لقد تركت المنزل بسبب إهانة شذى المستمرة وإصرارها على زواجي من ابن أختها قسرًا، لقد ساءت الأمور كثيرًا بعد وفاة والدي، وتوقعت أن أضطر لترك المنزل في أي لحظة، لذا جمعت مقتنياتي الهامة وتركتها مع جارتنا تحسبًا لهذا الوضع.

قاطعتها متسائلًا:

- شذى هذه والدتكِ؟

- نعم، لكنها لا تستحق هذا اللقب.

- ألن تبحث عنكِ عائلتك؟

- لا أتوقع أن يهتم أحدهم بالعثور عليّ، عدى خالد.

- خالد؟

- زوج أختي، سيسعى للانتقام مني.

- لِمَ كل هذا؟

- هذه قصة يطول شرحُها لا أريد إزعاجكَ.

- على العكس أنا مهتم بمعرفتكِ عن قرب.

- حسنًا.. البداية كانت قبل ميلادي، كان والدي مرتبطًا بفتاة أخرى قبل زواجه وساءت علاقتهما وكان على معرفة بشذى وقتها، فاستغلت الفرصة وتحايلت عليه للزواج منه ولكنه ندم على ضياع حبيبته، وأحال حياتها إلى جحيم.

صمتت وراحت تعبث بخصلاتها بشرود..

- لكن ما دخلكِ أنتِ بكل هذا؟

- كان والدي يعتقد بأني أشبه حبيبته وكان أحيانًا يعاملني على أنني هي! وظلت والدتي تكرهني لهذا السبب، أرأيت مثل هذا الجنون من قبل؟

- في الحقيقة لا، أقصد.

- لا عليك، أنا أيضًا لم أرى عائلة كعائلتي قط.

- ما هي درجة الشبه بينكِ وبين تلك الفتاة؟

- اسمها حور بالمناسبة، يُقال أن شعري يشبه شعرها الأسود بطوله وغزارته وأن ملامحي تشبه ملامحها وأني أحمل روحها المتمردة.

أطلت النظر فيها كانت ممشوقة القوام ممتلئة باستدارة مذهلة، كأن منحنياتها تشكلت بسن البرجل وزوايا المنقلة، سكن الليل دفتي عينيها الواسعة وانتشر بخصلات شعرها الغجري، وكأن الله عوضها عن قِصر قامتها بطول شعرها الفاحم، شديدة الشبه بالممثلة شريهان.

- أين شقيقكِ مما حدث؟

- حصل على منحة دراسية في الخارج قبل وفاة والدي، ويبدو أنه وجدها فرصة للهرب من جنون عائلتي فاستقر هناك.

- هل كانت علاقتك به جيدة؟

- إلى حد ما لؤي انطوائي ولم تكن علاقتنا قوية.

- ماذا عن شقيقتك؟

- مرام شقيقتي الكبرى أحن مخلوق على ظهر الأرض بعد شذى، منذ الطفولة وهي لا تتوانى عن إثبات كرهها لي.

قالتها بسخرية مريرة.

- هل أخبركِ سرًا؟

أومأت برأسها..

- لقد كنت أغبطكِ على حياتك، فصفحتكِ على موقع التواصل تعطي انطباعًا بأنكِ فتَاة مدللة.

ضحكت بسخرية وهي تقول:

- نعم لا أدري كيف أصف لك كم الدلال الذي حصلت عليه!

سكتت قليلًا..

- هيا أخبرني عنك؟

- نشأت داخل أسرة محافظة، كانت والدتي مثالًا للمرأة الخنوعة، طغت سيطرة والدي على الجميع، كنت أميل إلى طاعته والامتثال لرغباته، ظل الأمر على هذا الحال حتى وصلت إلى المرحلة الجامعية فتركتهم للدراسة.

- ماذا تعني بعائلة محافظة؟

- كانت عائلتي تهتم بالمظاهر كثيرًا وبرأي الآخريين وانطباعهم عنا وبالأخص والدي الذي كان يفرض علينا الطاعة العمياء دون نقاش.

- ألم تحاول التمرد على حياة العزلة هذه؟

- جاء تمردي متأخرًا بعد أن التحقت بالجامعة.

قالت وهي تغمزني بمرح:

- هل كان للأمر علاقة بفتاة ما؟

تهربت من الإجابة وعاودت الحديث عنها:

- لم تخبريني ما سرّ معاداة عائلة والدتكِ لكِ؟

- قطع والدي علاقتنا بهم بسببي، لم يغفروا لي أني كنت السبب فيما حدث ولم تنسى شذى أنني كنت سببًا في حرمانها من عائلتها.

- هل كانت مشكلة كبيرة إلى هذا الحد؟

أجابت بشرود:

- لا أذكر.

- لماذا لم تسعى والدتك للانفصال عن والدك بدلًا من تلك الحياة المضطربة؟!

- شذى تنفصل وتتنازل عن حياتها المرفهة؟ الأمر معقد دعنا من هذا الحديث.

- عذرًا على تطفلي.

- لا عليك لم تخبرني ماذا حدث معك بعد الجامعة؟

- انقطعت علاقتي بعائلتي ولم أعد أراهم إلا قليلًا، هل تفكرين بالعودة إلى عائلتك؟

- ربما فيما بعد، وليد أنا لن أستطيع البقاء هنا طويلًا.

- إلى أين ستذهبين إذًا؟

- سأبحث عن سكن.

- على الأقل ابقي معي حتى تتدبري أمرك.

- لديّ ما يكفي من المال، لكن أحتاج لمساعدتك في البحث عن سكن.

- لا داعي للعجلة يا ميرال فلا زلتِ غريبة هنا، انتظري حتى تتعرفي على المدينة.

كنت أخشى أن تتسرب من يدي لو تركتها ترحل، أعلم أن فرصة امتلاكها لن تتكرر مرة أخرى.

- حسنًا، لكن يجب أن أنتهي من استخراج أوراقي الشخصية حتى أحصل على عمل.

- غدًا نذهب لاستخراجها.

(٧)

- بدأت الأمور تتضح بعد حديثي مع ميرال، كنت أتعجب من تحررها الزائد عن الحد وتصرفاتها العابثة، حتمًا كان لظروفها العائلية دخل، تركتها تستريح وذهبت للعمل، عدتُ بالمساء لأجد الشقة غارقة في الضجيج، موسيقى صاخبة تأتيني من كل مكان.. التلفاز، المسجل، حتى حاسوبها المحمول، فيما كانت هي متكورة فوق الفراش وغارقة في النوم، كالعادة كانت تهذي ويداها تتحرك بعنف، فأحكمت الغطاء حولها، لمت نفسي على تركها وحيدة طوال اليوم، لا أدري حتى إذا كانت تناولت طعامها أم لا، نمت وأنا أفكر فيما ستفعله؟ لا أدري نوعية الأعمال التي تجيد القيام بها، ولا أرغب بتركها تجرب حظها، اتجهت إلى غرفة نومها في الصباح لأجد الأغطية والوسائد تفترش الأرض، وميرال مستغرقة بالنوم في وضعية غريبة رأسها يلامس الأرض ونصف جسدها خارج السرير، لا أدري ما الذي يحدث معها أثناء النوم! حاولت رفعها فاستيقظت فزعة وراحت تقاومني بضراوة.

- اهدئي يا ميرال لم أقصد إيقاظك.

- واضح!

قالتها بعبوس.

- هيا استعدي لنلحق بالبنك قبل الزحام، سأذهب لتبديل ثيابي.

مرت ثلاثين دقيقة ولم أسمع ما يوحي بأنها غادرت الفراش، عدت إلى الغرفة لأجدها تغط في النوم.

- ميرا ميرا أفيقي هيا.

نهضت متأففة وذهبت إلى الحمام، جلست أترقب عودتها لكنها تأخرت أكثر من المعتاد فذهبت إليها.

- ميرا هل أنتِ بخير؟! لا تضطريني للمجيء، سأدفع الباب...ميرا

كانت نائمة داخل حوض الاستحمام وقفت مذهولًا من قدرتها على مواصلة النوم بأي مكان! رفعتها هذه المرة بحزم ظلت تهذي غاضبة وأنا أسحبها إلى صنبور المياه وأدفع وجهها باتجاهه، قاومتني بشدة لكن واصلت رش الماء على وجهها حتى تستيقظ وننتهي.

- كفى وليد لقد استيقظت تمامًا، اتركني سأصاب بنزلة برد.

وقفت تجفف وجهها وتعيد ترتيب خصلات شعرها المتناثرة، غادرت الحمام واتجهت للغرفة فذهبت مسرعًا خلفها.

- ميرا يا ملكة الكسل أسرعي لديّ عمل سأفقده بسببك.

تأملتني ببرود مدهش وهي ترفع خصلات شعرها وتنثره تجاه اليمين ثم تعيد ترتيبه لليسار مرة ثانية.

- لا زال لدينا وقت كافٍ، كفّ عن القلق، سأعد كوبين من القهوة أولًا.
- لا داعي للقهوة سنتناولها بالخارج.
- لا يمكنني الذهاب إلى أي مكان دون قهوة فرأسي ينبض من الألم.
- كيف ستصنعين القهوة وليس لدينا موقد؟!

رفعت حاجبها في استنكار ووضعت يديها على خصرها.

- أنت تمزح أي بيت هذا الذي يخلو من أبسط وسائل المعيشة!
- ما حاجتي للموقد وأنا لا أجيد الطهو! لا تضيعي الوقت هيا استعدي وسنتناول فطورنا بالطريق.

اتجهت نحو المطبخ وحين تأكدت من عدم وجود موقد، سارت أمامي متبخترة في هدوء مستفز، لا أدري هل تتعمد غيظي؟ وصلت إلى غرفة النوم وصاحت بتبرم:

- ليس لديّ ثياب تصلح للخروج، سأستعير من خزانتك.

- ماذا؟

عادت بعد انتظار طويل وهي ترتدى كنزة قطنية وسروال رياضي، رفعت إحدى ساقيه إلى أسفل ركبتها كاشفة عن ساقها البيضاء، وتاركة الأخرى عن عمد مما أضفى على هيئتها مزيدًا من العبث.

توجهنا إلى قسم الشرطة، واجهتنا صعوبة باستخراج محضر سرقة بالمفقودات، لكنها لم تستسلم راحت تلح على الموظف بهدوء في البداية، لكن سرعان ما علا صوتها وجذب الأنظار إلينا، استلمنا محضر بضياع أوراقها بعد ساعة واتجهنا إلى السجل المدني، تركتها تدخل البيانات المطلوبة داخل الماكينة، عادت بعد دقائق ببطاقة شخصية جديدة.

صاحت في تذمر:

- لماذا لا يتم العمل هكذا في جميع المصالح الحكومية؟ لا أصدق أن هناك من يعمل بهذا النظام القديم حتى الآن، ألم ينتهي عهد المعاملات الورقية منذ عقد مضى!

- هل أنتِ عصبية هكذا دائمًا؟

- نعم حين أكون جائعة، هل يمكننا تناول الفطور الآن؟

عدنا للمنزل بعد تناول الفطور، ثم ذهبت للعمل وتركتها.

(٨)

تظاهرتُ بالنوم إلى أن غادر وليد المنزل ونهضتُ بعدها على شعور بالغثيان وألم رهيب يغزو رأسي، اتجهت للحمام وأفرغت ما في معدتي كعادتي دائمًا كلما تعرضت لضغط عصبي، كان هذا الصباح مفعمًا بالضجيج والتوتر، تخلصت من شعور الكسل واتجهت للحمام وقفتُ تحت الصنبور وتركت المياه تزيل آثار الإعياء عني، وأنا أردد في نفسي: «ابقي قوية لم يعد لدينا وقت فالقادم صعب، ولا مجال للخسارة والفشل.»

عدتُ إلى غرفة النوم، لم يعجبني نظام الشقة، كانت بحاجة إلى إعادة ترتيب ونظافة، وكان لديّ الوقت الكافي لإعادة ترتيبها، كنت ألهث وأعافر لجر الأثاث وإعادة ترتيبه في محاولة للهرب من ضجيج الأفكار التي تعصف برأسي، أدهشني وجود قطع ثياب نسائية مختلفة الأشكال والأحجام متناثرة في أنحاء الشقة، لم أتخيل من قبل أن يكون لدى وليد علاقات غرامية فضلًا عن أن تكون متعددة، جمعت الثياب ووضعتها بغرفة النوم حتى يراها عند عودته، كان الليل قد انتصف عندما انتهيت من التنظيف، جلستُ أمام التلفاز أتابع إحدى البرامج، كنتُ منهكة الفكر والجسد ولم أقوى على إعداد طعام رغم أن معدتي الخاوية راحت تئن من الجوع، لكن فضلت استسلامي للإرهاق.

راحت الأفكار تتدفق إلى رأسي في جنون وسرعة كيف سأواصل الحياة بعد مغادرتي لمنزلي؟ ماذا سأجني من مجيء إلى مدينة مجهولة وإقامتي مع شاب غريب متعدد العلاقات؟

ترى ماذا لديه حتى يجذب كل هؤلاء الفتيات إليه، لديه الكثير للإنصاف.. بشرة بيضاء، وملامح وجهه محببة تتماشى مع شعره البني الطويل وأخيرًا عينان بلون العسل، إلى جانب لسانه المعسول، وأستطيع الجزم بأنه يجيد التعامل مع النساء، نفضتُ التفكير عنه وعدتُ للتفكير في مستقبلي، ترى من سيقبل بتوظيفي وليس لدي مؤهل عالٍ؟ وقريبًا سيتعرض لي وليد بعد أن وضعت نفسي في طريقه، مؤكد أنه يراني الآن فتاة سهلة المنال.

أنقذتني عودة وليد من ضجيج أفكاري، دلف إلى الصالة وتوقف قليلًا، ظل يتفحص المكان بدهشة لبعض الوقت ثم بادرني:

- ماذا حدث هنا أين ذهبت الأريكة الثانية؟
- مساء الخير.
- معذرة مساء الخير

دلف إلى المطبخ عاد ومعه طبق وكاستين، وضع الحقائب على الأريكة واتجه لغرفة المكتب، دلف إليها وعاد سريعًا.

- ميرا ماذا حدث في غيابي؟
- لقد أعدت ترتيب الشقة لكن بإمكاني إعادتها كما كانت لو أردت.
- أصبحت رائعة جدًا، لكن هل فعلت كل هذا بمفردكِ؟

نظرتُ حولي بعبث متعمد:

- هل لاحظت وجود غيري؟!
- لا داعي للماضة.. سأبدل ثيابي وأعود لنرى هذا، هل أحضرتِ سوبر ومان إلى شقتي؟!

عاد وليد إلى غرفة النوم وأطال وقوفه أمام التسريحة التي تركت عليها ثياب نساءَهُ، سرت بداخلي رعشة ورحت أؤَنب نفسي على فعلتي،

كان من الأفضل أن أجمع أغراضي وأمضي بهدوء، ما دخلي أنا بحياته الخاصة! يكفي أنه استضافني بشقته ولم يتعرض لي، أفقت من شرودي على صوته..

- أحضرت لنا وجبة دجاج مشوي وأرز مطهو على الطريقة الخليجية، أراهن أنها ستعجبك.

كان التفكير ينغص عليّ رغبتي بالأكل وعدت من جديد لشرودي، فبادرني:

- ما رأيك أن نتحدث بصراحة؟ تلك الثياب التي جمعتيها أثارت خوفك مني أليس كذلك؟

قالها وهو يطيل النظر إليّ، استكمل حديثه:

- لقد وعدتك بعدم التعرض لك وبإمكاني الوفاء بالوعد الذي قطعته على نفسي.

تمتمت في تسرع:

- لا أظن ذلك.
- أنا لست همجيًّا وأجيد التمييز بين الصداقة والعلاقات، كان بإمكاني الوصول إليكِ الفترة الماضية لو أردت، لقد كنتِ فاقدة الوعي بفراشي، ولم أتَعرض لك.
- لكن لن استطيع البقاء هنا طويلًا حتى لا أضيق عليك.
- لن أسمح لكِ بالمغادرة قبل أن تتحسن أمورك، هذا أمر منتهي.

أحسست بصدق كلماته فسكت.

- لكن أخبريني كيف استطاع ذلك العفريت إجراء هذه التغيرات بمفرده؟

أراد أن يهرب من ضجيج أفكاره فانشغل بالترتيب.

- سأنام من الليلة على الأريكة وعد أنت إلى فراشك.
- سيبقى الوضع كما هو عليه.
- لكن هذا ظلم أنت تستيقظ باكرًا وتعود مرهقًا وتحتاج للراحة.
- انهضي عن الأريكة.

نهضت باستغراب فقام بفرد الأريكة فأصبحت على شكل فراش وثير.

- أصبح لدى كل واحد منا فراشه الخاص لا داعي لشعورك بالذنب.

عاود الجلوس قائلًا:

- سأعود غدًا مبكرًا ونذهب لشراء ما يلزمك.
- أنا بحاجة لعمل.
- ألن تكملي دراستكِ؟
- سأعاود الدراسة بعد الحصول على عمل، أنا بحاجة لشريحة إنترنت الآن.

ناولني وليد شريحته أرسلت إلى لؤي وأخبرته بمغادرتي لمدينتنا وأنني تمكنت من تدبير أموري، دلفت بعدها إلى إعلانات الوظائف، كانت جميعها تشترط الخبرة والمؤهل العالي، لاحظ وليد إحباطي.

- لا تقلقي سأبحث لكِ عن عمل يناسبك، هل لديك سيرة ذاتية؟
- لا.

تناول الحاسوب وبدأ بإعدادها.

- ما هو آخر مؤهل دراسي حصلتي عليه؟
- ثانوي سياحة فندقية ومطاعم.
- حقًا؟
- نعم كنت أعشق الطهو وشجعني والدي على الالتحاق بالثانوية الفندقية.

- أخبريني بالأماكن التي عملتي بها.

- مطاعم وسكرتارية وخدمة عملاء.

- متى فعلتي كل هذا؟

- كنت أتنقل بين الوظائف بشكل مستمر.

- ما هي اللغات التي تجيدين التحدث بها؟

- الإنجليزية، الأسبانية، الفرنسية .

- جيد، هل لديكِ خبرة بالكمبيوتر؟

- أجيد تدشين الصفحات والعمل على برامج السكرتارية.

- حسنًا أصبح ملفكِ جاهزًا الآن.

(٩)

استيقظت على دقات المنبه كانت ميرا لا تزال مستغرقة بنومها فتركت لها رسالة ومبلغ من النقود مع أرقام المطاعم في حال أرادت طلب فطور من الخارج وذهبت لعملي، لا يعقل أن أساعدها بإيجاد عمل فهذا يعني أنها ستستقل بحياتها، الحل الوحيد هو أن أشعرها بضرورة وجودي معها، عليّ الانتباه إلى طريقة تعاملي معها، لا مزيد من العلاقات أمامها حتى تلاحظ أني تغيرت لأجلها.

- وليد فيما هذا الشرود؟
- مرحبًا حسام، لاشيء سوى العمل.
- العمل أم علاقة جديدة مثلًا؟
- أنت تعرفني جيدًا لا تستهويني العلاقات.
- أين كنت منذ بداية الأسبوع؟
- كان لديّ مشكلة عائلية.
- سنقضي السهرة اليوم بمكان رائع عثرت عليه صدفة وسننتظرك.
- لن أستطيع الذهاب معكم فلديّ أمور هامة الليلة.
- أمور هامة لا تحتمل التأجيل، ألم أخبرك أنك تغيرت في الفترة الماضية؟
- صدقني لا شيء سوى بعض الأمور العائلية العالقة.

غادر حسام المكتب متأففًا لرفضي الذهاب معه.

كانت ميرال مستغرقة في النوم عند عودتي للمنزل، افتعلتُ أكبر قدر من الضجة لكن لا شيء يقوى على انتشالها من سباتها العميق.

- ميرا.. ميرا؟

اقتربتُ منها للاطمئنان عليها، فأستقبلتني بضربة في منتصف وجهي ونهضت فزعة كالعادة.

- لا تقلقي، هذا أنا.

تلفتت حولها بعدم استيعاب.

- كم الوقت الآن، لماذا لم تنم؟

- لقد نمت بالفعل وذهبت إلى العمل وعدت، هل نمتي كل هذا الوقت؟

- يبدو هذا.

- هيا استعدي سنذهب لنتناول الغداء والتسوق.

- لست جائعة، أرغب في النوم بشدة.

- أسرعي رجاءً فأنا أتضور جوعًا.

عادت والغضب يغطي ملامحها:

- وليد معي ما يكفيني من النقود ولن أقبل أن تتحمل نفقاتي.

لدقائق لم أستوعب عن ماذا تتحدث، فأشاحت بوجهي بالنقود والورقة التي تركتها.

- لديّ نقودي الخاصة.

أخرجت رزمة مالية من جيب بنطالها وهي تؤكد على صدق حديثها، غادرنا الشقة واتجهنا إلى أحد المطاعم القريبة.

كانت فتنتها الطاغية تجذب الأنظار رغم بساطة ثيابها، انتقينا طاولة بزاوية هادئة، وطلبت تشكيلة من المأكولات البحرية.

- أخبريني عن وجبتك المفضلة؟

- لا شيء محددًا، أنا مزاجية بالنسبة للطعام تارة أتبع حمية ووجبات صحية، وتارة أسرف بتناول الحلوى والوجبات السريعة، ماذا عنك؟

أعشق الوجبات المنزلية وأفتقدها كثيرًا.

- هل تفضل أكلة معينة؟

- لا شيء محدد طواجن البامية باللحم والملوخية الخضراء.

وصل الطعام فعلىَ الوجوم وجهها وتطلعت إليه في صمت، نزعت الشوك عن الأسماك ونظفتها ووضعتها في طبقها، تناولتها بحذر ثم اندمجت بعدها في تناول الطعام باستمتاع.

- كانت وجبة رائعة لم يسبق أن تذوقت أشهى.

- سعيد بأن الطعام لاقى استحسانك هكذا.

توقفنا عند مقهى يطل على البحر، واتجهت إلى الكراسي المصطفة قرب الشاطئ لكنها رفضت الجلوس في الخارج.

- أكره مشاهدة البحر ليلًا.

- دعينا نجلس بالداخل إذًا، لكن لِمَاذا؟

- يخيفني منظر الظلام الممتد بطول البحر.

طلبت كاستين من الشاي وبادرتني:

- ما رأيك أن نجرب لعبة الورق أو الدومينو؟

- هنا؟

- ولمَ لا!

نهضت وجلبتُ علبة الدومينو وبدأنا اللعب، كانت تتعمد تشتيت تركيزي لتربح تناولنا الشاي ثم غادرنا، اصطحبتها إلى مركز التسوق، دارت على محلات الملابس كانت تستعرض الثياب أمامي؛ لأعطيها رأيي

كنت أراها تضفي جمالًا على كل ما ترتديه، فقدت الإحساس بالوقت ونحن نطوف بالمحلات، بدت مهووسة بالشراء.

انتهينا بعد أن تحولت لحامل حقائب وامتلأت كلتا يداي بالأكياس، اتجهنا إلى الخارج لكنها عادت إلى أحد المحلات حين استوقفها سروال قصير من الجينز الممزق تمامًا وبدا أنه يكشف أكثر مما يستر، حاولت إثناؤها عن شراؤه لكنها أصرت، يا الله هذا ما ينقصنا لتزيد من لفت الأنظار إليها، ارتدته أمامي مع قميص ضيق بالكاد يغطي ثلثي خصرها، مظهرًا نعومة بشرتها الوردية، وتفنن البنطال في إبراز تناسق ساقيها.

- ها، ما رأيك؟
- هل سترتديه خارج المنزل؟
- ألا يعجبك؟
- رائع، لكن ستتعرضين للمضايقات لو خرجت إلى الشارع هكذا.

ابتسمت بعذوبة وهي تقول في استسلام:

- سأرتديه عندما نكون معًا إذًا.

أرضت جملتها غروري، سيغبطني الجميع على رفقتها حين نسير معًا، غادرنا المركز وعدنا للسير لكنها توقفت فجأة، وسائلتني:

- ما هي نكهتك المفضلة؟

لم أفهم في البداية، لكنها كانت تستعد لشراء مثلجات.

- لن نتمكن من تناوله مع هذه الأكياس.
- سنفعل هيا أخبرني؟
- الشكولاتة.

اتجهت إلى المحل وعادت وهي تحمل علبتين ناولتني إحداهما كانت بنكهة الكرز.

- لكن هذا ليس طلبي!

- أعلم أردت أن أتذوق نكهتك المفضلة وأن تجرب نكهتي على سبيل التغيير.

سارت إلى جواري وهى تشاكسني بوضع الكريمة فوق أنفي وجبهتي، نهرتها عن هذا بعد أن لفتت أنظار المارة إلينا، قطبت جبينها هاتفة..

- أنت معقد.

عدنا إلى المنزل فألقت الأكياس على الأرض وارتمت على الأريكة، جلست إلى جوارها، نهضت فجأة وحملت الأكياس واتجهت إلى غرفة النوم، عادت بعد قليل وهي تستعرض زيها أمامي كعارضات الأزياء، طلبت مني تقمص دور المصور.

- ما هذا لا أظن أني اشتريته!

- فستان.

- أفادكم الله، أعلم أنه فستان من أين جاء؟

- راقني جدًا فاشتريته، سيصبح رائعًا عليكِ هيا لتجربيه.

- أنا لا أحب ارتداء الفساتين.

- أعطيه فرصة وجربيه هيا ميرا الكاميرا والجمهور ينتظرك.

اتجهت إلى غرفة النوم وعادت وهي ترتديه، بدت كأميرة ساحرة بالفستان الأسود القصير ذو الأكمام المرتفعة والخصر الضيق، تأملتها بانبهار وهي تتبختر به.

(١٠)

بدأت أشعر بوحدة شديدة بعد أن تأكدت بأني لا أملك من يهتم لأمري ويدفع عني قسوة الحياة، لكن لِمَ لا تسعى شذى للبحث عني كأي أم فقدت ابنتها؟ أعلم أن بإمكانها الوَصول إليّ لو أرادت لكن يبدو أنها استراحت من وجودي، كنت أقنع نفسي دائمًا بأن الأمر لا يتعدى سوى كلمات وأفعال لا تنتمي للحقيقة وأن الأمر سيتغير لو أصابني مكروه، وستظهر محبتهم لي، لكن كنت واهمة، ربما لم يكن يامن بالأب المثالي لكنه كان الوحيد الذي يهتم بي، كنت أعلم أن هناك خلل بعلاقته معي وأن اهتمامه بي مرضي، لكن مع هذا كنت أقتات عليه.

بدأت الذكريات تضرب رأسي بقوة، بداية من طفولتي حتى لحظة هربي، كنت ضعيفة دائمًا في مواجهة ذكرياتي ولو تركت نفسي إليها سينتهي الأمر بانهياري وإيذائي لنفسي كالعادة، فلجأت للنوم هربًا من ذاك الوجع، كنت ألتهم ساعات النوم بجشع رغم بشاعة ما أمر به في أحلامي لكنها ستظل أهون من واقعي، كنت أفهم محاولات وليد لاقتحام حياتي وكنت مضطرة لمجارته فلم يكن من الفطنة صده، لذا كنت ألقي إليه بالفتات التي لا تضرني معرفته بها وفي نفس الوقت تكفي لإشباع فضوله.

وأدركت أن اهتمامه بي لم يكن قائمًا على الصداقة، فلم تكن هناك علاقة قوية تجمعنا من قبل حتى يهتم بي بهذا الشكل، ربما كان هناك أمر ينقصه قبل حضوري، ليس الحب بالتأكيد فهذا لا يحدث إلا في الأفلام، ولا أظنه احتياج فلديه عمله وأصدقائه ولن تغنيه علاقتي

السطحية عن علاقاته النسائية، ربما كان مجرد انجذاب عابر للأشياء التي تلفت الأنظار، أعلم جيدًا قدر جمالي، وأدرك الانطباع الذي يتركه مظهري العابث لدى الجميع، ترى كيف يفكر بي؟

(١١)

قضيت العطلة مع ميرال مضحيًا بالسهر مع أصدقائي لأجلها، أمضينا السهرة أمام التلفاز واقترحت عليها أن نتسلى بلعبة الأسئلة وجدتها فرصة للتعرف إليها، لكن إجاباتُها اللاذعة كانت تثير دهشتي.

- ما رأيكِ في الحب؟

أجابتني بسخرية:

- لعبة جميلة، ما رأيك في الحياة؟
- متعبة لكنها جميلة.

عبثت قائلة:

- تبدو حالمًا.
- ما رأيكِ بالعلاقات؟
- مجرد خدعة نختبىء خلفها هربًا من الوحدة، لماذا تعيش بمفردك؟
- كان لديّ صديق يقيم معي حتى وقت قريب، لكنه رحل فجأة ولم أجد فرصة للبحث عن غيره، ما سر رفضِك للعلاقات؟
- أرى بأنها وهْم يدور حول البقاء معًا إلى الأبد والكثير من الشعارات الخداعة.

ختمنا السهرة بمشاهدة أحد أفلام الرعب التي تدمنها، لكنها غطت في النوم قبل نهاية الفيلم، ولحقت بها.

اصطحبتها في اليوم التالي بجولة حول المدينة، بدأناها بقصر المنتزه العريق، التقطنا بعض الصور هناك، وزورنا القلعة وتناولنا الغداء فوق السياج الصخري القريب من البحر، وعدنا للمنزل منهكين، استكملنا الجولة في اليوم التالي، كانت تعليقاتها الساخرة تسرق ضحكاتي وتزيد من إعجابي بها.

كانت ميرال نائمة حين ذهبت للعمل، ولم أجدها بالمنزل عند عودتي، هل قررت الرحيل دون إخباري؟، لكن كيف فجميع أغراضها هنا؟!

ذهبتُ للبحث عنها بعد أن طال انتظاري لعودتها، سألت عنها حارس العمارة وبعض المحلات القريبة لكن لم يرها أحد، لفت انتباهي حاسوبها المتروك فوق المنضدة، دلفت إلى حسابها الشخصي وتفحصت الرسائل عسى أن يكون أحدهم راسلها وذهبت للقائه، كان الحساب الجديد فارغًا إلا من بعض الصور الخاصة بها لا محادثات أو أصدقاء.

لكن وجدت رسالة منها مُرسلة إلى حسابي، أخبرتني فيها بأنها ذهبت لتتعرف على المنطقة وأضاعت الطريق عند العودة، من حسن الحظ أنها أشارت إلى مكانها، لقد مر وقت طويل على الرسالة، ترى هل سأجدها هناك؟

وجدتها تجلس متكورة على نفسها فوق أحد مقاعد محطات الانتظار، كانت في حالة يُرثى لها من الذعر، ناديتها فلم تنتبه فوضعت يدي فوق كتفها انتفضت فزعة.

- ميرا هذا أنا لا تقلقي.

كان وجهها شاحبًا والدموع تملىء عينيها، همست بصوت مرتجف:

- لقد أضعت الطريق.

- لا عليكِ هيا لنرحل، لقد بحثت عنك كثيرًا ولم أنتبه لرسالتكِ إلا متأخرًا.

كررت كلماتها المرتجفة، «لقد أضعت الطريق.»

- أدركتُ أنها تهذي، وخمنت أنه بسبب خوفها من البحر والظلام، ظلت ترتجف حتى وصلنا للشقة، تركتني وذهبت إلى الفراش وتكورت على نفسها بوضع الجنين حتى غفت، هدأت ملامح وجهها قليلًا لكنها لا زالت تحتفظ بتعبير الخوف.

غادرت الغرفة حائرًا فقد كنت أراها شخصية قوية يصعب كسرها، لكن حين اقتربت منها فوجئت بالجانب الهشّ لشخصيتها، كان هذا من حسن حظي، أصبح الآن لديّ مفتاح شخصيتها ويمكنني التقرب إليها.

استيقظت في اليوم التالي متأخرًا عن عملي، علقت لها ملاحظة بعدم مغادرة الشقة مهما حدث، لكن للمرة الثانية لم تكن بالمنزل حين عودتي، ثار جنوني هل صارت تتعمد مخالفتي ألم أؤكد عليها بالأمس ألا تغادر الشقة بمفردها، يا الله أين اختفت هذه المرة؟

دلفت إلى الحساب الشخصي عساها تكون قد تركت رسالة لكن لم أعثر على جديد، انتبهت للحركة الصادرة قرب باب الشقة، كانت تفترش السلم وحولها أكياس أطعمة، رفعت رأسها نحوي وعلامات المفاجأة بادية على وجهها، رفعتها عن الأرض بذراع واحدة وجررتها للداخل.

- ألم أخبرك بالبقاء داخل المنزل، أين كنتِ؟

كانت تراقب عصبيتي وانفعالي بتعجب، ظننته سخرية مما زاد من جنوني.

- هل بات استفزازي مسليًّا، هل تتعمدين السخرية مني؟

قاطعتني:

- وليد دعني، لم أقصد الاستهزاء بِك.

انتبهت ليدي التي تهزها بعنف، هدأت قليلًا:

- لكن نظراتك تحمل السخرية.

- لم أقصد هذا كان مجرد استغراب، فلم يسبق أن أهتم مخلوق لغيابي كما فعلت.

قالتها و هي تشيح بوجهها عني ونظرة الانكسار تطل من عيناها.

- أين كنتِ؟

- ذهبت لإحضار الطعام، كنت أنوي أن أفاجئك بطهوي عند عودتك، لكن نسيت أني لا أحمل مفتاح الشقة.

- وهل قررتي الطهو على الفحم؟

- لا على الموقد.

استنفزت صبري بإجابتها المتقطعة:

- أي موقد يا ميرال؟

- غادرت المنزل بالأمس لشراء أجهزة كهربائية وموقد للطهو لكن تأجل شحنهم لعدم معرفتي بعنوان الشقة، وتم إرساله اليوم.

اتجهت إلى المطبخ لأدرك أن التغيير الذي أحسست به كان هناك، وجدتها أعادت تجهيزه بالأواني والأجهزة الحديثة.

- هل أعجبك؟

- لن أسمح لكِ ببعثرة نقودك على شقتي.

- هذه مشاركة بسيطة مني ولن أقبل بالبقاء معك إذا أصريت على دفع المقابل.

- ميرال ادخري نقودك من أجل دراستك.

قاطعتني:

- لديّ ما يكفي لدراستي ووجدت عملًا اليوم.
- أين؟
- في المقهى الواقع خلف بنايتنا على بداية الرصيف البحري، هل تعرفه؟
- نعم، ماذا ستفعلين هناك؟
- سأعمل في المطبخ وخدمة الزبائن.. لديهم جدول تنظيمي لهذا.

قالتها وهي تحمل الأغراض المبعثرة على الأرض.

- بدل ثيابك واسترح حتى أنتهي من إعداد الطعام.
- هل ترغبين بالمساعدة؟

ضحكت بسخرية واتجهت للمطبخ.

اتجهت إلى مكتبي وبدأت العمل بذهن غائب، فما حدث منذ قليل شغلني، فجزء مني كان يرفض اهتمامي بميرال، والجزء الآخر توقف عند كلماتها «لم يسبق أن اهتم بي مخلوق كما فعلت، لم يؤثر غيابي يومًا على أحد من قبل».

أعرف أنها على خلاف دائم مع والدتها لكن ماذا عن والدها، هل كان يهملها إلى هذا الحد؟

كفّ عن التفكير بها، ميرال ليست سوى عابرة ستنهض من عثرتها وتعود إلى حياتها، إما أن تمسك بزمامها أو تتركها.

لن أدعها ترحل بعد أن أصبحت تحت يدي أخيرًا، سيزداد تعلقها بي مع الأيام ولن تقوى على هجري، كانت أصوات الضجيج ورائحة الطهي تصل إلى مكتبي، يبدو أنها تجيد ما تفعله.

- وليد.. وليد هيا لنتناول الغداء.

انتشلني نداؤها من تفكيري، كانت قد أعدت الطعام ورتبته بشكل أنيق.

- هيا لتعطيني رأيك، ربما أمتلك مطعم يومًا ما.

أبهرتني بتفننها في إعداده، مع أنني لم أتخيل يومًا أنها تعرف طريق المطبخ.

رائع جدًا، من الأفضل أن تبدئين في تناول الطعام سريعًا قبل أن أقضي عليه.

نهضت لتجمع الأطباق وذهبتُ لتبديل ثيابي، كانت قد انتهت من تنظيف أثار الطهو وبدأت بإعداد الشاي حين عدت.

- هيا لتخبريني عن تفاصيل عملك الجديد.
- سأبدأ بالغد وسأنتهي بالعاشرة مساء.
- كم راتبكِ؟
- خمسون جنيهًا للساعة، إلى جانب الإكراميات.
- يبدو ضعيفًا للغاية
- هذه مجرد بداية إلى أن أحصل على مؤهل جيدًا وأكتسب خبرة.

عدتُ لمراقبتها كانت ترتدي بنطالها الجينز ذي القماش الممزق الذي أبرز استدارت ردفيها بإثارة بالغة مع كنزة قطنية خفيفة أخذت شكل جسدها.

- هل قابلتِ صاحب العمل بتلك الثياب؟

أجابتني بعفوية:

- لم أنتبه أني لا أرتدي زيًّا رسميًّا، كنت أنوي السؤال عن وجود عمل والعودة فيما بعد لكن تمت المقابلة سريعًا.

همست لنفسي: «لا عجب إذًا من سرعة حصولها على العمل.»

شردتُ بتفاصيلها بدءًا من جسدها الممتلىء قليلًا في إثارة وشعرها الغزير وملامحها الفاتنة، انتبهت لنفسي غارقًا بها من جديد، ألم تتعلم الدرس بعد! كلهن سواء ما إن تقترب منهن حتى يتهربن منك، تغدق عليهن بالمحبة والاهتمام فيعاملونك بقسوة وجفاء، ستتمرد عليك إن لم تسيطر عليها.

(١٣)

سائت علاقتي بوالدتي ولم يعد لها حديث إلا عن ميرال وجمالها وفتنتها، وباتت تتعمد إغاظتي بها، أخبرتني أنهم في النادي يلاحقونها بالسؤال عن ميرال وسر اختفائها فتخبرهم أنها سافرت إلى شقيقها، فتعترف لها إحداهن بأسى أنها كانت تنتظر انتهائها من الدراسة حتى تزوجها لابنها، ثم تختم حديثها دائما بجملة

- أرأيتِ الفارق بينك وبينها؟! ما من مكان وطأته ميرال إلا وتركت فيه بصمتها، من أين أتيتي بهذا التبلد؟ منذ صغرك وأنتِ تنفرين الناس منكِ.

كنت أعترض عليها:

- لكن ميرال فشلت بدراستها في حين أني التحقت بكلية الصيدلة بمجموع خيالي وتخرجت منها بتقديرات رائعة، أنتِ نفسك قلتِ بأنها فاشلة لا تصلح إلا للفت الأنظار.

- كنت أحاول كبح جموحها بعد أن فشلت في السيطرة عليها، لقد حاولت أن أصنع منكِ شيئًا، حتى زيجتك هذه كلفتني الكثير؛ كي تتم ولولا ضغط خالتك المتواصل على خالد لما رضى بالزواج منكِ.

لم تتوقف يومًا عن مقارنتي بالآخرين خاصة ميرال ولؤي، كانت ميرال فاتنة ومحبوبة تسرق القلوب من اللحظة الأولى، ووجدت صعوبة في الظهور بجوار هالتها القوية، ولؤي وسيمًا وشديد الزكاء.

حاولت الهرب من شذى بالذهاب إلى عائلة والدي، لكن جدتي كانت تعايرني دائمًا بأني نسخة من والدتي في هيئتها وطباعها، لا أدري كيف تسرّب أسلوب شذى إليّ حتى تطبعت بها؟! وكان من سوء حظي أني أشبهها لذا لم يكن والدي يطيق البقاء قربي فضلًا عن رؤيتي.

لم يختلف الوضع كثيرًا مع عائلة والدتي، كانت جدتي تستمتع باقتناص عيوبي بدءًا من شكلي وهيئتي وصولًا إلى ثقل ظلي، لم أطق البقاء وحيدة، وكنت أستميت في كسب رضائهم.

أفسد ميلاد ميرال حياتنا، لقد عشقها والدي منذ اللحظة التي رآها فيها، وحظت بدلال لم أتذوقه يومًا دون أن تبذل أي جهد، كنت أظن أن قرب ميرال من والدي سيقوي علاقتي بوالدتي، لكنها كانت تتصيد أخطائي وتصب عليّ غضبها، أعترف الآن أن ميرال كانت تحمل عني العبء الأكبر من سلاطة شذى.

لكنها سرقت قلب خالد وأثارت جنونه، كان متيمًا بها منذ أن كانت صغيرة ولا يسمح لمخلوق أن يمسها غيره، في حين كان يتجاهلني ويسخر مني دائمًا، وكم كانت فرحتي حين رفضت ميرال القرب منه.

شَكَتْ ميرال إلى والدتي تعرض خالد لها وطلبت شهادتي فأنكرت الأمر، لا أدري كيف ستتضرر طفلة من عناق شاب رائع كخالد؟! لقد كنت أحسدها على محبته لها.

عاد والدي من سفره وشكت إليه ميرال تعدي خالد عليها، وأخبرته بأني لم أمنعه عنها، لا أدري ما دخلي أنا! هل ظنت أني سأتجرأ على خسارة الشعرة المتبقية بيني وبين خالد لأجلها؟!

أحال والدي حياتي إلى جحيم ومنعني من الخروج، وفرض عليّ نمط سخيف من الثياب، وقطع العلاقة بيننا وبين عائلة أمي وكنت أعيش على الأيام التي أرى فيها خالد، أصبح البيت معتقل كبير، تحملت والدتي كل

هذا ولم تطلب الانفصال عنه، كان يامن سيفرح حتمًا لو طلبت والدتي الطلاق ويرمينا خارج المنزل دون قرش واحد.

في حين أنه أعطى لميرال كل ما حرمني منه كانت تخرج متى تشاء وتعود متى أرادت تستمتع بإنفاق النقود ببذخ فيفيض عليها بالعطاء بدل من معاقبتها، تنتقي أشد الثياب لفتًا للأنظار فيثني على ذوقها، حتى أنه ألحقها بمدرسة للرقص في حين أنه رفض انضمامي إلى فريق السباحة، كان يذهب بها إلى طبيبة نفسية ويعود ليصب علينا غضبه وجنونه ويتهمنا بأننا شوهنا براءة ابنته، عن أي براءة يتحدث، ثم ألم أكن أنا أيضًا ابنته!

وليتها فلحت بعد كل هذا الدلال كانت تعود للمنزل ومعها جواب رفْد فيطيب خاطرها ويغدق عليها بالهدايا حتى لا تتأثر نفسيًا، لقد كان يكافئها على فشلها في حين أنه يحاسبني على كل درجة.

جاء الفرج أخيرًا بموت يامن وتحررنا من جنونه وعادت علاقتنا بعائلة والدتي من جديد، ولم يبقى هناك ما ينغص حياتي سوى ميرال اللعينة.

فشلت والدتي في السيطرة على جموحها كانت متمردة لا تخشى أحد، فقررت أن تعيد تأديبها، كان كل تصرف أحمق منها يتبعه عقاب وحرمان من المصروف، ظننتُ أن هذا سيجعلها ترضخ لكنها حصلت على عمل واستمرت في عبثها.

كانت تعود إلى المنزل بعد منتصف الليل ورائحة الخمور تفوح منها، حاول خالد إصلاحها فحررت محضر ضده واتهمته بمحاولة التعدي عليها ودعمها في هذا سابقة حبسه على يد والدي فانسحب نهائيًا، واضطرت والدتي إلى التغاضي عن تصرفاتها.

لم أكن أهتم كثيرًا بجنونها وأفعالها، كنت مهتمة بالتقرب من خالد، ونجحت في لفت أنظاره وتقدم للزواج مني، ثارت ميرال حين علمت بالأمر وهددت خالد بالحبس لكنه تجاهلها، فقاطعتني أنا ووالدتي.

وتغيبت قبل الفرح حتى ظننت أنها لن تحضر لكنها ظهرت متأخرة، كان الحفل ببدايته والجميع يتطلع إليّ أنا وخالد لكن بدأت الأنظار تتجه للخلف فجأة عند حضور ميرال التي بدت كشعلة متوهجة بفستانها الأحمر.

كانت تخطف الأنفاس مع كل خطوة تخطوها وكأن سحر نساء الأرض حُل فيها، لم تكن ينقصها الفتنة والإغواء حتى ترتدي فستان ضيقًا يكشف عن أدق تفاصيلها إلى جانب فتحته الجانبية التي امتدت بطول ساقها.

باركتني على الزواج بابتسامة متشفية، فبدت وكأنها تلقي بلعنة فوق رأسي امتد تأثيرها حتى اليوم، وطلبت من مشغل الموسيقى أن يدير موسيقى شرقية تحفز على الرقص، خلعت حذائها وطلبت من الجميع إخلاء الساحة لها، وأعلنت أنها سترقص الليلة على شرفي أنا وخالد ابن خالتها الحبيب.

لم يكن رقص بقدر ما كان استعراض ماجن تلوت فيه بكامل جسدها فأصبحت كعروس مطاط تدور حول نفسها بقوة، وتدير معها رؤوس الحاضرين ، لم تكتفي بهذا واقتربت من خالد وجذبته من رابطة عنقه ورقصت معه.

انتهت الرقصة وظننت أنها ستكتفي لكن خالد استبقاها ورقص معها على أغنية شعبية خليعة، وسحبت رابطة عنقه ولفتها على خصرها وأكملت رقصها المستفز، لم أقوى على احتمال المزيد من هذا العرض المقزز وطلبت إنهاء الحفل.

أحال خالد ليلة زفافي إلى جحيم، وادعى أني حقودة وأحلتُ ليلة عرسه إلى غمّ، كل هذا بسبب رعونة شقيقتي التي استكثرت عليّ فرحتي، لم ينسى خالد ما فعلته ودفعت الثمن يوميًّا، مع هذا تحملت إهانته وجفاؤه حتى أحافظ على زواجي.

تقدم شقيق خالد لخطبة ميرال لكنها رفضت، فتدخل خالد وأخبرنا أن زواجها منه سيضمن لوالدتي البقاء في المنزل ما دامت ميرال ستصبح تحت عصمة شقيقه، لكنها هربت قبل موعد الخطبة وأفسدت خطة خالد.

لقد نجح يامن في غرس بذور التمرد بداخلها، لم أتصور يومًا أنها تمتلك الجرأة على التخلي عن كل شيء ومغادرة المنزل بدون نقود أو شهادة تؤهلها للعمل، هل كانت على علاقة بشاب شجعها على الهرب!

لا أظن فجميعنا نعرف مدى عبثها وتلاعبها، لقد رباها يامن على أن الحب ضعف عليها تجنبه، وكانت تتسلى بقلوب معجبيها بتشجيع صريح منه.

صارت حياتي مع خالد جحيمًا لا يُطاق كنت أهرب منه بالعمل حيث المكان الوحيد الذي يمنحني بعض التقدير والشعور بالأهمية، هل كانت ميرال قوية حين رفضت الرضوخ لسيطرة والدتي وغادرت؟

ها قد عاد خالد إلى المنزل الآن وعليّ الاستعداد لتقمص الدور الذي سيختاره لي هذه الليلة، ترى هل سيجعلني خادمة أم سيجبرني على تقمص دور حيوان أليف كما أعتاد أن يفعل؟!

(١٣)

استلمت العمل في المقهى هذا الصباح، كان كل شيء يسير بشكلٍ جيد فيما عدا نظرات الزبائن التي تلاحقني، تجاهلت الأمر فليس باليدٍ حيلةً وقد جربت تلك النظرات حين كنت أعمل في مدينتي.

وجدت وليد في انتظاري بعد انتهائي من العمل.

- منذ متى وأنت هنا؟
- منذ ساعتين.
- ولماذا لم تخبرني أو تنتظر عودتي في الشقة؟
- أردتُ مشاهدتك أثناء العمل، أنتِ صاحبة بالٍ طويلٍ.
- طبيعة العمل بالمطاعم تتطلب الصبر.

تناولنا العشاء وعاودنا السير، توقف وليد فجأة أمام محل للهواتف قائلًا:

- كنت أبحثُ طوال اليوم عن طريقة للتواصل معكِ، وتذكرت أنكِ لا تحملين هاتفًا فوجدتها فرصة لأهديك واحدًا.

لم يترك لي فرصة الاعتراض وانتقى هاتف متوسطًا الحجم باللون الأحمر الداكن، وزوده بشريحة اتصال ورصيد.

(١٤)

انشغلت ميرال بالعمل وتخلت عن عطلتها كي تدخر تكاليف دراستها، فأصبحت بالكاد أراها بالمنزل، لكن مع هذا ظلت لمساتها تحاصرني، فثيابي تحمل دليل اعتنائها بي، ووجبة الغداء تنتظر عودتها كل ليلة، أكدت لي هذه التفاصيل الصغيرة مدى تعلقها بي فلم أعد أهتم بكثرة غيابها، ووجدتها فرصة للعودة إلى حياتي الخاصة.

واصلت الشهر الثاني على نفس الوتيرة، وبدأ ضغط العمل يظهر جليًا عليها، أصبحت هادئة على غير عادتها، وكثيرًا ما كنت أعود آخر الليل لأجدها مستيقظة وغارقة في بكائها، حاولت معرفة السبب لكنها كانت تتهرب من الإجابة.

رضخت لإلحاحي أخيرًا وحصلت على عطلة، عادت من الدوام مبكرًا عن موعدها المعتاد ومعها بيتزا وبعض المشروبات والتسالي، دلفت للشقة وهي تصيح بمرح، وذهبت لتغتسل وأحضرت بعض الأطباق وجهزت فيلمًا جديدًا، عادت وشعرها مبتلًا تتساقط منه قطرات المياه.

- لماذا لم تجففين شعرك ستصابين بالبرد هكذا؟
- لم أقوى على تحريك يدي فوضعت المنشفة عليه، ظننته جف.

أحضرت منشفة وألقيت بها إليها.

- هيا جففيه ولا تضطريني أن أفعلها بنفسي.

نظرت إليّ بامتعاض وتناولت المنشفة وجمعت شعرها بداخلها.

جلست تتابع الفيلم، فنهضت وأحضرت مشطها وعلبة مصفف الشعر من غرفتها، كانت مستغرقة بمتابعة الأحداث وانتبهت حين جذبت المنشفة وأمسكت شعرها.

- وليد ماذا تفعل؟
- سأمشطه لكِ.
- لا سأعتني به غدًا.

تجاهلت ردها وبدأت تمشيطه، فنهضت فزعة وعلا صوتها بجنون:

- قلت لكَ توقف، إياك أن تقترب مني مرة ثانية.
- اهدئي.. لم أقصد شيء رأيتكِ منهكة وأردت تدليلك فقط.

تجاهلتني واتجهت إلى غرفتها.

- أرجوكِ يا ميرا ابقي وانسي ما حدث، لم أقصد إفساد السهرة.
- أنا متعبة و..

قاطعتها:

- لن أقترب منكِ ثانية، أعدك.

جلست بحذر.

- كيف يسير عملك؟
- لا بأس به كبداية، أين كنت تقضي عطلاتك؟ لاحظت غيابك المتكرر!
- كنت أسهر برفقة أصدقائي، سأعرفكَ بهم غدًا.
- أصدقائكِ فقط؟

قالتها بنبرة شك.

- أحيانًا برفقة بعض الفتيات العابرات.
- عابرات!

قالتها بنبرة لاذعة ونهضت بحدة.

- ميرا هل أغضبتك؟

أجابت ببرود:

- لا، أنا ذاهبة لإحضار أقراص مُسكنة لرأسي.

تجرعتهم وألقت بظهرها على مسند الأريكة، كنت أظنها تواصل متابعة الفيلم لكن فوجئت بها مستغرقة بالنوم اقتربت منها بحذر ومسحت على خصلات شعرها بهدوء دون أن تشعر، شجعني نومها العميق على البقاء قربها، كنت أراقبها برغبة وجنون وتركت أناملي تعبث بخصلاتها حتى أسفل عنقها وظهرها، قاومت رغبتي بالبقاء قربها ونهضت بصعوبة فلم أتمكن من النوم بسبب التفكير، ربما آن الآوان لرحيل ميرال، كان بقاؤها من البداية خطأ، هكذا أنبني ضميري.

لكن تدخل عقلي معترضًا:

«كيف ستتخلى عنها بهذه البساطة أليست هذه هي حلم الطفولة؟».

عاد ضميري للرد:

«لكن هذا الوضع خطأ يجب إنهائه».

«هي من رضت بالاستمرار فيه، قريبًا سترى أنها لا تختلف عن الأخريات، هل نسيت كيف كانت حياتها من قبل مجرد فتاة عابثة تقضي حياتها في السهرات والرقص!»

«لكن هل تظنها تعلقت بي؟»

«نعم بالتأكيد، ألم تلحظ اهتمامها بكَ وغيرتها عليك حين علمت بسهراتك مع الفتيات.»

اتجهت للمطبخ هربًا من ضجيج أفكاري، ذهبت لأعد الفطور لحين استيقاظها، لكن لم تجرى الأمور على ما يرام، رغم أني اتبعت الوصفة بدقة.

(١٥)

استيقظتُ على رائحة دخان كثيفة، تتبعت مصدره وأنا أختنق، وجدت وليد قام بإحراق إناء الزيت وعوضًا عن تغطيته سكب المياه فوقه، تداركت الأمر وقمنا بفتح النوافذ، وتركته ينظف آثار الكارثة التي تسبب بها واتجهت للشرفة وأنا أسعل بشدة، ما أجملها من بداية للعطلة!

جلست أفكر فيما حدث الليلة الماضية، لقد بدأ وليد يتقرب مني وحاول لمسي، حتمًا لن يتوقف الأمر عند هذا الحد، أنا من سمحت له بتخطي حدوده، كان لا بد أن أبدأ بالبحث عن سكن، لكن كيف سأبقى وحيدة في مكان لا أعرف فيه أحد إلى جانب صعوبة وضعي المادي حاليًا؟

منذ أن تركت منزلي وأنا أعاني كل ليلة من الأحلام المفزعة التي تطاردني، وزاد غياب وليد الدائم من شعوري بالخوف، كيف سيكون الوضع إذًا لو انتقلت للعيش بمفردي؟

ومع هذا يبقى وضعي الآن سيئًا للغاية، شاب شهيرًا بعلاقاته النسائية وفتاة هاربة يقيمان معًا بشقة واحدة، من سيصدق براءة العلاقة بينهما؟

قاطع وليد أفكاري:

- لم أخطط لإيقاظك بهذه الطريقة.
- لا عليك، ماذا كنت تفعل في المطبخ؟
- كنت أعدّ فطورًا مميزًا يناسب عطلتكِ.
- بدا لي مميزًا للغاية، تعالى معي لنعد فطور يصلح للاستخدام الأدمي.

كان هدوءه ودفء عيناه يجعلان فكرة هجره بالغة الصعوبة، لقد اعتدت على وجوده خلال تلك الفترة، انتهينا من إعداد الفطور، كان وليد يستمع لتوجهاتي ويُطبقها، وتمكن من صنع فطيرتين بمفرده، جلسنا بالشرفة نتناول الطعام.

- ما رأيكِ أن نقضي السهرة مع أصدقائي الليلة؟

- وماذا ستخبرهم عني؟

- سأخبرهم بأنكِ إحدى قريباتي.

- هل ستخبرهم عن إقامتنا معًا؟

- لا هذا الأمر سيبقى بيننا حتى لا يسبّب لكِ الإحراج، ما رأيك بأن نذهب للسينما، ثم نلتقي برفاقي بعدها؟

- جيد، سأستغل الفرصة لارتداء الفستان الذي أحضرته لي.

- أخيرًا سأراكِ به، هل قررتي أين ستكملين دراستك؟

- ليس بعد، فالأمر محيرًا.

- هل ترغبين في المساعدة؟

اتجهنا للأريكة وأحضر الحاسوب النقال، وبدأ البحث عن المعاهد والمنح الدراسية المتوفرة.

- ماذا قررتي بشأن اختصاصك؟

- سألتحق بمعهد للطهو فهو المفضل.

- لكنه لن يساعدك في الحصول على العمل الجيد، ما رأيك بدراسة السكرتارية أو إدارة الأعمال؟

- أنا لا أجيد الحسابات، كانت هذه نقطة إخفاقي أثناء الدراسة.

- لا تقلقي فالمناهج التي تدرس في المعاهد تختلف عن مناهج المدارس، وسأساعدكِ إن واجهتي صعوبة.

- حسنًا تبقى أن ننتقي معهدًا مناسبًا.

- أرى أن ذاك المعهد هو أفضلهم كما أن لديهم نظام منح دراسية جيدة، دعينا نذهب في الغد ونلقي عليه نظرة، هيا استعدي للسهرة.

- لماذا لا نؤجل لقاء أصدقائكَ ليوم آخر؟

- ما الداعي للتأجيل، أريدكِ أن تلتقي بأشخاص جدد.

وافقتُ على مضض كان لديّ فضول لرؤية الفتيات اللاتي يرافقهن وظننت أني سألتقي إحداهن هناك، ارتديت فستان السهرة الذي أهداني إياه وليد وتركت شعري ينسدل على كتفي، وأضفت بعض الزينة إلى وجهي.

(١٦)

منذ سافرت ولم يكلف والدي خاطره يومًا بدعوتي للعودة، كما لم يكلف نفسه يومها بالذهاب معي إلى المطار واكتفى بسلام بارد في المنزل ووقف يراقب رحيلي من الشرفة، لم يختلف الحال مع والدتي وغابت مرام عن المشهد.

وحدها ميرال التي اهتمت بسفري وظلت تتحدث معي وتشجعني

- أنت ذاهب الآن إلى عالم جديد فدعك من حياة الوحدة وحاول أن تُكون صداقات جديدة، فلا أحد هناك سيهتم بأسلوبك أو تفكيرك، ما يهم هو قدرتك على الإنتاج وهذه المنحة تؤكد عبقريتك.

كأنها تحولت إلى أمٍّ في هذه اللحظة، ظلت على تواصل معي أثناء انتظاري للطائرة، وداومت على مراسلتي في الأيام الأولى لسفري لكن بالتدريج انقطع التواصل بيننا وانشغلت في دراستي، كنت أطمئن عليها على فترات متباعدة.

حتى جاءني اتصالها يخبرني بمرض والدي ثم تلاه خبر وفاته، عجزت عن تقبل موته وأنا بالخارج وكان حضوري إلى المنزل يُعني إدراكِ لرحيله الأبدي فتهربت من العودة.

رغم قسوة يامن الظاهرية إلا أنه كان يدعمني دائمًا، لكن لم أكن أفتقد للمادة بقدر افتقادي لدعمه المعنوي وهذا ما فشل فيه، كانت علاقتي به مُربكة نظرًا لظروف سفره في البداية، فما تعرضت له ميرال غيّره للأسوأ، لذا لم تكن علاقتي به جيدة.

على عكس علاقتي بجدي فقد كنتُ شديد التعلق به نظرًا لإقامتي الدائمة في منزله، ولم أكد أتخطى وفاته حتى تكررت صدمتي برحيل جدتي؛ مما اضطرني للعودة إلى منزل والدي.

كان العيش مع شذى صعبًا، كنت هادئًا بطبيعتي لا أستسيغ الزحام والتواجد وسط الغرباء وكان منزلنا يعجّ دائمًا بعائلتها وأصدقائها مما اضطرني للبقاء في غرفتي دائمًا، وحدها ميرال من كانت تخفف من حدة عزلتي، كنت معتاد على صحبتها لترددها الدائم على منزل جدي.

صرت انطوائيًا بمرور الأيام، لم يكن يشغلني سوى الدراسة، وكنت أستمتع بقضاء وقتي في القراءة ومتابعة الأبحاث العلمية حتى حصلت على مجموع مكنني من الحصول على منحة دراسية في إحدى الجامعات العريقة، لأول مرة ألمح نظرة الفخر بعين والدي حتى أني تخيلت أنه سيبكي متأثرًا.

كانت جدتي دائمة الحديث عنه وعن قسوة جدي التي أثرت على شخصيته وطباعه، وأنه خسر حبيبته بسبب طباعه هذه، لقد كانت تتهم والدتي بأنها تسببت في هذا، لكن لم أعرف كيف؟! فالجميع كان يرفض الحديث عن الأمر.

(١٧)

ذهبنا لقضاء السهرة مع أصدقائي، وقدّمت ميرا إليهم على أنها ابنة خالتي.

- ميرا هؤلاء أصدقائي.. حازم وحسام وهديل وميس.
- مرحبًا ميرا لماذا تأخرتم؟

قالتها ميس وهي تتفحص ميرال من أول رأسها إلى أسفل قدميها، فأجابتها:

- غادرنا المنزل متأخرًا وذهبنا إلى السينما.

رد حسام:

- ألم يكن بإمكانكم تأجيل السينما ليوم آخر، نحن لا نجتمع بسهولة.
- بصراحة لقد ألحيت على وليد كثيرًا للذهاب، فالفيلم لا يفوت وكنت أنتظر عرضه بفارغ الصبر.
- أين معتز وخطيبته؟

تشاجرا وهما في الطريق يا وليد.

- هل تناولتم العشاء؟
- ليس بعد، سنطلب الآن لقد كنا في انتظاركم.
- ميرا.. ماذا تفضلين؟
- سأطلب مثل وليد.

طلبنا الطعام وبدأت رحلة التعارف.

ميس مسؤولة قسم الدعايا بالشركة، وهديل من قسم المبيعات، وحازم نائب رئيس مجلس الإدارة، وحسام رئيس مجلس الإدارة.

- أنتم أصدقاء عمل إذاً؟

تناولنا الطعام وتجنب حازم المشاركة معنا في الحديث، وظل حديث ميرا مقتضبًا فسألتها هديل بسخرية مبطنة:

- هل أنتِ من النوع الخجول يا ميرا؟
- لا، لكن هذا ليس مكاني المفضل.

تدخل حازم في الحديث فجأة وسألها:

- ما هو مكانكِ المفضل إذاً؟
- أفضل الأماكن الشبابية حيث الموسيقى والرقص.

تدخل حسام:

- هل تجيدين الرقص؟
- بالطبع.

عاد حازم ليسألها:

- لكن ألستِ صغيرة على ارتياد هذه الأماكن؟
- بالعكس فهي مخصصة لمن هم في سني، ربما تجدها شبابية بالنسبة لكَ.

رد حازم في تحدي:

- ما رأيكم أن نكمل سهرتنا بنادي الرقص القريب من هنا؟

لا أدري ما سر التحدي الذي بدأ فجأة بين حازم وميرال، أعلم أنه ينفر من صحبة الفتيات لكن مع هذا يتقبل وجود هديل وميس، وصلنا إلى أحد أندية الرقص الشهيرة، كان المكان مزحمًا ووجدنا طاولة فارغة بصعوبة، استأذنت ميس وهديل لتعديل مظهرهم، فيما جلس الباقين.

- ألن تذهبي يا ميرا؟
- إلى أين؟
- إلى الحلبة حسبتكِ متحمسة للرقص.

ناديته بغرض إيقافه لكنه تجاهلني، ومد يداه ودعاها لترقص معه فتعمدت إحراجه.

- سأحتفظ بالجولة الأولى لوليد.

نهضت معها مرغمًا تحت أنظار حازم الساخرة.

- أرجو أن لا تضايقكِ تصرفات حازم فهو لا يجيد التعامل مع النساء.
- لا عليكَ دعنا ننتبه للرقص.

راحت تدور بجسدها الرشيق وخطواتها السريعة سارقة إعجاب الجميع، لم أقوى على مجارتها وعدنا إلى الطاولة، لكن حازم دعاها للرقص.

تغير نمط الموسيقى فصارت الرقصة سريعة وعدائية، لم يسبق أن شاهدت هذا النمط من الرقص، اندمجت ميرا مع الموسيقى ولم يجد حازم صعوبة في مجاراتها، ووقفت هديل بجواري تسجل فيديو لهما، عدنا إلى الطاولة بعد فترة ولحق بنا حازم وميرا.

استبدّ بيٍ الغيظ من ذهابها مع حازم، ألم تأتي بصحبتي كيف تجرؤ على تركي إذا؟

- أشعر بصداع فظيع هل يمكننا المغادرة الآن يا وليد؟
- هكذا ومن أول السهرة، حسبت أنكِ تحبين الأماكن الصاخبة كما زعمتِ.

تجاهلت ميرا الرد على حازم، وجذبت حقيبتها ورمته بنظرة غاضبة، ودّعنا باقي المجموعة وغادرنا، ظلت متجهمة طوال الطريق، واتجهت لغرفتها فور عودتنا.

- ميرا ماذا حدث؟

- صديقكَ هذا مجنون.

- ماذا فعل؟

- ألا ترى كيف كان يتعمد الاستهزاء بي؟!

- لماذا وافقتِ على الرقص معه إذًا؟

- لأنه صديقك ولم أقوى على إحراجه بعد أن تخليت عني.

- لم أتخلى عنكِ لكن ظننت أنك مستمتعة بالحديث معه وشجعتيه على التمادي.

فقدت السيطرة على أعصابي وعادت مشاهد رقصها مع حازم لذاكرتي، صحيح أنه لم يمسها لكن هذا الأمر لم يهدأ من غيرتي، فتعمدت صب غضبي عليها، وأفقت على احمرار عينيها ووجهها المبلل بدمعاتها.

- ميرا أنا آسف سامحيني لم أقصد.

- لا عليكَ فهذا خطأي من البداية.

غادرت الغرفة سريعًا واختبأت بالحمام، كانت تنتحب بشدة، لا أدري لماذا انفعلت عليها هكذا!

- ميرا إما أن تخرجي الآن وإلا سأكسر الباب.

على صوت نحيبها.

- ميرا هذا آخر إنذار، لن أصلح باب الحمام لو كسرته وسنبقى بدونه.

فتحت الباب ببطء ثم اتجهت إلى غرفة النوم، لحقت بها قبل أن تغلق الباب، فاتجهت إلى الفراش وأعطتني ظهرها.

- ميرا لم أقصد الإساءة إليكِ، ولن أنصرف قبل أن نتحدث.

- أعرف ما دار بذهنك عندما رقصت مع صديقكَ، أنتَ تظن أني انجذبت إليه وسأنتقل للإقامة معه، مثلما تركت عائلتي وانتقلت للعيش معكَ!

- كفى جنونًا.

- ليس جنونًا، هذه هي طريقتكم جميعًا في التفكير ولن تتغير.

قفزت من الفراش واتجهت إلى خزانة الثياب، وبدأت بجمع ثيابها وسط هستيريا من النحيب والصياح، وقفت حائرًا لا أعرف كيف أهدئها؟!

- ميرا أنا المخطىء صدقيني، كان من واجبي التدخل عندما تمادى حازم في مضايقتك.

جلست على الأرض ودفنت رأسها بين ساقيها، جلستُ قربها وكررت اعتذاري، رفعت رأسها وتأملتني بعينين أدماهما الدمع.

- أعلم أن الجميع يراني فتاة عابثة لا يمكن الوثوق بها ولا ....

- أنا أراكِ فتاة رائعة وقوية، كان بإمكانك الاستسلام للواقع وقبول هذه الزيجة وخداع ذاك الشاب بعد الزواج عوض عن مغادرة المنزل، كثيرات يفعلن هذا، لكنكِ اخترتي الطريق الأصعب، فتاة أخرى كان من الممكن أن تعتمد على جمالها في الحصول على عمل مربح دون الاهتمام لسمعتها.

انصتت إليّ وعندما انتهيت رفعت رأسها وأمعنت النظر بي لتتأكد من صدق كلامي، كان ضميري هو المتحدث في هذه اللحظة.

(١٨)

عدتُ إلى الشقة حانقة بعد الرقصة الجحيمية التي شاركني فيها حازم الشاب المغرور، كان يتعمد تجريحي والتقليل مني واتهمني بأني فتاة عابثة ومدللة اعتادت أن تغتر بالأنظار التي تتبعها أينما ذهبت.

سألته وهل ينطبق عليك الأمر نفسه؟ احتقن وجهه، ودافع عن نفسه بأنه مجرد شاب عادي، لا يتعمد جذب الأنظار مثلي.

قاطعته بسخرية،

- وماذا عنكَ شابًا وسيمًا وممشوقًا القوام ولديه بشرة خمرية جذابة ووجه رجولي مثلك، ألا يلفت هذا الأنظار؟!

أجاب ببرود:

- فتاة جريئة ووقحة تمامًا مثلما توقعت.

انتهت الرقصة الجحيمية وغادرنا، ظلت كلمات حازم تتردد في رأسي وتزيد من رغبتي في الصراخ إلى متى سأتحمل الأحكام المهينة التي يصدرها الجميع ضدي؟!

هل بات الجمال جريمة تستوجب العقاب، في الدراسة كان الأساتذة يتعاملون معي باشمئزاز باعتبار أني أجسّد الصورة المعتادة للفتيات الجميلات مجرد شخصية تافهة وعقلية سطحية، ولم يختلف الوضع في العمل كنت أتعرض للسخافات لنفس السبب، وكان الأمر ينتهي بالخصم من راتبي والطرد من العمل، لأن الجميع يرى أنني الطرف المخطئ وأن جمالي يشجع الشباب على التعدي عليّ.

كنت أنتحب بانكسار الطفلة اليتيمة بداخلي، منذ وفاة والدي وأوجاعي تتزايد، ربما لم يكن يجيد معاملتي كأب لكنه كان جداري الآمن في هذا العالم، لقد أصبحتُ مستباحة بعد رحيله.

استطاع وليد تهدئتي واعتذر لي عن انفعاله عليّ وعن تصرفات حازم، ذهبنا للمعهد بصباح اليوم التالي سددت المصروفات الدراسية واستلمت جدول محاضراتي، وعدنا إلى المنزل، ذهب للقاء أصدقائه وأمضيت النهار في التفكير بحياتي.

هل كان من الصعب على شذى أن تدعني وشأني؟ لماذا تحملني أخطاء والدي بحقها وحرمانه لها من عائلتها؟ ماذا كانت تنتظر من طفلة تتعرض للتحرش في كل مرة تذهب فيها إلى جدتها؟ لقد حاولت أن أخبرها بالأذى الذي أتعرض له لكنها رفضت تصديقي.

حتى مرام شقيقتي خذلتني حين استنجدت بها، وظلت تعايرني بما فعله خالد وتهددني به، لم ينقذني من حقارة خالد سوى عودة والدي من السفر.

ماذا كانت تنتظر من والد عَلِم باعتداء مراهقًا على طفلته الصغيرة؟ هل كان عليه أن يكذب ما تبوح بِه بصمات خالد فوق جسدي؟

لماذا لم تحاول شذى حمايتي كما تفعل كل أم مع أطفالها؟! ماذا عن شقيقتي التي كانت تتشفى بي وتستميت في إيذائي! حتى شقيقي الوحيد اكتفى بالمشاهدة، ثم هاجر بعدها وتركني وحيدة في مواجهة شذى ومرام.

لن أغفر لهم ما فعلوه بي، يامن وحده الذي يستحق مغفرتي، فرغم كل أوجاعه واضطراباته حاول أن يكون أبّ جيدًا لأجلي.

يا الله كيف أصلح ما أفسدوه بداخلي؟ كيفَ أسترد نقاء روحي من جديد!

(١٩)

ضاعفت ميرال عدد ساعات عملها، تغادر في السابعة صباحًا وتعود قرب منتصف الليل، نبهتها كثيرًا إلى خطورة المجهود المتواصل الذي تقوم به لكن تعللت بحاجتها لادخار المال قبل بداية الدراسة، حتى أنها أهملت العناية بنفسها وانخفض وزنها بشدة واحتل الشحوب بشرتها، وظهرت عليها علامات الاكتئاب، وأهملت كل شيء حتى غرفتها باتت تشكو من الفوضى، ثيابها تفترش الأرض، أحذيتها المتناثرة جنبًا إلى جنب بطول الصالة.

عدتُ في أحد الأيام من العمل لأجد الشقة غارقة في الظلام والهدوء على غير العادة، استغربت الأمر خاصة أن الوقت متأخر ويفترض بها أن تكون نائمة وهي تخاف النوم في الظلام، دلفت إلى غرفتها لأجدها تفترش الأرض وحولها الكثير من أعقاب السجائر المتناثرة وزجاجات كحوليات فارغة، ناديتها لكن لم تلتفت، اقتربت منها لأرى بوضوح ما تفعله وألجمتني الصدمة.

كان بيدها قطعة زجاجٍ حادة تغرسها داخل ساقها المغطاة بالدم، اقتربت منها بحذر محاولاً السيطرة على ذهولي أمام هذا المشهد الجنوني.

لم تلحظ وجودي فانحنيت قربها وكبلت كفها ونزعت منها قطعة الزجاج، وقفت بعدها ألتقط أنفاسي، ما هذا الجنون؟ كانت ساقها مدماة بشكلٍ بشع وهناك بقعة كبيرة دماء كبيرة أسفل منها، راحت تصرخ وتسبّ بغضبٍ، ذهبت لأبحث عن علبة الإسعافات.

وعدت إلى الغرفة لأراها تغرس أعقاب السجارة المشتعل براحة يدها، رفعتها عن الأرض واتجهت إلى الحمام وأنزلتها أسفل الدّش، كانت تقاومني بعنف وضراوة، كبلت يدها من الخلف حتى توقفت عن المقاومة لكنها دخلت في نوبة بكاًء هستيري.

تفحصت جروح ساقيها فوجدتها عميقة وتحتاج إلى التقطيب، سحبت عباءة الصلاة الخاصة بها وساعدتها على ارتداؤها وذهبنا إلى أقرب مشفى.

أعطاها الطبيب حقنة مهدىء وقام بتقطيب جروحها، صرف لها مهدىء ومضادات ونصحنا بضرورة الذهاب لطبيب نفسيّ، وصلنا الشقة ثم دلفت إلى الفراش، ذهبت لأعد لها كاسة حليب دافىء حتى تتناول علاجها، كنت أقف مذهولاً أمام الموقد وأنا أتذكر آثار الندبات التي كانت تغطيها، إذاً هذه ليست المرة الأولى التي تمارس فيها التعذيب على نفسها، لقد ظننت أنها حالة جنون مفاجىء.

حملت كاسة الحليب وناولتها إياه، تجرعته مع الدواء وألحت عليّ لأبقى بجانبها، فجلست معها حتى غطت في النوم.

جمعت الزجاجات وأعقاب السجائر ونظفت آثار الدم، وبدأت البحث على الإنترنت عن وصف طبي لحالة ميرال، كانت الأعراض التي ظهرت عليها تتشابه مع عدة اضطرابات، ولم أتوصل إلى وصف محدد بعد ساعات من البحث، الأمر يلزمه طبيبًا مختصًا، فربما أقدمت على الانتحار بإحدى نوباتها الجنونية، فحددت موعد بمساء اليوم مع طبيب نفسيّ.

لكن ماذا حدث لكل هذه الثورة؟ كانت طبيعية مساء اليوم السابق، هل يعقل أن يكون ضغط العمل هو السبب؟ كان النهار قد انتصف ولا تزال نائمة بفعل المهدىء، جلست بجوارها حتى فتحت عينيها ببطء ورفعت رأسها نحوي.

- ميرا كيف حالكِ الآن؟

تمتمت بصعوبة:

- حلقي يؤلمني، ورأسي سينفجر من الألم، ماذا حدث؟

- لا شيء حبيبتي ستكونين بخير، انتظري سأحضر لكِ الدواء.

لم أقوى على رؤيتها في هذه الحالة من الضعف والوهن، أين ذهبت تلك الصاخبة التي كانت تسكن معي؟

عدتُ إليها، ناولتها كاسة الحليب مع الأقراص وتجرعتها على مهلٍ، فتناولتها.

- ماذا حدث معكِ بالأمس؟

- لقد تركت العمل بعد أن حاول أن أن..

- من حاول ماذا؟

قلتها بنفاذ صبر وقلق.

- هو دفعني بقوة وحاول.. لقد حاولت الهرب صدقني صدقني.

حاولت استيعاب ما تقول، يبدو أنها تعرضت لمحاولة اعتداء لكن إلى أي مدى وصل الأمر؟

- أنتِ بخير لم يمسسكِ بأذى، أليس كذلك؟

أجابت بنبرة متقطعة:

- هي بخير، لا أحد يستطيع أن يؤذيها، لقد علمها يامن كيف تدافع عن نفسها، لا أحد يستطيع أن يمسها حتى خالد نفسه.

بدا واضحًا أنها عادت للهذيان، فتركتها تستغرق في النوم وأنا غارق في حيرتي، من الذي تجرأ على الاعتداء عليها؟ وأين كانت حين حدث هذا؟،من خالد هذا، هل تعرض لها هو الآخر؟ سأنتظر حتى تشفى لأعرف الأمر.

كان من المفترض أن يستمر مفعول الدواء فترة طويلة تكفي لذهابي إلى الطبيب وعودتي، لكن كنت قلقًا من أن تصحو دون أن تجدني، لكن ماذا لو أجلت الذهاب وساءت حالتها أو عاودتها نوبات الجنون هذه؟

ماذا سأفعل عند الطبيب بدونها؟ لكنها ترفض الذهاب، لقد سبق وجربت حين نصحتها بالذهاب لمعالجة اضطرابات النوم التي تعاني منها، الأفضل أن أذهب بمفردي وأعرض عليه حالتها فلن أخسر شيئًا.

(٣٠)

التقيتُ بالطبيب في الموعد المُحدد وشرحت له حالة ميرا باستفاضة، وبدأ طرح الأسئلة.

- كم عمرها؟
- ثمانية عشر.
- هل تعاني من مشاكل في النوم؟
- نعم.
- هل لديها مشاكل في الشهية؟
- أحيانًا تصبح شرهة للغاية تأكل بكميات ضخمة، وأحيانًا لا تمس الطعام لأيام.
- هل تعاني من تقلبات المزاج؟
- مزاجها يتبدل سريعًا من المرح والصخب إلى الكآبة والحزن بدون أسباب.
- ماذا عن مظهرها العام؟
- أحيانًا تكون شديدة العناية بمظهرها وأناقتها، وفجأة تهمل كل هذا.
- هل تُعاني من اضطرابات القلق؟
- هي قلوقة بشأن مستقبلها بشكل يفوق الوصف.
- ماذا عن نوبات الهلع؟
- لم أفهم ماذا تعني؟

- هل تُعاني من خوف غير مبرر مثلًا؟
- لديها خوف من المستقبل ومن الظلام، ولا تنام إلا وسط ضوضاء.
- كيف كانت طفولتها؟
- سيئة.
- هل تعرضت للاعتداء في طفولتها؟
- لا أعرف.
- هل تتعاطى مواد مخدرة أو كحولية؟
- نعم، وتوقفت لفترة لكن عادت بالأمس كما أخبرتكَ.
- هل علاقتها بأسرتها جيدة؟
- علاقتها بهم مضطربة.
- من خلال حديثك استطعت تكوين فكرة مبدئية عن حالتها، أرى بأنها تعاني من اضطراب الشخصية الحدية، فحتى الآن لديها ستة أعراض أساسية من أصل تسعة إلى جانب الرغبة في إيذاء النفس، لكن هذا لا يكفي، لا بد من حضورها للتشخيص وبدء العلاج.
- ماذا يُعني اضطراب الشخصية الحدية هذا؟
- اضطراب يؤثر على شخصية المريض ويجعله يمر بحالات من عدم استقرار المزاج والسلوك إلى جانب نوبات قلق وهلع، تدفعه إلى إيذاء نفسه ومحاولة وضع حد لمعانته بالانتحار، أو الاستعانة بالكحوليات والمخدرات هربًا من تقلباته المزاجية الحادة.
- هل له علاج؟
- هناك أدوية مثبطة لتقلبات المزاج، ومهدئات.

كانت ميرال نائمة عند عودتي، جلستُ أمام الحاسوب أطالع المقالات التي تتحدث عن هذا الاضطراب والتي أجمعت على أنه غالبًا ما يكون نتيجة التعرض للإساءة والإهمال في الطفولة، حتمًا كان لوالدتها يد فيما يحدث الآن.

كانت أعراض الاضطراب تتوافق مع سلوك ميرا، حالة من الخمول يليها حالة من الحماسة القوية، وشعورٌ دائمٌ بالقلق وإحساس دائم بالذنب، هل كان شعورها بالذنب سبب بكائها الشديد أثناء صلاتها!

حياة المصاب باضطراب الشخصية الحدية مجموعة انفعالات حادة تتناوب على مزاجه وتؤثر في سلوكه، وتزداد حدتها عند التعرض للضغوط وعدم الاستقرار، ترى هل كانت على علم بمرضها؟ أغلقت الحاسوب وذهبت إلى غرفتها، داعبت وجنتيها وأنفها بأناملي؛ حتى بدأت تستيقظ، كم اشتقت لحيويتها.

- منذ متى وأنا نائمة؟

- منذ ليلة أمس.

همست في رجاء:

- هل يمكننا الخروج قليلًا؟ أحتاج للهواء.

- لكن أنتِ متعبة دعينا نؤجلها للغد.

- أشعر بالاختناق، دعنا نتجول قرب المنزل.

- حسنًا.. هيا استعدي.

غادرنا المنزل واصطحبتها إلى أحد المطاعم القريبة من البحر، طلبت الطعام لم تتناول سوى كاسة العصير بعد إلحاح وضغط مني، لاحظت شرودها فبادرتها بالحديث:

- ماذا حدث معكِ يا ميرا؟

- لا شيء، لم أعد أقوى على إرهاق العمل فتركته.

- لكنكِ أخبرتيني بأن هناك من تعرّض لكِ.

أشاحت بوجهها بعيدًا وتجاهلت الرد، وحافظت على صمتها حتى عودتنا.

عادت إلى غرفتها وراحت تفتش عن شيء ما بخزانة الثياب بنفاذ صبر وقلبتها رأسًا على عقب، كنت أراقبها من مكاني على الأريكة، تركت أكوام الملابس متناثرة علىً الأرض، وعادت إلى الفراش وبعثرته، ثم تركت الغرفة ومشت باتجاهي.

- أين ذهبت زجاجاتي؟
- هل تقصدين زجاجة العطور؟

صرخت بنفاذ صبر:

- زجاجات الفودكا لقد تركتها بجوار خزانة الثياب، أين ذهبت؟
- كببتها في المغسلة.
- هل جننت لمَ فعلت هذا؟ اذهب الآن وأحضر غيرها.

عادت لهيستيريا الصراخ وفقدت السيطرة على نفسها، كانت تقذفني بكل ما تطاله يدها وهي تكرر طلبها بجنون، ولحسن الحظ أنها توقفت فجأة بعد أن هدها الإعياء، عدت للإنترنت وبحثت عن طريقة التعامل مع أصحاب الشخصية الحدية هذه، لكن توقفت حين رأيتها تحمل حافظة النقود وفي طريقها إلى مغادرة الشقة.

- إلى أين ستذهبين؟
- سأذهب لأشتري زجاجات أخرى.
- الآن وبمفردكِ! انسي أمر تلك الخمور اللعينة، ماذا حدث لكل هذا؟

اندفعت صوب الباب فلحقت بها ومنعتها من الخروج، ظلت تدفعني بقوة وهي تسبّ وتلعن، اضطررت في النهاية إلى رفعها عن الأرض وحملها إلى الأريكة، ومنعتها عن الحركة بصعوبة.

- ميرا ما رأيك أن نتحدث بهدوء.. أخبريني ماذا حدث؟
- لا شيء أخبرتكَ بأني تركت العمل، دعني الآن.

بدأت تنتحب بعد أن فشلت في التملص مني، أرخيت قبضتي حولها وربت على كتفيها.

- إما أن تخبريني ما حدث معكِ، وإلّا سأذهب إلى المقهى لمعرفة الأمر بطريقتي.

شهقت في انفعال:

- لقد حاول أحد العاملين الاعتداء عليّ.

- كيف حدث هذا؟

- كان دوامي اليوم في المطبخ، طلب مني المسؤول ترتيب غرفة التبريد ولَحق بي عندما كنت بداخلها وحاول تقبيلي عنوة، تمكنت من التملص منه بصعوبة وأخبرت المدير بما حدث، لم يصدقني في البداية ثم اتهمني بعد ذلك بأني المسؤولة، وأن ثيابي المثيرة هي ما دفعته إلى هذا، وأنه سيتحدث معه لكن بشرط أن أنسى ما حدث وأتابع عملي، ففقدت أعصابي وصفعته وتدخل زملائي وأفلتوه مني، أعطاني راتبي بعد أن خصم نصفه.

- ربما كانت لطريقة حديثك أو ثيابك دخل فيما حدث، انتبهي لهذا فيما بعد، وانسي الأمر.

(٣١)

لا أدري كم مرّ من الوقت وأنا بهذه الحالة، كل ما أذكره أنني كنت ناقمة على نفسي إلى أقصى درجة منذ غادرت العمل في هذا اليوم المشؤوم، ولم أطق العودة إلى الشقة ولم يكن لديّ مكان أذهب إليه، فجلست أمام البحر وحاولتُ السيطرة على نفسي لكني فشلت.

موقف واحد أعادني ألف خطوة للوراء، هاجمتني الذكريات بضراوة، وعدتُ بمخيلتي إلى مشاهد اعتداء خالد عليّ، ملمس كفه الثقيل على جسدي ومحاولتي التملص منه، احتجازه لي أسفل سلم جدتي المظلم، نظرات مرام الشامتة ومراقبتها ما يحدث بتشفي؛ زاد من جرأة خالد ومحاولته نزع فستاني عني.

مشهد شذى وهي تسخر مني قائلة: «لا تستعجلي هذا الأمر سيحدث قريبًا فلستِ سوى جسد جميل سيجلب علينا المصائب»، نحيبِ المستمر لحظة الذهاب إلى المنزل وتهديدي لها بأخبار والدي، توعدها لي وحرقها ليدي، استيقاظ يامن على نحيبي الهيستيري، وإصراره على معرفة ما يجرى فأخبرته بما يفعله ابن أخت شذى بي ورأى علامات الحرق على جسدي.

توالت صفعات والدي على وجه شذى، لم أقوى على احتمال ما يحدث فسقطت فاقدة الوعي، فحبسهما بالمنزل وحملني إلى المستشفى، خضعت بعدها لجلسات علاج نفسي طويلًا بسبب حالة التبول اللا إرادي التي أصابتني نتيجة لقذارة خالد والإرهاب الذي سببته لي شذى، حاول

يامن تعويضي عما حدث، وانتقم لي من خالد وشذى، لكن شعوره بالذنب تجاهي طغى عليه، كان يعتقد بأن ما حدث معي هو ذنب حور وقد انتقم اللّه لها.

أين يامن الآن مما حدث معي بالمقهى؟ أين هو من النظرات الجائعة التي لا ترى بي سوى وجه مثير وجسد مغري؟ أين يامن من زواج مرام بالخنزير خالد؟ ما كان هذا كله ليحدث لو كان يامن على قيد الحياة.

هل جُنّت شذى حتى تلقى بابنتها الكبرى بين يدي همجيًّا لم يرحم براءة ابنتها الصغيرة، عامًا كاملًا وأنا أسأل نفسي عن حقيقة ما يحدث دون جواب منطقي، عامًا كاملًا لم تتوانى فيه شذى عن الانتقام مني.

أوشك النهار أن ينقضي وأنا على تلك الحالة، اتجهت إلى محل للكحوليات، أنفقت ما تبقى من راتبي على زجاجات الفودكا وعلب البيرا حملتهم معي وعدتُ إلى غرفتي، بدأت بالشرب زجاجة تلو الأخرى، كنتُ أهرب من الأصوات والصور التي تعبث بعقلي، هدأت ذكرياتي خلف غيمة من الخيالات، لكن لم تهدأ أوجاعي الداخلية.

فتناولت زجاجة فارغة وحطمتها وغرستها في ساقي بقوة وكلما زاد الألم ازداد شعوري بالراحة النفسية، خفتت أوجاعي بالتدريج وبدأتُ أنتشي، لا أدري كم مضى من الوقت وأنا على تلك الحالة؟!

لكن استيقظتُ في المساء وفوجئت بالضمادات التي أحاطت بكفي وساقي، ترى ماذ فعلت أيضًا؟ شعرت برغبة شديدة في الموت والزوال، كان الهواء في الغرفة ثقيلًا وأحسستُ أن جدران المنزل ستنطبق عليّ، ولم أقوى على تذكر ما حدث.

أخبرني وليد بما حدث في اليومين الماضيين، شعرتُ بالخجل واشتدت رغبتي في الرحيل بعد أن تعريت أمامه بهذا الشكل المخزي، لكن أين سأذهب؟

لقد فقدت عملي وما تبقى من راتبي لن يغطي نفقاتي أي جنون هذا الذي فعلته بنفسي؟ كيف يراني وليد الآن؟ حتمًا سيعتقد بأني فتاة عابثة تستحق ما جرى لها، للمرة الثانية أؤكد له مدى رعونتي. ليذهب برأيه إلى الجحيم، ألم يجد مبررًا لهذا الهمجي المتحرش في المطعم؟!

لن أدع أحد يتدخل في حياتي بعد الآن ولن أعتمد على مساعدة مخلوق، لكن ماذا سأفعل الآن؟ ومن أين لي بعمل يعوض ما أنفقته خلال نوبة جنوني هذه؟ كيف سأستكمل دراستي؟

آن أوان البحث خارج الصندوق، أنا بحاجة إلى عمل لا يوجد فيه مدير انتهازي وموظفين همجيين، عليّ استغلال مهاراتي فلديّ خبرة لا بأس بها في مجال الطهو لما لا أستفيد منها؟ سأقوم بإعداد وجبات منزلية وتسويقها عبر الإنترنت، فكرة لا بأس بها وربما تدر دخلًا جيدًا.

قمت برفع صور الوجبات والحلوى التي كنت أنشرها على صفحتي كنوع من الدعايا، لكن لا زلت بحاجة إلى عدد كبير من المعجبين والمتابعين وهذا الأمر يلزمه دعاية.

إذا كان جمالي هو سبب تعاستي حتى الآن فلماذا لا أستغله لصالحي؟! أحضرت هاتفي الجوال وسجلت مقطع فيديو لي أثناء الطهو، لعبت فيه دور الطاهي كما في برامج التلفاز.

رفعتُ الصور والفيديو على الفيسبوك وأرفقتها برقم هاتفي، وحملتُ الأطباق إلى جيراني في البداية وقدمت إليهم نفسي وأهديتهم من الأصناف التي أعددتهم وأخبرتهم باستعدادي لطهو وجباتهم بتكلفة أقل من المطاعم.

ازداد عدد المتابعين بعد فترة من المداومة وحصلت على أول عميلة، تفانيت في إعداد طلبها وسلمته إليها بنفسي، لكن لم تعجبني طريقتها في التعامل معي واستعلائها الواضح لكن لا بأس ما دمتُ سأحصل على المال في النهاية.

اضطربت علاقتي بوليد وحاول إثنائي عن مشروعي ولم يترك طريقة لإحباطي إلا وجربها معي، وحين بدأت أحقق نجاحًا وعرف الزبائن طريقي أصر على ضرورة إيقاف الصفحة بحجة أن المقاطع التي أظهر بها ستتسبب في سخرية زملائي بالمعهد مني، لكن تجاهلته واستمريت.

كان يتعمد مغادرة الشقة مبكرًا والعودة في وقت متأخر، وكثيرًا ما كان يصلني صوته وهو يرتب موعد للقاء إحداهن فتعمدت تجاهله، إلى أن استسلم في النهاية.

عاد يومها مبكرًا عن المعتاد، طلب مني إعداد وجبة تكفي شخصين وترك لي حرية اختيار الأصناف وأصر أن يدفع تكلفة الوجبات، ظننت أنه يعد لي مفاجأة ما، جهزت طلبه وغلفت الوجبة وتركته على المنضدة بجوار حقيبة عمله كما طلب.

ظننت أنها محاولة منه لإصلاح الأمور بيننا، لكنه حمل الوجبات وصاح بمرح:

- تمني لي سهرة سعيدة ستحصلين على هدية قيمة لو نال الطعام إعجابها.

تسمرت في مكاني مذهولة، هل قصد مضايقتي بفعلته هذه أم أنه يحاول دعمي؟

تباعدت العلاقة بيننا وأصبح يقضي عطلاته بالخارج، وقررت أن تصبح علاقتنا سطحية كشركاء سكن لا أكثر حتى أجد سكنًا خاصًا.

كنت أقضي فترة الصباح في المحاضرات وأعود إلى المنزل بعد الظهيرة منهكة لأواصل ما تبقى من النهار داخل المطبخ في تجهيز الطلبات وإيصالها، وأختطف بعض الوقت في المساء للاستذكار، تمنيت أن تأتيني طلبية كبيرة تمكنني من أخذ عطلة، تحققت أمنيتي حين تلقيت اتصال من فتاة طلبت مني إعداد غداء لعدد كبير وتركت لي حرية اختيار الأصناف، تفرغت لتجهيز الوجبات ولم أذهب إلى محاضراتي.

ذهبت إليها في الموعد المحدد للتسليم لكن لم أجدها اتصلت بها عدة مرات لأفاجأ بهاتفها مغلقًا، يا الله ما هذا العبث؟ لن أتحمل مقلب سخيف كهذا، فليس لديّ غطاء مالي يعوض ما أنفقته، وضعت حمولتي على الرصيف وجلست بجوارها، مرت ساعتين ولم تظهر، لعنت غبائي، كان لا بد أن أطلب منها إرسال عربون مبدئي حتى أتأكد من جديتها.

أفقت.. على صوت مألوف رفعت رأسي؛ لأرى صاحب الصوت الرخيم والظل الطويل لقد كان هو بكل وقاحته، حازم الشاب الذي استهزأ بي ليلة السهرة، هذا ما كان ينقصني بهذا النهار المغبر!

- آنسة ميرال؟

تطلعت إليه بتحفز:

- ماذا تريد من آنسة زفت؟

- أتيتُ لاستلام الوجبات، معذرة على التأخير.

نهضت مجبرة بعد أن شعرتُ بأني قزمة أمام طوله.

- كفّ عن مزاحك السخيف ولا تفسد عليّ عملي.

- أنا لا أمزح يا ميرال أنا من كلفت السكرتيرة بالتواصل معكِ، وعلقتُ في اجتماع هام أخرني عن الحضور.

- كيف وصلت إلى رقمي؟

- رأيت إحدى فيديوهاتكِ صدفة وراودتني الرغبة في مساعدتكِ.

- لا حاجة لي بإحسانك.

حملتُ حقائب الطعام وانطلقت، فجذبني من كتفي وأوقفني عنوة.

- هل يعجبك وضعك هذا وإقامتك مع ذاك الأحمق؟

- لا أفهم عن ماذا تتحدث؟

- هل سنظل نتحدث في منتصف الطريق هكذا هيا لقد تأخرت عن الشركة.

- لن أذهب معكَ.

- أفهم من هذا أنكِ ترفضين تسليم الطلبية، استعدي إذًا للتقرير الذي سأرفعه عنكِ.

بدا أنه يتحدث بجدية.

«يا الله ! من أين تأتيني هذه المصائب هل باتت السماء تمطرها على رأسي أم أن لديّ مغناطيس يجذبها نحوي!»

- لماذا تتعمد إيذائي هكذا، ماذا فعلت لكَ؟

- هيا سنتحدث في السيارة، لقد تعطلت بما يكفي.

- قالها وهو يجرني خلفه، جذب الأكياس من يدي ورصها بحقيبة سيارته، فصعدتُ لسيارته مجبرة وتعمدت صفع الباب بقوة.

- هل هذا هو أقوى ما عندك؟

قالها هازئًا ثم انطلق بجنونه.

- أين سنذهب، من كنت تقصد بالأحمق، ماذا تريد مني؟

- هل أنتِ متسرعة كطلقة البندقية دائمًا هكذا؟ لدينا غداء عمل في الشركةَ ورأيت أنها فرصة جيدة لكِ.

- ومَن كنت تقصد بالأحمق؟

- وليد هو الأحمق، وأعلم بأمر إقامتك معه.

- هل أخبركَ؟

- لا لكن رأيت صوركِ معه على صفحته ومعظمها تم التقاطها من داخل شقته.

- ما دخلكَ أنتَ؟

- أريد إنقاذك من وليد قبل فوات الأوان.

- لكن وليد ساعدني كثيرًا!

- نعم ما دمتِ تحت سيطرته، لكن جربِ أن تفلتي من تحت يديه واستمتعي بما سيفعله بكِ.

- كيف عرفت أنها شقته؟

- لقد كنا نتشارك السكن قبل مجيئكِ بفترة.

لم أعي ماذا قصد حازم من كل هذا، هل بتُ فريسة سهلة بنظره؟ وصلنا لمقر شركته فطلبت منه سداد تكلفت الوجبات لكنه تجاهلني، والتقط أكياس الطعام وسار أمامي مبتعدًا.

لحقت به ثائرة:

- كفّ عن الاستخفاف بي، أنا لا أشحذ منكَ، حينها واصل سيره ببرود مثيرًا للأعصاب.

أدرت ظهري واتخذت طريق العودة، صاح:

- أرغب في مساعدتك بتجهيز الطاولة لدينا، ولن يكون هذا دون مقابل.

لحقتُ به في صمت، اصطحبني إلى قاعة كبيرة، وضع الطعام على الطاولة وقمت بتوزيعه على الأطباق، واتجه بعدها إلى الخارج وعاد ومعه وليد وحسام وأخريين قدمني للجميع على أني مديرة مطبخ خاص، أشرفت على تقديم الغداء حتى انتهوا، اصطحبهم حسام إلى غرفة أخرى وتبعهم وليد الذي تعمد تجاهلي كُليًا.

شكرني حازم على مساعدته ومنحني ظرفًا صغيرًا يحوي أوراقًا نقدية، واعتذر عن عدم قدرته على إيصالي.

(٢٣)

كدت أجن عند رؤيتي لميرال وحازم معًا، ماذا تفعل بصحبته وكيف وصل إليها؟

عدتُ إلى المنزل بنهاية اليوم كانت تفترش الأريكة وحولها دفاترها وكتبها الدراسية ولم أجد العشاء في انتظاري كما كانت تفعل بالماضي، لقد باتت تتعمد تجاهلي منذ عارضت مشروعها.

ظننت أنها سترضخ لرفضي في نهاية الأمر خاصة مع حالتها النفسية المتذبذبة لكنها خالفت توقعاتي، وبدا أن ما مرت به أمدها بالقوة، فتجنبت الدخول في مواجهات معها خوفًا من رحيلها، لكن أن تتواصل مع حازم دون علمي فلن أسمح بهذا، ولن تكون ملكًا لغيري.

- منذ متى وأنتِ على اتصال بحازم؟
- هذا ليس من شأنكَ.
- يحق لي أن أعرف يا ميرال ما دمتِ تحت رعايتي.
- نحن لسنا سوى شركاء بالسكن، وسأتركه لكَ قريبًا.
- كل هذا لأجله!، ألهذا السبب تغيرت علاقتكِ معي؟
- أنتَ من بدأت بالتجاهل والمعاملة السيئة، كل هذا لأني رفضت نصيحتك.
- لم أقصد هذا، أخبريني منذ متى وأنتِ على اتصال به؟
- منذ اليوم.

- من الأفضل أن تبتعدي عنه، فلديه عقدة من النساء.
- شكرًا للنصيحة، لكن أنا قادرة على الاعتناء بنفسي.

بدا أنها لن تتراجع عن علاقتها به، تظاهرت بأن الأمر لا يعنيني، فليس أمامي سوى الصبر حتى أجد طريقة تصرفها عنه.

(٢٣)

أشعلت جنوني بعفوية مثيرة حين أتت إلى النادي مع وليد، وشغلتني بالتفكير فيها ترى ماذا تفعل تلك المخبولة مع هذا الأحمق؟

كان وليد يتفنن بخداع الفتيات بعد أن تعرّض للخداع على يد إحداهن، لقد عاش عمرًا كاملًا من الاستقامة حتى التقى بها في الجامعة، كان يتجاهلها في البداية كعادته مع الفتيات فظنت أنه يتكبر عليها، فأحكمت خطتها حوله وأوقعته في هواها، انقلب حاله بعدها وتمرد على كل شيء بدءًا من نمط تربيته وطريقة حياته حتى عائلته.

لم يكن سهلًا عليه أن يتجرع السم في كاسة عشقه الأولى بعد أن تغير لأجلها.

قصة تتكرر كثيرًا لكن صديقي كان ساذجًا، لم يحتمل وجع خديعتها وتدهورت حالته كثيرًا فلجأ إلى زراعة شريحة لينورا ظنًا منه أنه سينساها، لكنه تغير للأسوأ وانغمس في علاقاته النسائية إلى أقصى حد.

كنت أعرف ميرال من حديثه عنها، فقد كان يتعرض للضرب والمضايقة من زملائه في المدرسة بسبب انطوائيته وعزلته وكانت تهرع لنجدته، على الرغم من أنها كانت تصغره عمرًا وحجمًا لكنها كانت أقوى منه، كثيرًا ما كنت أراه يتطلع إلى صور الطفولة.

لم يتوقف عن البحث عنها حتى التقاها، وأثار تجاهلها له نزعة التملك بداخله وزاد من رغبته في الحصول عليها، هكذا أدركت أنها دخلت دائرة الخطر وبمجرد أن يصل إليها سيجردها من براءتها.

كان يسافر إلى مدينتها كي يراها ويعود حانقًا على عدم حضورها، ويقسم أنه سوف يجعلها تأتيه راغبة، فأسأله متعجبًا هل ستضع عقلك بعقل مراهقة؟ ظلت الأمور على هذه الوتيرة.

التقيتها في النادي وفوجئت بأنها خلاف ما توقعت، فلم يكن مظهرها العابث وفتنتها سوى قناع سطحي يخفي خلفه ضياعًا رهيبًا، كانت نظرة عينيها الساحرة تخفي شعورها بعدم الأمان.

واسترعاني الشجن المنبعث من صوتها، وتلك البحة التي زادتها فتنة، وجهها ناصعًا البياض، وحبات النمش فوق أنفها الدقيق، أسنانها المصطفة بدقة، حاجبها الأسود الطويل كليالي وحدتي ورموشها الكثيفة التي تخفي عمق عينيها.

لأول مرة انشغل بكامل تركيزي مع فتاة، كان التواجد قربها شيقًا، وكان كل جزء فيها يُجري معي حديثًا منفصلًا، عينيها تروي قصة إهمال عاشته، جسدها وسرعة حركتها تحكي عن حياة الهرب التي تحياها، تبقى أن أرى مدى تأثير الحياة عليها هل خفتت روحها؟ فلم تستطع الحياة النيل منها قيد أنملة، فما إن مستها كلماتي واستشعرت سخريتي ثارت وغادرت.

راقبتها وهي تنسحب غاضبة وفستانها القصير يتطاير حول ساقيها الناعمتين وشعرها الأسود يتناثر مع كل حركة تصدر عنها، رمقني وليد بغيظ ولحق بها.

انقسم تفكيري بينها وبين وليد الذي بدى أنه يعتبرها ضمن أملاكه الخاصة، ووضع حولها يافطة تقول هذه القطعة الفاتنة ملكي وحدي، أما هي فقد بدت غافلة تمامًا عن نواياه.

لم تكن ساذجة كما ظننت، كانت قوية بما يكفي؛ لتبدأ مشروعها الأول بعد أشهر قليلة من مجيئها إلى مدينة لا تعرفها، ولديها حسّ

تسويقي رائع لفت الأنظار إليها سريعًا، قررت مساعدتها ولقائها، كانت آثار اللقاء الأول عالقة بها لكن نجحت في محوها.

بدأت أفكر في الخطوة القادمة واضعًا أمامي كل الإحتمالات، عليّ أن أجد طريقة لإبعادها عن طريق وليد قبل أن يتغلب عليه حبه للانتقام ويدمرها.

(٣٤)

لا أدري كيف سأتخلص من تلك الورطة السوداء؟ كان حازم على حق في تحذيراته من وليد، لقد أوقعت نفسي في قبضة مجنون يظن أنه تملكني لمجرد أني لجأت إليه، منذ رفضت قطع علاقتي بحازم وهو يتوعدني ويهددني، حتى بت أخشى من أن ينفذ وعيده لي.

ولم يكن معي ما يكفي لترك شقته والابتعاد عنه فمدخراتي بالكاد تغطي تكاليف دراستي، إلى جانب أن مشروعي سيتأثر لو انتقلت لمكان آخر، احترت ماذا أفعل؟

منذ وفاة والدي وحياتي تسير من سيء إلى أسوأ، فما إن أنهض من كارثة حتى أقع في مصيبة، عليّ أن أتعلم مواجهة الحياة بمفردي حتى لا يستغل وغد آخر حاجتي.

لكن كيف يمكن للإنسان أن يقف طويلًا على أطراف أصابعه دون أن يجد يدًا تسانده؟ أو كتف يرمي عليه ثقل وحشته ومصائبه!

فتشت المدينة بحثًا عن شقة قرب المكان الذي بدأت منه مشروعي حتى لا أخسر عملائي لكن دون جدوى، كانت المنطقة راقية والإيجارات بها مرتفعة.

وكنت أتواصل مع حازم وأستشيره عن الشقق والمناطق التي لا أعرفها، ثم اتصلت به إحدى المرات لمعرفة عنوان منطقة سكنية بعد أن ضعت في الشوارع المتشابهة فطلب مني أن أنتظره، وفوجئت بحدته وانفعاله.

- من أين لكِ بهذا الكم الهائل من الغباء؟

تجاهلت الرد عليه، فواصل:

- أليس لديكِ عقل يخبركِ بخطورة الذهاب إلى شقق الأغراب بمفردكِ وبالأخص ليلًا؟

- هل كنت ستأتي معي لو طُلب منك؟

- سؤالٌ أحمقٌ مثلك، هيا إلى السيارة.

احتفظ بصمته طوال الطريق حتى وصلنا إلى مكان الشقة، كانت المنطقة أشبه ما يكون بمكب نفايات وحطام منازل، لم أتخيل أنه لا زال هناك مناطق عشوائية كهذه بعد كم الإصلاحات الاقتصادية التي جرت في السنوات الماضية، اتصل برقم صاحبة الشقة واعتذر عن الصعود.

- هل قررتِ الانتقال من العيش مع أحمقٍ للعيش بين تجّار مخدرات وسلاح؟

- كنت أظن أن هذه المناطق قد اختفت.

- جيد دعي أمر الشقة لي؛ حتى لا أضطر لاصطحابك من شقة دعارة في المرة القادمة.

- كيف تتحدث معي بهذه الطريقة هل جننت؟ لا أريد منك شيئًا.

فتحت باب السيارة وغادرت، فلحق بي.

- ميرال أرجوكِ أنا لا أجيد المجاملة، لكن أفعالي كفيلة بالتعويض عنه.

- هل تسمي هذه الكلمات الباردة اعتذار؟

قلتها وعاودت السير، فجذبني من يدي بحسم وجرّني إلى سيارته.

- هل تفضلين الصعود بمفردكِ أم أحملك؟

دخلت السيارة مجبرة فالطريق موحشًا ولا يمكن المجازفة بالسير وحيدة.

- دعينا نعقد اتفاق، سأحاول الإقلاع عن سخريتي، في مقابل عدم استفزازك لي؟

- جيد مع أني لا أفضل التعامل معكَ ثانية.
- إذًا ابقي بلسانك البذيء هذا وسأبقى على أسلوبي الساخر.
- أنت تستحق هذا اللسان بجدارة.
- سأحتمله، لكن دعي باب السيارة خارج نطاق علاقتنا الرائعة.

غادرت سيارته وحرصت على صفع الباب بأقوى ما عندي، هذا البغيض يضيع رونق أفعاله بأسلوبه المتعجرف.

فوجئت ليلتها بعودة وليد إلى الشقة ومعه إحدى عشيقاته، فجمعت أشيائي سريعًا واتجهت إلى غرفتي تحت نظراتهم الساخرة، أرسلت إلى حازم.

- لقد جُنّ صديقكَ وعاد بصحبة عشيقته.
- رائع هذه فرصتك لتسجيل فيلم مباشر ستصبحين مشهورة.
- هل فقدت عقلكَ أنت الآخر؟
- الزمي غرفتك يا ميرال ولا تتركيها مهما حدث.
- أنا ذهبت إلى غرفتي لكن لا زال صوتهم يأتيني مع باقة بذاءة.
- حاولي النوم الآن، وقريبًا سنعثر لكِ على سكنٍ بعيدًا عنه.

لا بد أن أغادر هذا المكان فورًا حتى لو اضطررت للإقامة بفندق، أنهى وليد حفلته الماجنة في الصباح وانتظرت حتى غادر، وذهبت لبيع بعض مدخراتي استعدادًا للرحيل.

اتصلت بحازم وأخبرته بقراري بالانتقال إلى أي فندق قريبًا، لكنه عارضني ونصحني بالصبر حتى نهاية الأسبوع، وذهبنا للبحث عن سكن مناسب بجوار المعهد، لكن كان هذا دربًا من الخيال في ظل هذا الوقت من العام الدراسي.

عاد وليد من الخارج ثائرًا ويبدو أنه شاهدني أثناء عودتي مع حازم، ولحق بي.

- هل بات حازم هو هدفكِ الجديد؟

تجاهلت الرد عليه وهممت بمغادرة المكان لكن كان من الواضح أنه يسعى لافتعال مشكلة.

- هل فقدت لسانكِ أم أنه أمرك بعدم الحديث معي، فمع حازم كل شيء مباحًا، ومعي تدعين الطهر.

كدتُ أصل إلى غرفتي حين لحق بي وسدّ الطريق أمامي.

- إلى أين؟ ستكونين لي الليلة لقد تحملتكِ كثيرًا وابتلعت عبثكِ، ولم يعد لديّ الآن مزيدًا من الصبر.

حاولت التخلص منه لكنه دفعني باتجاه الحائط واحتجزني بجسده فلم أقوى على الحركة، وفقدت تركيزي من شدة الفزع، لكن حركة يده فوق جسدي أعادتني إلى الوعي، سددت له ركلة قوية بين ساقيه وهربت إلى الحمام.

وقف وليد يتوعدني ويهددني بتحطيم الباب فوق رأسي، فاتصلت بحازم:

- انجدني أرجوكَ، وليد يحاول الاعتداء عليّ، أسرع لن أقوى على مقاومته طويلًا.

- يؤسفني يا صاحب الشهامة أني سأسبقكَ إليها، ولن يجرؤ مخلوق على منعي.

صاح حازم بانفعال وتوعده، لكن لم يوقف هذا من جنون وليد وواصل هجومه على الباب، نجح في البداية بتهشيم جزء منه كما يحدث بأفلام الرعب ومد يده إلى الداخل وأدار المفتاح، ضربتني إحدى نوبات الهلع في أبشع توقيت، كنت أرتجف بشدة وفقدت القدرة على الحركة.

دلف إلى الحمام وجرني من شعري حتى غرفتي، حاولت النهوض لكن كنت خائرة القوى وكان كالثور الأهوج، توالت ركلاته على جسدي

ووجهي حتى توقفت عن الحركة، فرفعني إلى الفراش وحاول تكميمي لكن قاومته، ودفعته عني بما تبقى لي من قوة.

سمعنا صوت تحطيم باب الشقة وظهر حازم أخيرًا بعد أن تمكن وليد من ربط يدي وتمزيق الجزء العلوي من ثيابي، انهال حازم بالضرب على وليد حتى فقد الوعي.

لم أقوى على الحركة فضلًا عن النطق لملمت كنزتي الممزقة وجلستُ بأعصاب مهترئة وجسد يرتجف، لاحظ حازم حالتي فسألني:

- أين وضعتي أغراضك؟

أشرت إلى خزانة الثياب، فتناول حقيبة سفري ولملم ثيابي وأوراقي الشخصية، وناولني سترة ثقيلة ارتديتها فوق كنزتي الممزقة وساعدني على السير حتى بلغنا سيارته.

أعانني على الصعود وانطلق بأقصى جنونه، ظل يضرب المقود ويسب وليد ببذاءة لم أعدها فيه، لم أقوى على الحديث فاكتفيت بالنحيب، فتوقف بجانب الطريق بعد أن أفلتنا من الاصطدام بسيارة أخرى بأعجوبة، وربت على يدي برفق، قائلًا:

- ميرال اهدئي انتهى الأمر، أنتِ معي الآن.

حاول أن يواصل حديثه بهدوء لكنه فشل في السيطرة على غضبه، وعاد للصياح بعصبية.

- لولا إقامتك معه لأودعته الآن وسجنته، لكنكِ لم تتركين لي الفرصة، أقسم أني سأريه لقد طفح بي الكيل من حقارته.

كان جسدي ينتفض رغمًا عني أمام ثورة حازم وزاد نحيبِ، اقترب حازم مني و بدى أنه سيواصل صرخاته فوق رأسي فابتعدت عنه بفزع والتصقت بباب السيارة، لكن انتبهت على صوت الباب يفتح ويغلق بعنف.

هل حقًا غادر وتركني وسط هذا الظلام؟ بحثتُ عنه فوجدته يقف على بعد أمتار مني، كان يركل الرصيف بقدمه ويداه تتحرك في غضب وكأنه يتعارك مع أحدهم.

«أين أنت يا أبي أشتاقك جدًا، أصبحت عارية منذ رحلت وتركتني بلا سند.»

رن صوت والدي بداخلي وكأنه عاد إلى الحياة:

«ميرال أنت قوية وستظلين هكذا، لا تدعي الحياة تسحقك، قد يُهزم الإنسان أحيانًا لكن المهم أن ينهض سريعًا ويعود إلى المعركة، لَا تستسلمي أنت قوية وستصلي في النهاية.»

عدت للنظر إلى حازم فوجدته يفترش الرصيف واضعًا رأسه بين ساقيه وضاغطًا عليها بكلتا يديه، ذكرتني ثورته وانفعاله بردة فعل يامن حين علم بما فعله خالد بي، نفس الغضب ونظرة القهر والتوعد، لكن يامن كان والدي أما حازم فلا أدري ما سرّ غضبه وثورته!

لم يفعل وليد هذا يوم أن تعرضت للتحرش في المقهى، لم يبالي من الأساس بل واتهمني أنني السبب فيما حدث، أتراه ..لا يعقل فهو لا يعرفني ولا يطيق وجودي.

(٣٥)

لا أدري إلى أين سأذهب بميرال وهي على تلك الحال؟ الكدمات والجروح تغطي جسدها ووجهها، وتورمت عينيها من الخوف والبكاء، كانت تنتحب بصمت ولم تتفوه بحرف واحد منذ خلصتها من وليد حتى ظننت أنها فقدت النطق.

لمت نفسي على أني تركتها معه بعد تصرفاته الأخيرة معها، لكن لم أتخيل أن يصل إلى هذا الحد من القذارة والهمجية، آه ما أصعب يتمك يا صغيرتي!

غادرت السيارة بعد أن فقدت القدرة على التحكم في انفعالاتي، لا أدري كم مرّ من الوقت على بقاءها وحيدة ومهزومة، لأول مرة أشعر بهذا الكم من الغضب والخوف على شخص غريب عني، فوجئت بها تفترش الرصيف بجواري وتواسيني رغم أوجاعها وكل ما تعرضت له.

ربتت على كتفي وهي تعتذر بصوتها المرتجف، لا أدري عن ماذا تتأسف؟! كم يلزمك من الصبر بعد حتى تكتسبي القوة على مواجهة الحياة يا ميرال؟ أَدركت الآن أني كنت في احتياجها منذ اللحظة التي رأيتها فيها، وأنني عشت عمرًا كاملًا أبحث عنها رغم خوفي منها.

رفعت رأسي فاصطدمت عيني بآثار أصابعه على عنقها، رفعت يدي في الهواء بانفعال وغضب جعلها تنتفض في فزع.

- كان عليّ إبعادك عن طريق هذا الحقير من البداية.

تمتمت بخفوت وذعر:

- حازم أنا أكره الظلام دعنا نذهب.

أخبرني عقلي أن التصرف الوحيد لحمايتها هو الزواج بها لكن كيف؟ لست بهذه الخسة حتى أستغل ضعفها وحاجتها إليّ، عليها أن تختار البقاء معي وهي بكامل قوتها ورغبتها، عليها القبول بحالتي كما هي.

- هيا يا صغيرتي.
- حازم دعنا نذهب إلى أحد الفنادق حتى أجد سكن.
- ستثيرين الشكوك بمنظرك هذا، دعيني أفكر في حل.
- أنا متعبة وأحتاج إلى النوم بشدة.

اتجهت إلى المقعد الخلفي للسيارة ونحيت حقيبتها وحقيبة عملي حتى تتمكن من النوم.

- هيا اصعدي وضعي حقيبتي أسفل رأسك وسأبحث لكِ عن سترة تصلح كغطاء.

انطلقت عائدًا إلى وسط المدينة من جديد، غطت ميرال في النوم سريعًا، توقفت أمام صيدلية وذهبت لإحضار مطهر وضمادات لكدماتها، وصلتني رسالة من وليد.

«مبارك حصولك عليها، لكن أنتَ لا تدري ما ورطت نفسك فيه، تلك العاهرة مجنونة»

لم أكمل باقي الرسالة لكنه أرسل لي صور لميرال وهي تقوم بجرح ساقيها، حذفت رسائله لكنه واصل الكتابة، أبحث عن اضطراب الشخصية الحدية، صدق من قال الطيور على أشكالها تقع.

يا لها من زيجة مثيرة تلك التي ستجمع مريضين مثلينا، يا الله كيف سأطمئن على تركها وحيدة الآن بعد ما رأيته فحتمًا ستؤذي نفسها؟

كانت مستيقظة عند عودتي فطلبت منها العودة للمقعد الأمامي؛ حتى نطهر كدماتها ونغطيها.

- أين سأذهب الآن؟

- لا أدري، فجدتي لن توافق على مبيت فتاة غريبة بمنزلها، ولا يمكنني اصطحابكِ إلى شقتي ولن آمن على ترككِ وحيدة بفندق.

- لا أرغب في الذهاب إلى شقتكَ ولم أطلب هذا من الأساس.

صرخت بها وقد استفزتني:

- من بين كل ما قلته لم يصلك سوى هذه الجملة! لستِ في حالة تجعلني أتركك وحيدة، هيا اقفزي إلى هنا الآن.

عادت للنوم بعد أن وضعتُ الضمادات على كدماتها، اتجهت إلى طريق البحر لهدوءه النسبي واستسلمت للنوم بعد أن أحكمت إغلاق السيارة.

كان الوقت مبكرًا حين استيقظت، ولم تكن ميرال قد استيقظت بعد، عدتُ إلى التفكير في أين سأذهب؟ لا يمكننا البقاء طويلًا في عارضة الطريق هكذا!

اتصلت على روان.

- ألو.. هيا انهضي فورًا.

- لن أغادر فراشي ولو انطبقت السماء على الأرض.

- حسنًا سأرسل إلى جدتي الحبيبة درجاتكِ الرائعة، أحلام سعيدة.

- حازم زومة انتظر، كنت أمزح معكَ اؤمرني يا أخي الحبيب.

- أحتاجك في عملية دخول آمن إلى المنزل.

- ماذا ستحضر هذه المرة؟

- فتاة.

- ماذا.. أنت تمزح؟

- أمامي أقل من نصف الساعة، ستمكث في غرفتك عدة أيام حتى نجد لها سكن.

- كيف..؟

- كيف ماذا؟ الأمر بسيطًا ستُخبئينها بغرفتك وتتسترين على حركتها في حال عبورها إلى الحمام أو خلافه؟

- كيف ستعبر الفتاة إلى الداخل يا عبقري؟

- هذه مهمتك يا ذكية وإلا درجاتك سـ ..

- لا داعي للتهديد سنصبح مشردون جميعًا بسببك.

أنهيت الاتصال وانطلقت باتجاه المنزل، كانت ميرال قد استيقظت.

- حازم أين نحن؟

- على الشاطئ يا أميرتي.

- صباح السخافة يا ظريفًا، إلى أين سنذهب توقف وأخبرني أولا؟

- إلى منزل عائلتي يا مرمر.

- مرمر..عائلتكَ! لا لن أذهب إلى ....

- كفى اعتراضات، من أخبرك أني في حاجة إلى رأيكِ؟

- هل سترغمني؟

- وسأحملك عنوة لو اضطررت ويسعدني أن تضطريني إلى هذا.

أدارت رأسها للنافذة واحتفظت بصمتها حتى وصلنا، هرعت إلى الخارج ما إن توقفت السيارة وركضت بإنهاك وبطء تمامًا كما توقعت، لحقتُ بها بنفاذ صبر

- تعمدت الاقتراب منها ورفعت يدي إليها حتى تظن أني في طريقي إلى رفعها عن الأرض.

- هيا يا ميرال فلن أضيع الصباح كله هنا لدي عمل.

سارت أمامي بتذمر وهي تسبّ وتلعن حظها، حملت أغراضها من السيارة ولحقت بها.

- اتبعيني إلى الداخل دون نفس، فهمتي؟

نظرت إليّ بعدم فهم، فجررتها من يديها ودلفنا إلى المصعد وما كدت أضع المفتاح بباب الشقة حتى وجدته يفتح تلقائيًا وأصبحت في مواجهة جدتي.

- صباح الخير والسعادة جدتي الحبيبة ما كل..

- بماذا عدت هذه المرة يا حازم قطة أم عصفور أم مدمنًا آخرًا؟

همست روان والتي كانت تقف بالخلف:

- فتاة يا جدتي، فتاة.

ونظرت إليّ قائلة بقلة حيلة:

- لقد وجدتها مستيقظة ولم أعرف كيف أتصرف صدقني؟

رميتها بنظرة توعد فالتزمت الصمت، ظلت ميرا محتفظة بصمتها والذهول يعلو وجهها بشكل مضحك.

- ميرال مغتربة من العاصمة يا جدتي وستقيم معنا عدة أيام حتى نعثر لها عن سكن.

- هل جننت؟! أصبحت تجمع المشرّدات وأطفال الشوارع بمنزلي، لن أسمح بهذا، اذهب بها من حيثُ أتيت.

- سنذهب لكن لا تلوميني على عدم مجيئي بعد الآن.

تسللت ميرال من خلفي وفتحت الباب فجذبتها إلى الداخل مفرغًا فيها غضبي.

- إياكِ أن تتحركي دون أذني، هل فهمتي؟

صاحت ميرال بغضبٍ:

- هل جننت من عينك وصيًا عليّ، أنا ميرال الزهراوي طفلة شوارع!

- تجاهلتها وعدت للحديث

- ميرال ستمكث هنا حتى أجد لها سكن، ولن أبقى في المنزل طوال فترة إقامتها حتى لا تتخذها ذريعة للمغادرة، الآن لديّ عمل سأعود بالمساء.

صاحت جدتي وميرال معًا:

- انتظر عندك.

- اذهبِ بها إلى الغرفة يا روان حتى لا أضطر لحملها إلى السرير وتقييدها به، سنتناقش في الأمر عند عودتي يا سوسو.

- أخبرني من أي مصيبة أتيت بها؟ حتى أستعد عند مجيء الشرطة أو ربما كانت تعمل مع عصابة مع هذه الكدمات التي تغطي وجهها، الله أعلم إلى أي مدى وصل جنونك هذه المرة.

- هذه هي الفتاة التي تذوقتي طعامها في حفل ميلاد روان وأثار إعجابك.

عادت ميرال للصياح وقد استجمعت قوتها:

- هذا يسمى احتجاز بالإكراه يا حازم.

- ربما كان عليكِ الهرب منذ اللقاء الأول.

- وأضيع على نفسي كل هذا الجنون.

انطلقت إلى العمل تاركًا خلفي ميرال حانقة كالقنبلة الموقوتة.

(٣٦)

أفقت بعد فترة من رحيل ميرال، لقد أتقنت لعبتها ولفت شباكها حول حازم، لم أتخيل أن تجبرني إحداهن يومًا على استخدام القوة معها لكنها نجحت في استفزازي، كنت أراها تتسرب من بين يدي ولم أعرف كيف أتصرف؟

لا أدري ما الذي جذبها في هذا الحجر البارد؟ هل تفضل من يجافيها ويتجاهلها على من يهتم بها؟ كلها أيام وتعود فما إن يتيقن حازم من مرضها حتى يلقيها، ولن تقوى على تحمل أسلوبه الفظّ طويلًا ستعود إليّ بعد أن تدرك الفارق بيننا.

ردّ ضميري..

«بل كانت تفضل من يحافظ عليها، لقد عاهدتها على أن لا تمسسها بسوء ومع هذا خنت عهدك معها.»

«لقد خانتني ورحلت معه، ما الفارق بيني وبينه لتفضله عليّ؟ كانت تدعي البراءة ليس إلا، هل كانت تظن أني سأرضى بالزواج من فتاة تركت أهلها وذهبت إلى شاب غريب؟، كان عليّ انتهاز كل لحظة أمضتها معي.»

(٣٧)

غادر حازم وتركني أستشيط غضبًا من تحكماته.

- هل تكرمتما بفتح الباب؟

- لقد سمعتي تعليمات حفيدي المخبول، لِمَ لم تعترضي؟

- حفيدك الأحمق لم يترك لي فرصة، دعينا ننهي هذه المهزلة بسلام.

- من الواضح أنها لا تعرف حازم، اللّٰه وحده يعلم من أي مصيبة أحضرها، كان ينقصني مجنونة أخرى.

- افتحي الباب قبل أن أريكِ الجنون الحقيقي.

أتاني صوت حازم الساخر عبر الهاتف:

- كنت أتمنى مشاهدة جنونكِ يا مرمر يبدو أني استعجلت الرحيل، سجلي ما سيحدث يا روان حتى لا تفوتني جنونيات الأنسة.

وقفت مذهولة لَمّ ألحظ روان و هي تتصل به، صمت لثوانٍ وعاد للحديث:

- هيا إلى الفراش الآن وحذارِ أن تغادريه قبل عودتي هذا آخر إنذار بعدها سأرسل عنوانكِ إلى عائلتكِ مباشرة.

صاحت جدته:

- أحضر الآن وأخبرني عن تلك المصيبة التي ورطتني فيها.

- لا تقلقي يا سوسو فقطتنا لا تؤذي هي بحاجة للترويض فقط.

علقت جدته وهي تتأملني بتفحص.

- يبدو أن هناك أمور مريبة في علاقتكما، لم يسبق أن أحضر فتاة إلى المنزل وتمسك ببقاءها هكذا فضلًا عن عداوته مع صنف الإناث بأكمله.

- ليس هناك علاقة بيننا ولن يجمعنا ضمير واحد أبدًا.

واصلت جدته حديثها المستفز:

- هكذا العشاق في بداية علاقتهما دائمًا.

- أخبرتكِ أنه لا يوجد ما يجمعنا سوى العمل، وصادف أن صديقه تعرَّض لي فتدخل حفيدكِ المخبول، أين ستحددين إقامتي؟

تجاهلتني بتعمد قائلة:

- تحتاج إلى الكثير من الترويض يا روان إنها تفوق شقيقكِ جنونًا، وربما روضته شخصيًا.

- يا الله أي بلاء هذا! أنا أرغب في النوم الآن فتوقفي عن مضايقتي.

- عصبية وساخرة مثله ستصبحان زوجين ممتعين.

- آها فهمت، أنتِ خائفة من أن أطمح بالزواج من حفيدكِ الوسيم.

- هيا يا ميرال لتستريحي في غرفتي.

- أعدي لها الحمام أولًا، عليها أن تزيل آثار حرب الشوارع هذه من على جسدها ووجهها وسأعد الفطور بعد ما تنتهي.

- شكرًا لمبادرتك الطيبة، لكن أنا لا أستحم سوى في الأعياد الرسمية.

- ليلة وصولكِ إلى منزلي عيد لن يتكرر أبدًا.

أطلقت روان ضحكة مرحة وساعدتني في نقل أشيائي إلى غرفتها، وقفت على باب الغرفة كان الفراش صغير نسبيًا والحجرة تبدو وكأن زلزال قد ضربها.

- لن نتمكن من النوم معًا.

عقبت روان في مكر ومرح:

- إذًا دعينا نغزو غرفة أخي.

قلت بسخرية:

- من الواضح أن علاقتكما رائعة.

ضحكنا ونحن ندخل إلى غرفته.

- لِمَ لا أبقى أنا في غرفتكِ وتحتلي أنتِ غرفة أخيكِ؟

لقد توعد باقتلاع شعري لو عبرت من باب غرفته، لكن بالتأكيد لن يفعلها معكِ.

- معكِ حقّ سيكتفي باقتلاع رأسي فقط.

أخذت حمامًا منعشًا وعدت إلى الغرفة بإحدى مناماتي القطنية، عادت جدة حازم ومعها صينية الطعام وتبعتها روان وهي تحمل كاسات الشاي بالحليب الساخن، وما إن رأت جدته وجهي بدون الضمادات صاحت:

- هل صدمتكِ شاحنة؟ اجلسي لنرى ماذا سنفعل بهذه التشوهات؟

- شكرًا لاهتمامك دعيها وستشفى من تلقاء نفسها أنا بحاجة فقط إلى مُسكّن ورباط ضاغط لرسغي.

ذهبت روان وعادت بأكياس الثلج ومرهم للكدمات، تركت الجدة تعتني برسغي المنتفخ.

- شعركِ رائعًا يا ميرال كيف تعتنين به؟

- قولي ما شاء الله، هذا آخر ما تبقى للفتاة من علامات الأنوثة، انسي ما حدث منذ قليل يا ميرال لقد كنت أستغلك لإثارة حفيدي.

- لا عليكِ الموقف كله سيء.

- هيا وتناولي فطورك حتى لا أضطر إلى تزغيطك حرفيًا.

طلبت مني جدة حازم أن أناديها بجدتي أو سوسو كما يفعل أحفادها ولم تقبل بخلاف هذا، سألتني وهي تتأهب للمغادرة.

- هل بإمكانك أن تثقي بي وتخبريني باسم صديق حازم الذي تعرض لكِ هذا حتى نعيد تأديبه؟ فكري بالأمر وأخبريني.

اتجهت إلى الفراش ودفنت رأسي بالوسادة المعبئة بعطر حازم في محاولة لكبح نحيبِ.

«الدموع لا تفيد يا ميرا أنتِ قوية سينتهي هذا البؤس ونستقل بحياتنا داخل سكن خاص وعمل مريح»

أعلم أن الوضع مخزي للغاية لكن الضيق يتبعه فرج، ربما حدثت هذه الأشياء لتزيد من صلابتي.

يا اللّه كيف تحول الحمل إلى ذئب؟ كيف صدقت وليد يوم أن وعدني بعدم التعرض لي؟ لقد كنت أعتبره بمثابة أخي، لكن كيف أسأت الحكم على حازم بهذا الشكل، ظننته مغرورًا وسطحيًّا؟

كانت الأمور تبدو على عكس طبيعتها وما ظننته سندًا لجبيني المنهك كان صخرًا تعثرت به فَـ أدمي روحي، وما كنت أخشاه وأهرع منه أصبح ملاذي الآمن.

فشلت في النوم فنهضت لأتفحص غرفته هربًا من الركون إلى الأفكار السوداء التي تجول برأسي، كل شيءٍ كان منظمًا بدقة وعناية رهيبة لا أثر للفوضى معها، حائط كاملًا مليئًا بصوره، تارة وهو في حمامات السباحة أو عمله، وأخرى وهو يضرب على رق وغيرها الكثير، يا اللّه متى تعلم كل هذا؟

فوجئت بمكتبة ضخمة تحتل حائط بأكمله، ووجدت بها رف كامل ممتلئ بالجوائز الرياضية والميداليات الذهبية التي حصل عليها، لقد تفوق في كل ما قام به، لكن كيف وجد الوقت لكل هذا؟ أثار انتباهي

دفتر صغيرًا بجانب الجوائز، كانت مذكرة صغير مدونة بالقلم الرصاص وجدتها فرصة للتعرف عليه، حملتها وعدت إلى الفراش، لنرى ما دونه هذا المتسلط.

كان خطّه منمقًا وكأنه يرسم الحروف رسمًا، لم تكون مذكرات كما توقعت، كانت اقرب إلى الاعترافات والأمنيات، أثار انتباهي وجود محادثات غريبة بدت وكأن شخصين يتجادلان.

«الحل الوحيد لمأساتك أن تجد من تضيء وحشتكَ وتحتوى ضعفكَ.»

«أين سأجد من تقوى على العيش مع وساوسي؟»

«لقد خلق اللّه لكل روح توأمها فلا تيأس.»

«هذه أوهام فجميعهن يبحثن عن الحب الموجود في الأفلام والروايات، لا أحد يتحمل المزاجية والوسواس التي تحيل حياة الإنسان إلى جحيم.»

«أنت في حاجة إلى من تقبل بكَ بمخاوفكَ وندباتكَ الداخلية.»

«أي مختلّة هذه التي سترضى بي!»

«أخبرني ما الخطأ في أن يتعلق الغريق بقشة؟ ما الجرم في أن يصنع المستوحش من أحلامه قنديلاً يضيء به وحشته!»

ما هذا الجنون، حتى الخط بدا مختلفًا وكأن اثنان يتحدثان معًا!

واصلتُ القراءة:

«وأخيرًا وجدتها شعرت يومها بنغزات عميقة تتسلل إلى عروقي وأحسست باحتياج شديد إليها رغم أنها كانت المرة الأولى التي أراها فيها وكأني أمضيتُ ما مر من عمري في انتظارها استفزني هذا الشعور وانقلب إلى سخرية منها، رغم أن كل جزء بداخلي يتوق، لكن عوضًا عن هذا أجبرتها على الهرب مني. هكذا أفضل فالمكان لا يتسع لخيبتين معًا، يكفيني خيبتي!»

ترى هل كنت أنا المقصودة بحديثه هذا!

أفقتُ على طرقات الباب، خبأت الدفتر داخل الفراش.

- ميرال هل أنتِ مستيقظة؟ حازم يريد محادثتكِ.
- نعم يا روان تفضلي.
- لماذا انقطعتى عن الدراسة كل هذا الوقت؟
- وما شأنكَ أنتَ؟
- كفى استهتارًا، لديكِ اختبارًا في نهاية الشهر، هيا فاجئيني وقولي أنكِ مستعدة.
- كيف عرفت؟
- وما شأنك أنتِ؟
- مجنووووووون، مستفززززز ....
- اهدئي، هذا طبع أخي لا تدعيه يؤثر عليكِ.
- سأترك له المدينة بأكملها.

لمعت عين روان وهي تقول بمكر طفولي:

- نحن في حاجة إلى كوب نسكافيه وخطة.
- هل تعتقدي أن هناك خطة تصلح مع أخيكِ المستبد هذا؟
- سأذهب لأعد النسكافيه انتظريني في الشرفة.

جلسنا بالشرفة وبدأت روان الحديث.

- أخبريني كيف التقيتما يا ميرا؟
- عن طريق صديق مشترك.
- منذ شهرين تقريبًا أليس كذلك؟
- نعم، هل حكى لكِ عني؟

- بالطبع لا، حازم كتوم جدًا لكن لاحظت أن جنونه بدأ وقتها.
- أخيكِ مجنون بالفطرة.
- وأنتِ ستذهبين بما بقى من عقله، أنتِ تثيرين إعجابه أو ربما خوفه.
- أنا لا أثير سوى سخريته واستبداده.

(٣٨)

هل كان عليها أن تكون بمثل هذه الهشاشة والضعف، كيف سأقوى على تركها وحيدة بعد الصور التي رأيتها بالأمس! تذكرت الاضطراب الذي ذكره وليد ودلفت إلى المتصفح للبحث عن حقيقته وليتني ما فعلت، كان كوكتيل متنوعًا من الأمراض والهواجس النفسية.

لا أدري ما العمل الآن؟ كل ما تمر به يزيد من صعوبة حالتها ويتعارض مع حاجتها للشعور بالأمان والاستقرار، كيف استطاع وليد الإقدام على فعلته هذه رغم علمه بمرضها؟

عليّ أن أجد لها سكن بالقرب من دراستها، اتجهت إلى المعهد، وبحثتُ عن سكن للمغتربات بجواره، كانت الأماكن جميعها شاغرة بسبب الدراسة، وبصعوبة عثرت على غرفة مشتركة في سكن للطالبات، اتفقت مع مشرفة السكن على معاينة المكان بالغدّ.

ومررت بمعهدها؛ لأستعلم عن وضعها الدراسي وليتني ما فعلت، كانت متغيبة عن الدراسة ما يقرب من شهر واختباراتها ستبدأ الأسبوع القادم.

«ما دخلكَ أنتَ بدراستها وسكنها، عليها أن تتعلم الوقوف بمفردها حتى تنضج.»

«لا لن أقوى على تركها، يكفي أنها بدون أهل أو أصدقاء، وستدمر نفسها لو تُركت بمفردها، فهي كالأطفال ما إن تدير رأسك عنهم حتى تتوالى المصائب.»

«ماذا لو لفظتك بعد كل هذا؟ سيكون من الأفضل أن لا تتعلق بها.»

عدت إلى البيت غاضبًا منها ومن نفسي، لم أعد احتمل المزيد من الصبر، لقد أعياني البحث عن من تلفت انتباهي حتى يأستُ من وجودها، واليوم عندما وجدتها إذا بي اجبر على المزيد من الصبر، من أين لي بالتحمل؟

دلفت إلى غرفتي وأنا أتوعدها، لم أتبين الظل المتكور فوق فراشي لكن صدمت بهمساتها، ما الذي أتى بها إلى هنا؟ فاجئني الفزع المرسوم على وجهها وكأن الأشباح كانت تطاردها في نومها.

- ما الذي أتى بكَ إلى هنا لقد أفزعتني؟
- هذا من دواعي سروري، لِماذا تغيبتِ عن الدراسة؟

نهضت بعبوس وسارت باتجاه الباب.

- إلى أين؟
- إلى الحمام.

تذكرت بأني تركت باب المنزل فأسرعت لإغلاقه.

- لم يكن في نيتي الهرب، على كل حال أين ستذهب مشردة مثلي.

رمت بعبارتها إليّ في يأسٍ ثم اتجهت للحمام.

عدتُ إلى غرفتي ولاحظت عبثها بأغراضي، أبدلت ثيابي وعدت إليها، لا زالت بالحمام.

- هل ذهبت للنوم بالداخل، هيا أخرجي الآن؟
- ألا يمكن للمرء أن يغسل وجهه في هدوء!

خرجت دون أي أثر للمياه على وجهها، ماذا كانت تفعل في الداخل إذًا بعينيها المحمرة وأنفها المنتفخ هذا، يا الله لقد تعبت من هشاشتها! كان بكائها وجزعها يثير عجزي.

- أنا ذاهب لأعد القهوة، كم سكرك؟

- ثماني ملاعق كبار وكيسين من القهوة في كوب صغيرة.

رمقتها بصدمة:

- ستفسدين ميزانية المنزل بهذا الشكل!

ضحكت بمرح، لحقتُ بها داخل الشرفة بعد أن تذوقت بعضًا من كوبها وجزعت من مذاقه، لكن عساها تجري خلفي بعد أن تشرب بعدي كما يُقال.

- لقد وجدت لكِ سكن، لكن بغرفة مشتركة.

- هل عاينته؟

- سنذهب غدًا لمعاينته.

لاحظت شرودها فأكملت:

- مع أنني أفضل بقاؤكِ هنا وأعدك أن أبقى بعيدًا ما دام وجودي يضايقك.

- هل لي بسيجارة؟

ناولتها واحدة وسألتها:

- ماذا أيضًا غير السجائر؟

- كل ما يمكنك تخيله عن فتاة عابثة.

تألمت حين ذكرتني بإهانتي لها في اللقاء الأول بيننا.

- لم أقصد مضايقتكِ، فلدي عيوبي أيضًا وكنت سأخبركِ عنها لو سألتني.

- هل ستنزعج جدتك لو شاهدتني أدخن؟

- جدتي مشغولة مع برامج الطهو وحتى لو رأتكِ ستنفعل لأجل صحتك فقط فهي ليست ممن يصدر أحكامه على غيره.

- ماذا تدخن بخلاف السجائر؟
- الحشيش والكحوليات لكن على فترات متباعدة.
- ما هو مشروبكِ المفضل؟
- كوكتيل فودكا، متى كانت أول مرة لكِ؟
- في الثالثة عشر.
- لقد سبقتيني، مع من كنتِ؟
- والدي.
- كيف سمح لكِ بهذا؟
- كان يرى أن من الأفضل أن أجرب ما أريده أمام عينيه.

صمتت واكتسى وجهها الحزن.

- على الأقل كان لديكِ والد متفهمًا.
- نعم، متى بدأت الشرب؟
- في المرحلة الثانوية.
- مع من كنت؟
- أحتاج إلى الوحدة حين أصل إلى تلك المرحلة كما أنه أفضل من المجاهرة بالذنب، هل أعجبكِ التفتيش بحجرتي؟
- اتصالك قطع التفتيش.
- أنتِ مستفزة جدًا يا غزالة.

كان يتحدث معها بسلاسة وعفوية على عكس طبيعته المتحفزة، ينتقل بها من حديث لآخر بخفة وشغف فتثيره ردودها التلقائية على عكس ما تعود عليه منها من تصنّعٍ وتعالي.

- اسمي ميرال من غزال هذه؟
- غزال هو معنى اسمك بالتركية.

وصلت إلى معنى اسمها بالتركية، الوضع أصبح خطير هنا.

قطعت روان خلوتنا واحمرت ميرال من الخجل وعادت إلى الداخل، لحقت بها وهي تتجه إلى غرفتي.

- أرى أنكَ لم تفوت فرصة التفتيش بأشيائي!

- لديكِ زوق رائع في العطور، وغمزت هامسًا والملابس أيضًا.

- وقح.

قطع صوت الجدة جدالنا كانت تستدعينا لتناول العشاء، فتركتني وذهبت، وقفت أتأمل مشيتها بدت وكأنها ترقص على إيقاع خفي، فبدت وكأنها تقبل الأرض بقدميها الحافية.

(٣٩)

جلست على العشاء معهم بذهن شارد لقد كان مختلفًا عن الذي التقيته أول مرة وكانت عيناه تعانقني كلما تحدثت، مع أنه كان في الماضي يهرب من النظر إليّ، كيف خفف من تحفظه بهذه السرعة؟ تذكرت كيف أغتم لحظة دخول شقيقته!

- ألم يعجبكِ الطعام يا غزال أم أنك مهووسة بالحفاظ على رشاقتكِ؟
- الطعام رائعٌ جدًا.
- لذا ستكتفين بتأمله.
- دعها وشأنها يا حازم.
- جدتي صارت تدافع عنك، ظننتها ستنجو من تأثيرك.

تجاهلته واستأذنت للذهاب إلى النوم لم تمضِ دقائق حتى وجدته يقتحم الغرفة.

- أنتِ انهضي لم يعد هناك وقت لاستهتارك هذا.
- ماذا تريد؟
- أحضري كتبك وهيا للمذاكرة.
- وما شأنك أنتَ؟

أتاني الرد عبر ثيابي التي راحت ترتفع في الهواء ثم تعود لتسقط فوق رأسي ومن حولي لقد جُن وراح يفتش عن الكتب بين ثيابي.

- أرح نفسك، لقد نسيتها بشقة وليد.

توقف بعد أن أفرغ حقيبتي ورماني بنظرة توعد وغادر.

لم أعد أحتمل ما يحدث معي من غرفة خاصة بحمام واسعًا، وأثاث راقيًا إلى سرير في غرفة مشتركة، ومن مصروف يومي الذي كان يتخطى آلاف إلى جنيهات قليلة لا تكفي حتى نهاية الشهر، سيمر كل هذا ويصبح من الماضي، تناولت المهدىء وغفوت قبل أن أفقد السيطرة على أعصابي، استيقظت مع شروق الشمس وبداخلي شعور قاتل بالوحدة والحزن، وفشلت في العودة للنوم ثانية، فاستسلمت في النهاية ونهضت، كان الجميع يغط في النوم، غادرت المنزل واحتفظت بالعنوان في ذاكرتي حتى لا أضيع الطريق كعادتي، سرتُ باتجاه البحر، أدرت ظهري للطريق ورحت أتطلع زرقة البحر الممتدة أمامي.

وانسابت دمعاتي في صمت كنت أرثي حالي ووحدتي، لما لا أجد من أذهب إليه وأستنجد به في وضعي هذا؟! رغم أني كنت أملك عشرات الأصدقاء!

كنت أهرب من وحدتي وسط الزحام والصخب، خوفًا من البقاء مع نفسي، وكان جميع من بالمنزل يتجاهلني، حتى يامن كان يبتعد عني خوفًا من أن يؤذيني، مع أنه كان يكرس كل جهده لسعادتي لكن من بعيد.

جفت دموعي فجأة كما بدأت، واتخذت طريق العودة، بدا الطريق طويلًا تهت عدة مرات حتى وصلت للبيت، فوجئت بأن الجميع يجلس في انتظاري.

- أين كنتِ ظننا أنكِ غادرتي؟

ما إن فتحت الباب روان حتى استقبلتني بسؤالها، وتبعتها جدتها قائلة في حنو:

- حمدًا لله أنكِ بخير أقلقتني عليكِ هيا لنتناول الفطور.

- يومًا ما سأحطم رأسكِ وقدمكِ.

قالها حازم من فوق رأسي واتجه للشرفة، لحقت به فأطال النظر بي وبقى على صمته.

- متى سنذهب لمعاينة الغرفة؟

- عند عودتي من العمل، ألهذا الحدّ يزعجك البقاء معنا يا ميرال؟

قالها وعاد إلى الداخل دون أن ينتظر جوابي، نادتني روان لتناول الفطور معهم، كنت أفتقد الرغبة في الطعام والحديث، فجلست أعبث بالصحن.

هل كنت أطمع بالكثير يوم أن تمنيت أن يكون لدي عائلة اجتمع معها على المائدة ونتبادل الحديث؟ لقد كانوا يجتمعون على الطعام في منزلي بسبب أوامر يامن، لكن لم يهتم أحدهم بحضوري يومًا.

- هل كان الموعد مهمًّا لهذه الدرجة؟

لم أنتبه، فكرر سؤاله.

- لقد ذهبت للمشي.

- أه الغزالة تخشى على نفسها من زيادة الوزن.

- لقد شبعت سأذهب للنوم.

اتجهت إلى الفراش وابتلعت المهدىء، غفوت سريعًا لكن استيقظت على صياح حازم الهمجيّ.

- هل ستوقظيها أم أفعل هذا بنفسي؟ هيا روان ليس لديّ وقت.

- ماذا هناك يا سيد المزعجين؟ ألا يمكن للمرء أن ينام مطمئنًا بعض الوقت!

- لديك اختبارات وضيعتِ كتبك ولا زلتِ قادرة على النوم، من أين أتيتِ ببرودة الأعصاب هذه؟

ناولني حقيبة الكتب الخاصة بي، قاطعته:

- لكن أنا لا استطيع قبولهم .

- ستسددين ثمنهم من أول راتب لك فأنا لا أسامح في نقودي، كفى ثرثرة هيا للمذاكرة.

قالها وانطلق من حيث أتى، جذبت روان الكتب وبعثرتهم على الفراش وراحت تتفحصهم بعدم فهم.

- ما هذا يا ميرال كيف تفهمين هذه المصطلحات؟

كان لديّ محاضرات للشرح وملخصات أبسط من تلك اللوغريتمات.

تذكرت سهري على المذاكرة والبحث عن شرح وتبسيط للكتب، كل شيء ضاع بشقة وليد، لا أدري كيف سأذاكر الآن؟

غادرت روان، فرشت الكتب على الأرض وجلست أمامهم في محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، لم أنتبه إلى مرور الوقت كنت منهمكة في محاولة فهم المسائل الحسابية عندما دلفت الجدة إلى غرفتي ومعها كوب نسكافيه وطبق الكعك وأخبرتني أنها ستعود إلى المطبخ لتعد غداء يليق بزوجة ابنها.

عدت إلى الدراسة وذهني مشوشًا بالتفكير في حازم، ظننت أنه يتيم الأب والأم نظرًا لإقامته مع جدته، ولتجاهله الحديث عن والدته، ما شأني أنا بهذا عليّ أن أجد لي سكن الليلة لا يعقل أن تراني والدته بهيئتي المزرية.

أفقت على صوت ترحيب الجدة بوالدة حازم، دقائق ونادتني للتعرف بكنتها.

لست في حال يصلح للتعرف على المزيد من عائلته، حتمًا لن تنسى والدته وجهي الملون بالكدمات فالانطباع الأول يدوم للأبد، تابعت الجدة ندائها ثم جاءت بنفسها لتسحبني إلى الخارج.

استبدلت منامتي ببنطال جينز قصير وسترة خفيفة وأطلقت سراح شعري وخفّف المكياج من حدة الكدمات التي تغطي وجهي، قدمتني الجدة إليها على أني ابنة إحدى صديقاتها.

كانت نسخة من روان، نفس الشعر الأصفر القصير والعيون الخضراء حتى ملامح الوجه بدت متطابقة مع هذا كان هناك اختلاف كبيرًا في طباعهما، كان زيّها الراقي يتناقض مع بساطة المكان بشكل فجّ وبدت الجدة رقيقة الحال أمامها بعباءتها القطنية وشالها الأبيض.

لم يكن هناك أي تشابه بينها وبين حازم على العكس، كان يشبه جدته خاصة بعينيه البنية وشعره الأسود الغزير.

جلست أستمع إليها وهي تحكي عن جولتها في باريس قبل قدومها إلى مصر، لاحظت أنها تتعمد النظر إليّ بغطرسة، لحسن الحظ عادت روان ورحبت بها وشغلتها عني، فوجئت بأن روان ترتدي حجاب وفستان محتشمًا للغاية بعكس ثياب والدتها.

تبادلا الأحضان والقبلات وسرعان ما أظهرت والدتها امتعاضها من ثيابها.

- روان يا صغيرتي أنا لا أطالبكِ بارتداء ثياب فاضحة مثل التي ترتديها ميرال، لكن هناك أزياءَ شبابية أنيقة ومحترمة، انتقي ما يناسب عمركِ يا حبيبتي.

رمقتها الجدة بتحذير وأنبتها فوجدتها فرصة للانسحاب إلى غرفة حازم، لكنها استوقفتني بمنتصف الطريق..

- أليست هذه غرفة حازم، هل سمح لكِ بالإقامة هنا؟

- نعم.

- يبدو أن العلاقة بينكما قوية، لم يسمح لي بالدخول إليها وأنا والدته!

صاحت الجدة بنفاذ صبر:

- دعي الفتاة وشأنها يا رولا، هيا اذهبي إلى غرفتكِ لتستريحي حتى أجهز الغداء.

رمقتني روان بأسف.

عدت إلى غرفة حازم وحزمت حقيبتي، سأقبل بالسكن المشترك حتى لو اضطررت إلى النوم على الأرض، يكفيني ما تعرضت له من إهانة حتى الآن، عاد حازم في المساء، وأصّرت جدته على أن نتناول الغداء قبل الذهاب ولم تضيع والدته الفرصة لمضايقتي.

- هل ستتنازل عن خوفك من الفتيات لأجل هذه المراهقة، يا له من اختيار سيء للغاية!

- من نعم الله علينا أن معظم النساء لسن مثلكِ يا مدام رولا.

تجاهلت إساءته وردتها بإهانتي:

- وهل صارت فتاتك من ضمن النساء؟

تدخلت جدته بالحديث:

- كيف تتحدثين عن ضيفتي بهذا الشكل يا رولا؟

كنت أستمع لحديثهم عني بذهول أخرجني منه حازم:

- هيا يا مرمر تأخرنا.

ذهبت إلى الغرفة وأحضرت حقيبتي وودعت روان وجدتها، واعتذرت لي روان عن إهانات والدتها، وحمل حازم الحقيبة ودلفنا إلى سيارته.

- ألن نذهب؟

- كان من الأفضل أن تتركِ حقيبتكِ حتى نتأكد من أن الغرفة أعجبتك.

رفضت المشرفة السماح لحازم بالصعود معي؛ لمعاينة الغرفة، فرضخ على مضض وتركني معها، كان السكن أشبه بصفيحة قمامة ولا يصلح للعيش لكن وافقت على الإقامة به نظرًا لوضعي الحالي، عدت إلى حازم وطلبت منه إحضار حقيبتي.

جلسنا في السيارة وبدأ استجوابي:

- هل أعجبتكِ الغرفة؟
- جدًا.
- جيدًا، ما رأيك أن نذهب لتناول العشاء قبل أن أودعك؟

انطلق نحو المطعم بسرعته المعهودة واستدار فجأة وهو يشير إلى ثيابي:

- من أين أتيتِ بهذه الهلاهيل، ألم تجدي بنطال أقصر من هذا؟!
- دعنا نعود،لن أحتمل المزيد من الإهانات.

توقف على جانب الطريق بعد أن لاحظ دموعي الهاربة، أخرج المبلغ الذي تركته بغرفته وألقاه بوجهي.

- ما هذا، هل ظننتِ نفسك في فندق؟!
- أردت التعبير عن امتناني.

صرخ بغضب:

- أعيدي نقودك لحقيبتك يا ميرال وتوقفي عن البكاء فورًا، أنتِ تجعلين التعامل معكِ مستحيلًا وأحذركِ الآن لو تركتي ذرة واحدة من طعامك سأدسهاَ في فمكِ عنوة.

توقفتُ عن النحيب مندهشة من فرط انفعاله، انتهت الليلة وعدتُ للسكن، وضعت الحقيبة على الفراش القذر بحثت عن غطاء يصلح لمداراته بلا جدوى، تجاهلت الأمر في النهاية وانشغلت بالمذاكرة لكن زميلتي بالغرفة أصرت على إغلاق الضوء، كنت أخشى النوم في الظلام فبقيت ساهرة طوال الليلة.

عجزت النوم بسبب الحشرات الصغيرة التي كانت تتحرك على جسدي طوال الليل، فدلفت إلى الشرفة للمذاكرة على الضوء الآتي من

الخارج إلى أن حان موعد المحاضرات، واظبت على السهر ثلاثة أيام متواصلة لعدم وجود مكان يصلح للنوم.

أنهرت في اليوم الرابع ولم يعد بجسدي موضع يخلو من آثار الحكة، ولم أقوى على الذهاب إلى المعهد من شدة الإرهاق، وزاد من تأزم الأمور أن المبلغ الذي تبقّى معي لم يعد يكفي لنفقات المواصلات والأكل لذا امتنعت عن تناول الطعام واكتفيت بأقداح القهوة، طفت بالمقاهي والمكتبات القريبة من المعهد بحثًا عن عمل لكن بلا جدوى.

كان اليوم السادس هو الأبشع، صداع رهيبًا بسب عدم نومي ومعاناتي البشعة مع الحشرات والروائح الكريهة مع تقززي من استخدام المرحاض أو لمس أي شيء داخل مكب النفايات الذي علقت فيه.

لا أدري كيف سأستمر على هذا الوضع؟! وحازم تجاهلني بمجرد أن وضعني في هذا المكان وكأنه تخلص من حمل ثقيل.

(٣٠)

أيام مضت منذ تركتها، لا أدري كيف تعلقت بها بهذا الشكل! دفعني قلقي عليها للذهاب إلى المعهد لرؤيتها، لكن كانت متغيبة، ما زالت مستهترة كعادتها، لكن ما دخلي أنا بها وبدراستها!

فقدت السيطرة على نفسي في المساء، وتذكرت أنها تركت هاتفها بشقة وليد فارتديت ثيابي واتجهت إلى السكن، المشرفة رفضت أن تخبرها بقدومي في البداية.

ظهرت أخيرًا الأنسة مثيرة المتاعب، كانت تسير بعدم اتزان وفي حالة فوضى عارمة، شعر مشعثًا وهالات مخيفة حول عينيها، وقفت مذهولًا كيف وصلت لتلك الحالة؟ هل عادت للشرب من جديد؟ وما إن اقتربت حتى فاجئني جسدها المشوه بأظافرها.

- ماذا فعلتي بنفسك؟
- الحشرات هنا في كل مكان لم أعد أحتمل.
- هيا احزمي حقيبتك لنذهب.
- لن أترك غرفتي أبدًا.
- هيا لا داعي للفضائح.

تأخرت في المجيء حتى ظننت أنها لن تأتي فأرسلت من يحضرها، جاءت متعثرة بحقيبتها.

- لماذا لم ترتدي ثيابكِ؟

- متسخة كلها من الحشرات، سنذهب هكذا أو سأعود لغرفتي.

كانت ترتدي منامة قطنية قصيرة لا تصل لركبتيها، لا أعلم هل أعود بها إلى المنزل لتعاود والدتي إهانتها، أم أجازف بتركها وحيدة في شقتي؟

- كيف وصلتي إلى هذه الحالة؟
- لم أنم منذ تركتني في مكب النفايات هذا.
- متى تناولتي طعامك آخر مرة؟
- عندما كنا معًا.
- لماذا لم تخبريني؟ هل كنتِ تحاولين الانتحار يا ميرال؟!
- كف عن الصراخ بوجهي.
- كفى برودًا وأجيبيني، لماذا لم تخبريني بأمر الغرفة منذ تركتك، لماذا أهملتي نفسكِ ودراستكِ؟
- ما تبقى معي من المال لا يكفي للطعام والمواصلات ولن أجازف ببيع المزيد من مدخراتي، هل ارتحت الآن؟
- متى نتخلص من حساسيتك اللعينة؟
- عندما أموت، أين سنذهب؟ لن أعود إلى والدتكِ لن تجبرني أبدًا على جثتي.

راقبت انفعالها بافتتان كانت فاتنة تشبه الأطفال بعصبيتها، كيف سأقوى على تجاهلها؟

- لن نذهب إليها،علينا الآن أن نطعمك أولا، ما رأيك بيتزا أم برجر؟
- كاسة كبيرة من القهوة مضاعفة الكافين وأقراص مسكنة.
- لا جدوى من استخدام الديمقراطية معكِ، سنتناول البرجر داخل السيارة نظرًا لثيابك الفاتنة هذه، بعدها سنبحث لكِ عن مكان تغتسلي فيه.

- هل صارت رائحتي كريهة لهذه الدرجة؟

قالتها ومدت يدها لحقيبتها وأغرقت نفسها بعطرها الجذاب.

- كفى سنختنق، رائحتكِ رائعة لكن الاستحمام ضروريًّا؛ للتخلص من الحشرات.

أحضرت الساندوتشات وكوبين من القهوة واتجهت إلى الشركة.

- إلى أين سنذهب؟

- سنمر على الصيدلية أولًا ثم نذهب إلى مكتبي يا حزمة المصائب المتنقلة.

أجابت بسخرية وهي تردد إحدى عباراتي لها:

- لقد كان عليك الهرب منذ اللقاء الأول.

- وأضيع على نفسي كل هذا الجنون!

اتجهنا إلى مكتبي، وأرشدتها إلى الحمام اغتسلت ووضعت مطهر على الأماكن التي أدمتها بأظافرها، وتركتها تنعم بالنوم بعد أن نبهت عليها بعدم مغادرة المكتب مهما حدث، وحملت حقيبة ثيابها معي حتى أرسلها إلى المغسلة.

لم أقوى على تركها وحيدة داخل الشركة فجلست بسيارتي أنتظر الصباح، قضيت الليلة أفكر وأبحث عن سكن عبر الإنترنت وكالعادة لا شيء مناسبًا، اتجهت إلى المنزل واستعرت لها فستان من روان حتى يتم تنظيف ثيابها.

كانت لا تزال نائمة عند عودتي، أيقظتها بصعوبة وتركتها تبدّل ثيابها.

أفقت على صوتها:

- سأقيم بفندق حتى أجد سكن أو أعود إلى مدينتي بعد انتهاء اختباراتي.

- لا داعي أن نبدأ الصباح بالمشاحنة، انسي أمر السكن وانتبهي لدراستك الآن.

- وأين سأقيم إذًا؟

- هنا في غرفة مكتبي ولا مجال للنقاش.

تركتني وعادت إلى الغرفة متزمرة، سألت زملائي عن سكن، فاخبرتني (ميس) أن لديها ابنة خالة كانت تبحث عن شريكة سكن، ستتواصل معها بخصوص ميرال، انشغلت في عملي حتى نهاية اليوم، وتركتها تهتم بدراستها.

- هيا لتناول الغداء.

- لست جائعة.

- أنا جائعٌ وأحتاج إلى صحبتكِ المملة.

رمتني بنظرة استهزاء وعادت إلى كتبها.

- ما الأمر أخبريني؟

- لقد أصبحت عالة على جميع من يعرفني، حتى أنت.

- «حتى أنت» تقصدين أني نكرة وأن حال معاليك تدهور بشدة بسبب حاجتكِ إليّ، كيف استطعتِ الاحتفاظ بتكبركَ الكريه رغم كل ما يحدثَ معك؟

- لم أقصد هذا صدقني، كنت أعني أن حالي تدهور إلى الحد الذي جعلك تشفق عليّ رغم كل الكره الذي تحمله نحوي.

- غبية.. غبية من قال أنى أشفق عليكِ يا غبية.

- لكنك تكرهني!

- توقفي عن غباؤكِ يا ميرال لقد حققتي رقمًا قياسيًّا بالفعل.

- لا بد أن بقائي قربك أثّر عليّ.

- هيا يا ميرال قبل أن أضطر للعنف لا تختبري صبري أثناء جوعي.

(٣١)

كنت أتناول الغداء مع حازم حين اتصلت به جدتي وأصرت على عودتي معه إلى منزلها بعد أن علمت بمبيتي في الشركة.

- هل أكل القط لسانك؟
- لماذا أجبرت جدتك على التدخل؟
- جدتي كانت تنتظر رحيل والدتي بفارغ الصبر حتى تعيدك للمنزل.
- حقًا.
- لقد أقسمت أن تمنعني من الدخول إلى المنزل لو عدتُ بدونك، هيا لأسلمك إليها يدًا بيد.
- وكأنك تتحدث عن طرد بريد.

ضحك حازم بشقاوة قائلًا:

- بلى أتحدث عن كارثة تسير على قدمين.

دلفنا إلى الشقة ونحن نتبادل العبارات الساخرة، علقت جدته قائلة:

- ها قد عاد القط والفأر من جديد.
- مساء الخير يا سوسو، هيا استردي بضاعتك.
- أتمنى أن لا يكون حفيدي الأحمق أزعجكِ يا ميرا.
- الآن صرت أحمقًا وباتت تتجاهل الترحيب بي بعد أن كانت تترجاني؛ كي أعود إلى المنزل.
- كيف حالك يا سوسو اشتقت إليكِ جدًا؟

- ها قد أخذت امتياز تدليلكِ أيضًا، ماذا تركتِ لحفيدها؟
- ضع أغراض ميرال بالغرفة ودعني أطمئن عليها في هدوء.
- هزلتي جدًا يا ميرال هل كانوا يمنعون عنكِ الطعام؟
- كنت مريضة فقط يا جدتي لا تقلقي.
- ستقيمين معنا حتى نهاية الاختبارات.
- لكن لا أريد أن أثقل عليكم بوجودي.

جذبتني نحوها وضمتني إلى صدرها.

- الأبناء لا يثقلون على أهلهم.

أربكني وقع كلماتها النقية فلم أجد رد.

- هناك أمر أودّ اطلاعك عليه.
- هل قام حازم بمضايقتكِ؟
- الأمر يتعلق بي، لقد تركت عائلتي للأبد، أقصد أني هاربة كما يُقال.
- لكل شيء سبب أليس كذلك؟
- نعم لم أكن على وفاق مع والدتي وزادت إساءتها لي بعد رحيل والدي.
- أليس لديكِ أقارب؟
- لا.. على كل حال أنا سيئة للغاية وأثير المتاعب أينما ذهبت.
- لن أقول الجملة المعتادة صار الآن لديك عائلة، لكن الأيام كفيلة أن تخبركِ بأننا عائلتك، لكن أخبريني لماذا قلتِ أنكِ سيئة يا ميرال؟
- لقد رباني والدي على التحرر، كان يتركني أفعل ما يحلو لي حتى وصلت إلى تناول الكحوليات واعتدت ارتياد أندية الرقص مثل جميع أقراني، لا أعرف كيف أقولها؟

وضعت جدته كفها على يدي وضغطت على أناملي بقوة لتشجعني على الحديث.

- أنا مختلفة عنكم، أدخن بشراهة وأدمنت الشراب لفترة طويلة، لأنها تساعدني في مواجهة الحياة.

- تساعدكِ على الهرب من شعورك برفض عائلتك، هذا ما أردتِ قوله، أليَس كذلك؟

- نعم، أرى أن نشأة روان وحازم تختلف عني وأخشى أن تخافي من تأثيري عليهما، لكن أعدك بأني سأبقى بعيدًا إلى أن أجد سكن.

- كان من الأجدر أن تسأليني كيف عرفت شعورك برفض والدتك؟

- كيف علمتِ؟

- لأن حفيدي أيضًا حدث معه حدثًا مشابهًا لما حدث معك، لقد تخلت عنه والدته في صغره ورحلت بشقيقته ثم هجره والده بعدها، وكلاكما يظن أن الخمور ستساعده على النسيان.

- هل فعلت والدته هذا؟

- نعم كان في الخامسة من عمره حين رحلت إلى بلدها ورفضت اصطحابه.

صمتت جدة حازم للحظات، ثم استرسلت بحزن:

- لقد ابتلع غيابها في صمت، وكان يتجاهل السؤال عنها، لكن نظرة الضياع التي كانت تطل من عينيه فضحته.

- لماذا هجره والده؟

- للأسف كان ولدي شديد القسوة والجفاء وهذا ما دفع زوجته للانفصال عنه، وخشيت أن تؤثر قسوته على حازم فتعهدت بتربيته.

صمت وأنا أفكر في حاله، كانت ظروفنا متشابهة إلى حدٍّ ما.

- أخبريني كيف ظننتِ أني سأقاضيك على أفعالك بعد كل هذا العمر، نعم هناك اختلافَ بين نشأتكِ وحياتك وبين عادتنا، لكن لا زلتِ مثلنا ولم تفسد فطرتك بعد.

عدتُ إلى غرفة حازم فوجدتها كما تركتها وضعت الكتب حولي وشردت، هل حقًا عانى مثلي من شعور الخذلان والكره الغير مبرر؟

- هل سيطول تأملك لأغلفة الكتب؟
- هل سمعت عن شيء يدعى طرق الباب؟
- نعم هذا لو كان مغلقًا، أردت الاطمئنان عليك قبل مغادرتي، لقد أرسلت ثيابك إلى المغسلة وسيعيدها العامل غدًا.

قال عبارته بسرعة وغادر دون انتظار ردي، هل كان يهرب حقًا من شعور الرفض! نعم كل ركن بغرفته يؤكد هذا، وحده من يهرب من مشاعره الداخلية سيجد الوقت الكافي؛ ليحقق ما أنجزه حازم في سنه الصغير هذا.

اصطحبنا حازم إلى السينما بآخر يوم للاختبارات وواصلنا السهرة على البلاي ستيشن بعد عودتنا، جلست أشاهد المباراة بين حازم وروان.

- لقد أرهقت عيني الليلة بما يكفي تصبحون على خير.
- ألن تذهبي للنوم يا ميرا؟
- لا أرغب في النوم الآن.
- ما رأيك أن نكمل السهرة بالخارج؟
- الوقت تأخر جدًا.
- ليس بعد، هيا استعدي سأصطحبكِ للرقص.
- لماذا انتظرت ذهاب روان إلى النوم، ولم تصحبها معنا؟
- لأنها تكره الرقص، أرأيتِ كيف رفضت الدخول معنا إلى فيلم حقيقي بدلًا من الأنيميشن؟
- ظننت أنك من يمنعها عن هذا.
- لا دخل لي باختياراتها، هيا لا تضيعي الوقت.

(٣٢)

وصلنا إلى نادي الرقص، كانت تشع جاذبية بفستانها القصير وشعرها المتناثر حولها، جلست تتابع ساحة الرقص بحماس وغرقت في تأمل بريق عينيها الأسود وابتسامة ثغرها الرقيق وتلك الغمازة الشقية على خدها الأيسر وطابع الحسن المحفور بذقنها، قطعت تأملي وهي تسأل بتذمر:

- هل سنكتفي بالمشاهدة فقط؟

جذبتها إلى حلقة الرقص، راحت تدور برشاقة على أطراف قدميها الصغيرة كفراشة لا تعرف التعب، عدنا إلى الطاولة بعد فترة وهي تحمل حذائها وحبات العرق تزين جبينها.

- كنتِ رائعة، من أين تعلمتي الرقص؟
- التحقتُ بدروس البالية المملة في الطفولة ثم تعلمت أنماط أخرى من الرقص بعدها.

عدنا إلى السيارة وتوقفنا عند البحر، تسابقنا إلى الشاطئ، وقفتُ بعيدًا عن المياه وراحت تلامسها بقدميها في حذر.

- هيا اقتربِ.. المياه رائعة.
- أنا لا أجيد السباحة.
- لا تخافِ معكِ سبّاح حاصل على ميداليات ذهبية.

اقتربت قليلًا وعادت إلى الشاطئ فزعة عندما اقترب الموج منها، فجذبتها.

- ألن تتوقف عن تسلطك هذا!، أخبرتك أني أخاف.

سرنا معًا ومياه البحر تعانق ساقينا، وصوتها يعلو بمرح مع كل موجة تضربها، أفلتت يدي وركضت وسط المياه وكلما اقترب الموج منها قفزت عاليًا وكأن جسدها لا يخضع لقوانين الجاذبية.

- هل تعبتِ؟

- هذه أول مرة أقترب فيها من البحر إلى هذا الحد.

عدنا إلى المنزل، وجلسنا نتناول الفطور في الشرفة، لأول مرة أراها تتناول طعامها بنهم ودون إلحاح مني.

- أخبريني عن هواياتك؟

- الرقص والطهو.

- أظنها مهارات يا ميرا وليست هوايات.

- ما هي هواياتك؟

- القراءة، ما هي رياضتك المفضلة؟

- الدومينو، ولعب الورق.

- أنتِ بحاجة لإعادة برمجة هذه تَسالي.

- حسنًا لا تغضب هكذا أنا لم أمارس الرياضة أبدًا، ماذا عنك؟

- كنت أمارس السباحة وركوب الخيل وكمال الأجسام، لكن توقفت منذ فترة.

- رائع أنا أعشق الخيل أيضًا.

- هل تجيدين ركوبها؟

- لا، أعشق صورها فقط.

- أنتِ تتفنين في إثارة انبهاري استمري.

- كفّ عن الاستهزاء بي، لقد كان والدي يمنعني من أشياء كثيرة،

خوفًا عليّ فلم يتبقى أمامي سوى الطهو والرقص.

- حسنًا سأصحبك لركوب الخيل معي.

- من هو مُطربك المفضل؟

- ليس هناك مطربًا بعينه أنا أميل للموسيقى والقصائد العربية القديمة، وأنتِ؟

- فريق ايفانسينس وأديل.

- ذوقك رائع.. لكن قديم للغاية، هل سبق وأخبرك أحد بأنك تشبهين إيمي لين هارتزلر مطربة الفريق؟

- لا، لكن سمعت بأني أشبه شريهان.

- أيًا منهما؟

- بطلة مسرحية (سك على بناتك) إنها المفضلة لديّ.

- أنتِ مزيج فاتن من كليهما، من هو ممثلك المفضل؟

- أُفضل الطراز القديم انجلينا جولي، جينيفر روبرت، هل تعرف بأن لديك وجه سينمائي للغاية؟

- هل تعتقدي بأني وسيم إلى هذا الحد؟

تهربت من الإجابة وانسحبت للنوم، بحثت عن ألبومات مطربتيها واستمعت إليهما، وأنا أتأمل صور إيمي لين، كان الشبه بينهما مذهل حتى في استدارة جسدها وبشرتها الثلجية، استيقظت جدتي بعد انصراف ميرال.

- أين كنت أنت وميرال؟ استيقظت ولم أجدكما.

- كنا نحتفل بنهاية الدراسة.

- حذاري من أن تؤذيها بمزاجك المتقلب يا حازم.

- كيف وأنا أسعى لرعايتها.

- أنا أنبهك فقط، فمهما بدت لك قوية ومتمردة، لديها جانب حساس للغاية ولن تحتمل تقلباتك.

- يبدو أنها تمكنت من الوصول إلى قلبك، تصبحين على خير.

لم أتمكن من النوم، كنت أنتظر استيقاظها بفارغ الصبر، ودّدت لو أنها تواصل اليوم معي، وندمت على عدم التقاط صور لها، أردت الاحتفاظ بكل لحظة أمضيناها سويًا، بدت عفوية، لم تكن تتقمص كما كنت أتوهم، الفتاة الساحرة التي تسرق الأنفاس هي نفسها المراهقة المضطربة والطفلة المندهشة والطالبة التي تحاول التوفيق بين دراستها وعملها، خليط رائع لكن هشّ، لا زالت تنقصها القوة.

نهضت أخيرًا متململة من محاولات روان لإيقاظها، كنت أتابع التلفاز حين فاجئتنا بخروجها وآثار النوم بادية عليها، شعرها مشعث وعيناها منتفخة ووجهها ملطخ من بقايا كحل ليلة أمس.

- صباح الخير كيف حالك جدتي؟

- قولي مساء الخير.. ماهذا ما الذي حدث لشعركِ؟

- ربما صعقها ماس كهربائي أثناء النوم.

- ما أسخفك، شقيقتك المزعجة كانت تعبث بشعري.

- تعالي حبيبتي لا تهتمي بهؤلاء المشاغبين.

- الآن صرنا مشاغبين وأصبحت هي العاقلة.

نهضت وغادرتني حانقة، وعادت بعد أن اغتسلت.

- نعيمًا، هل تركتِ خبر للصرف الصحي؟

- لا، أردت أن أفاجئهم، ألم تجد لي سكن بعد؟

- أخبرتني ميس أن قريبتها لديها غرفة شاغرة.

- رائع تبقى أن أبحث عن عمل.

- دعينا نبحث الآن على الإنترنت، أخبريني عن مؤهلاتك العملية؟
- لقد جربت الإنترنت من قبل ولم يكن سوى مضيعة للوقت.
- جاريني ربما نجحت.
- حسنًا لديّ دبلوم سياحة وفنادق وخبرتي في العمل مقتصرة على المطاعم.
- لماذا لم تلتحقي بمعهد يناسب اختصاصكِ إذًا؟
- أخبرني وليد أن مجال السكرتارية أفضل بالنسبة سوق العمل.
- هل معكِ لغة أجنبية؟
- نعم، أتقن الإنجليزية والأسبانية والفرنسية.
- كان بإمكانك الالتحاق بمعهد لغات وترجمة، كيف أضعتِ هذه الفرصة؟!
- – لم يخطر الأمر ببالي.
- – حسنًا ترجمي هذه القطعة.

رفعت حاجبها وكأنها تتحداني واندمجت في ترجمة قطعة كنت أحتفظ بها على حاسوبي.

كانت صادقة في إتقانها للغة، وكنت في حاجة لترجمة عقود خاصة بالعمل وبعض الكتب الخاصة بدراستي رسالة الماجستير الخاصة بي.

- ما رأيكِ في العمل معنا؟
- أين؟
- ها قد عادت نوبات الغباء للسطوع من جديدٍ، مترجمة في الشركة يا ميرال.
- أنتَ تسخر مني، أليس كذلك؟
- غدًا نعد لك اختبارًا لو نجحتِ فيه سنضعك تحت التمرين لفترة، ويتم تعيينكِ بعدها.

- حقًا!

- هيا دعينا نختبر مهاراتك، أعدي لي كوب قهوة.

- ظننتك قلت مترجمة وليس عاملة بوفية!

نجحت بالاختبار بسهولة وبدأت العمل، كانت سعيدة ومتحمسة، حتى أنها انتهت من عدة ملفات في أيام قليلة دون أخطاء تذكر، لا أدري كيف غاب عن وليد حاجتنا لمترجمة؟ أتراه تعمد عدم إحضارها للشركة!

كان لوجودها بالشركة رونقًا خاصًا، فلم يمضي أسبوع على مجيئها حتى عقدت صداقات مع الجميع، كنت أنتزعها من بين زميلاتها بأعجوبة، انتقلت ميرال للسكن مع قريبة ميس، وسافرت جدتي وروان لقضاء العطلة مع والدتي.

(٣٣)

انتقلت للسكن مع تسنيم، كانت فتاة هادئة، تدرس الطبّ، كانت متحفظة معي في البداية، وحذرتني من الصخب والأغاني فاتفقنا أن أستعمل سماعاتي أثناء وجودها وأن أحجب فوضاي داخل غرفتي.

توطدت علاقتي بحازم ولاحظت الفرق بين تعامله معي وبين طريقته مع الآخرين، بدا أنه لا يجيد المجاملة لكن في المقابل كان بارعًا في السخرية فلا أحد يسلم من نقده اللاذع، وكان لي النصيب الأكبر من النقد والتوجيه وكأنه كان يراقبني ويتصيد هفواتي.

كنا نقضي العطلة الأسبوعية سويًا ما بين السهر أو التجول بالمدينة، تضاعف الوقت الذي نقضيه معًا بالتدريج، وكان يصر على أن نقضي الليل في السهر حتى صباح اليوم التالي.

أحسست أني على قيد الحياة بعد أعوام قضيتها في غربة مع كل من حولي حتى نفسي، لم يسبق أن اقتربت من أحدهم بهذا الشكل، جذبتني صراحة حازم واهتمامه الصادق بمعرفة كل ما يحدث معي، وصبره على سماع حكاياتي التي لا تنتهي، لكن كان الخوف من أن يتركني فجأة ينغص عليّ سعادتي، ماذا لو أنه سئم مني بعد أن اعتدت على وجوده؟ ظل هذا التساؤل يداهمني ويعكر مزاجي دائمًا.

ولسوء حظي حدث ما كنت أخشاه سريعًا ودب بيننا أول خلاف وأتبعه حازم بخصام طويل.

فوجئت بوليد يقتحم مكتبي، حاولت طرده لكن رفض وفشلت في المغادرة وخشيت أن ألفت أنظار الموظفين فجلست معه على مضض، ترجاني أن أمنحه فرصة للحديث، وافقت حتى أتخلص منه.

بدأ حديثه بعد تردد:

- أعلم أن ما فعلته بكِ لا يُغتفر لقد فقدت السيطرة على مشاعري تجاهك يومها.

صمت قليلًا وأخرج صورة شخصية ووضعها أمامي، تعرفت على نفسي حين كنت طفلة لكن لم أفهم ما علاقة صوري بالأمر، أشار على فتى كان يقف بالقرب مني.

- أنا ذاك الفتى، أعلم أنك لا تتذكريني، لكني لم أنساك على مدار عمري فقد كنتِ ملاكي الحارس، كنت مجرد طفل منطَوي وخجول يتعرض للضرب والسخرية وكنتِ تدافعين عني دائمًا، لكن لسوء حظي لم نكن أصدقاء، لقد بحثت عنك طويلًا حتى وجدتك، كان تجاهلك المستمر يقتلني ومع هذا كنتَ أبتلعه بصبر على أمل أن ينتهي، لا أعرف كيف أصف لكِ شعوري عندما جاءني اتصالك واستغاثتك بي، ظننت بأني نجحَت في جعلك تتعلقين بي حين أقمنا معًا، لكن ظهور حازم سرقكِ مني وأفسد الأَمر، كنتِ تتحدثين معه بنبرة لم أعهدها منك، نبرَة دافئة غير تلك الباردَة التي عهدتها منك، كنت أراقبك وأنَتِ تتسربين من بين يدي حتى فقدت سيطرتي وحدَث ما حدث.

اقتحم حازم المكتب وتشاجر مع وليد، حاول الأخير تخليص نفسه لكنه فشل، تجمع العاملين بالشركة وخلصوا وليد بصعوبة، جذبني حازم من ذراعي وجرني إلى مكتبه، وهو يصرخ بجنون:

- هل اشتقتِ إليه؟ كيف استطعتِ البقاء معه بعد أن حاول الاعتداء عليكِ؟

- لقد فوجئت بحضوره وفشلت في الهرب منه.

- نعم وندمتي على هجره ورأيتي أنها فرصة رائعة للعودة إليه واستكمال آخر ما تمّ بينكما.

صفعته وغادرت، وانقطعت عن الذهاب إلى العمل، ولم يعاود حازم الحديث معي بعدها، كيف استطاع أن يرميني بإهانته هذه؟ لقد ظننت أنه يعرفني جيدًا لكني كنت واهمة.

كان يراني ساقطة منذ البداية، وكنت حمقاء يوم أن ظننت أن الكره المتبادل بيني وبين الحياة قد انتهى، لقد كانت تُدبر لي مصيبة سوداء كعادتها، فوجئت بزيارة ميس بعد أن فشلت في إقناعي العودة للعمل.

- كيف حالكِ يا ميرا؟
- بخير وأنتِ؟
- الوضع أصبح سيئًا بعد رحيلكِ.
- أنتِ تبالغين.
- أصبح حازم لا يطاق بمجرد أن يتحدث معه أحدهم يفقد أعصابه ويقذفه بما تطاله يده، حتى أننا لم نعد نجرؤ على المرور من أمامه.
- مجرد ضغط عمل وسيمر.
- ألم تلاحظين كيف تغير بعد مجيئك وأصبح يتبادل الحديث معنا ويشاركنا السهر لمجرد حضورك بيننا، لقد كان يجيد ضبط أعصابه ومن الصعب استفزازه لو لم يكن لديك مكانة عنده لما انفعل بهذا الشكل لقد كنا نسميه رجل الثلج.
- لقد ذاب الثلج إذًا.
- كيف ستتخلي عن عملك ببساطة هكذا؟
- الدراسة بدأت ولم يعد لديّ وقت للعمل.

لم يسبق وأن كنت غبية بهذا الشكل، كانت علاقاتي سطحية بالجميع دائمًا حتى وليد لم يتمكن من المساس بمشاعري مثلما فعل حازم، ذاك الحنان الدافيء والاهتمام هو ما أوقعني به.

يبدو أن هناك لعنة تطاردني فكلما أوشكت على الاستقرار انقلب حالي رأسًا على عقب، ما جدوى الحياة إذا لو أصبحت سلسلة متواصلة من المصائب التي لا تنتهي؟! ترى هل كان لدعوات شذى علاقة بما يحدث معي؟

استسلمت لعادتي في مواجهة المصائب وعدت للشراب بعد شهور من الإقلاع، عادت تسنيم يومها لتجدني مُلقاة على الأرض وفاقدة الوعي، ساعدتني على النهوض ووضعتني تحت المياه، انتهيت من الحمام المزعج الذي أعادني إلى الوعي والتفكير ومنعت نفسي من الدخول في شجار معها؛ حتى لا أخسر السكن، هناك طريقة فعالة أكثر من هذه للهرب من صعوبات الحياة ولن تكلفكِ قرشًا واحد.

- الانتحار؟
- الصلاة، لمَ لا تلجأي إلى الله بدلًا من هذه السموم!
- أنا أحافظَ على صلاتي ولست بحاجة لمواعظكِ الدينية.

تجاهلت تسنيم عبارتي الحادة وواصلت الحديث:

- لصلاة التي تؤديها مفروضة عليك، أما الصلاة التي أقصدها لجوء إلى الله دون موعد مسبق ودون إلزام، اعتراف منكِ بضعفك وبقدرته وحده على نجدتك وحل همومك.
- أنا أخجل من أن أشكو إلى الله أمور تافهة كهذه.
- كيف وهو من طلب منا اللجوء إليه والتوكل عليه، الدعاء رأس العبادة ومن لم يسأل الله يغضب عليه، ألا يكفيك أنه قال (ادعوني أستجب لكم)، لو لم نشتكي متاعبنا وأوجاعنا إليَه سبحانه، إلى من سنلجأ إذًا؟

- لم أجرب هذا من قبل.

نظرت إليها بعدم تصديق فقالت:

- جربِ إذًا، ولا تنسي حظي من الدعاء.

- أنا أدعو لكِ أنتِ، أتمزحين!

- ولمَ لا، قد يستجيب اللّٰه منكِ ولا يستجيب لي.

- هل تعتقدي أن صلاتي ستقبل؟

- الصلاة فرض مستقل لا علاقة لها بتقصيرنا.

كانت هذه أول مرة أتحدث فيها مع أحدهم عن بعض الأسئلة التي شغلتني طويلًا هل يعقل أن أكون سيئة مع اللّٰه ثم أتمادى أيضًا وأشكو إليه وأطلب منه المساعدة؟ أي وقاحة هذه؟! لكن تسنيم قالت أن التعامل مع اللّٰه يختلف عن تعاملات البشر وقوانينهم.

أصبحت أصلي أكثر من المعتاد كنت أدعوا اللّٰه كثيرًا بأن أجد عمل، وكنت على يقين بأن ما أريده سيتحقق، وحدث بالفعل رأيت إعلان يطلب عاملين بمقهى مجاور للمعهد، واستفسرت عن طبيعة العمل وأخبرتهم عن خبرتي بعملي في المطاعم، وتم قبولي براتب أعلى مما كنت أتقاضاه في المطعم القديم.

عدت إلى الشقة ومعي الحلوى للاحتفال، كانت تسنيم تجلس بغرفتها مشغولة بكتبها، وانتبهت فزعة على صرخاتي المرحة:

- لقد حصلت على عمل، هل تصدقي هذا؟

- أنتِ تعاملتي مع ملك الملوك ولو طلبتِ أكثر لأعطى لكِ أكثر مما تطلَبين.

تناولنا الغداء وقصصتُ عليها كيف وجدت الإعلان وكيف تم قبولي ببساطة؟

- ما رأيكِ أن نحتفل بطريقة جديدة؟
- هل تودين أن نذهب للاحتفال بالخارج؟
- لا، أريدكِ أن تشاركي أحد المحتاجين بالمال أو الطعام حتى لو كان قليلًا سيكَون عند الله كبيرًا، حتى نؤدي شكر الله على نعمته.

بدأت بتنفيذ الدرس الذي تعلمته على يد تسنيم كنت أتحين الفرصة؛ لأشارك الأخريين بعضًا من مالي وطعامي في ختام كل يوم، للغرابة وجدتُ أن الأشياء تضاعف بشكل مذهل حين نشاركها.

(٣٤)

تعمقت علاقتي بميرال بعد فترة من انتقالها للسكن معي، كنت أتحاشى الحديث معها في البداية بسبب الاختلافات الكثيرة بيننا، كانت طريقة تفكيرها وثيابها تعطي انطباع بأنها فتاة عابثة، فتوقعت أنها ستنفر مني نظرًا لمظهري المحتشم وأسلوبي التقليدي والذي قد يبدو متزمتًا بالنسبة لها لكن الأيام أثبتت خطأ نظرتي.

كنت أستغرب من طريقة تفكيرها التي تعتمد على الإحساس وتتجاهل العقل والماديات، كانت شخصية غامضة تفتقر للاستقرار والاتزان بعكسي فقد كنت حريصة على أن تكون قراراتي نابعة من عقلي ومبنية على الواقع والأدلة، وكنت دائمًا أتجاهل الأمور التي تتعارض مع المنطق.

لهذا كانت تتهمني دائمًا بالجمود والعملية، مع هذا كانت توقظ عقلي دائمًا باسئلتها وحيرتها، تطرح السؤال تلو الآخر ولا تهدأ حتى تصل للإجابة، وبطبيعتي كنت أنجذب للشخصيات التي تدفعني للتفكير والنقاش.

كانت تبدو كطفلة باندفاعها وجرئتها لا شيء يهزمها سوى انعدام خبرتها، كانت تبحث عن من يرشدها دون أن ينتقص من حريتها وكانت تهتم برأيي كثيرًا، وساعدتني ببساطتها، وانطلاقها من الخروج عن نطاق دائرتي.

كنا نقضي معظم الوقت معًا إما في المنزل حيث تتقمص دور خبيرة التجميل وتشاركني وصفات الشعر والبشرة، التي تعدها ثم نضحك

بعدها على فشل وصفتها ونتيجتها الكارثية، أو بالتجوال بين أروقة محلات الثياب التي تعشقها.

لكن عودة حازم إلى حياتها شغلتها عني فباتت تقتسم وقتها بيننا، لم يكن يحزنني غيابها عني بقدر ما كان يشغلني خوفِ الشديد عليها منه، فقد بدا لي شابًا مندفعًا ومستهترًا ومن السهل عليه خداعها.

كان دفاعها المستميت عنه يثير إعجابي لا أدري كيف استطاعت التأقلم مع شخصيته الساخرة وتسلطه الذي بدا واضحًا حين التقيته بحفل ميلاد ميس؟ لا أنكر أنه شاب وسيمًا وشديد الجاذبية لكن سخريته المقيتة كفيلة بدفع الفتيات بعيدًا عنه.

سألتها يومها بعد عودتنا عن قدرتها على تحمل سخريته وانتقاده الدائم لكل شيء، فاتهمتني بأني تسرعت في الحكم عليه، وبأن سخريته هذه ما هي إلا قناع يحمى به نفسه من تطفل الأخريين وأذاهُم، لكنه شخصية صريحة للغاية ولا يعرف الخداع أو التقمّص، ظننتها غارقة في حبه؛ فادعت بأنها لا تصلح للحب ولا تثق بالمشاعر.

(٣٥)

فاجئني تواجد حازم أمام المعهد بعد مُضي شهر على خلافنا تعمدت المرور أمامه وتجاهله، لكنه لحق بي واجبرني على الوقوف بطريقته المعتادة.

- ابتعد عن طريقي وإلا صرخت وجمعت المارة.
- هيا افعليها وسأخبرهم أنى أحاول مصالحة زوجتي المتكبرة.
- ألم تكتفِ بالفضيحة التي تسببت بها بالشركة؟
- دعينا نكمل حديثنا في السيارة إذًا ولا تجبريني على افتعال فضائح جديدة.
- يا اللّه، أي مصيبة تلك التي أوقعتني فيك!

علا صوته مهددًا:

- هيا يا زوجتي الحبيبة.

أدركت أنه لن يغادر بدوني، فذهبت معه مجبرة وصفقت باب سيارته بغضب، فصاح مهددًا:

- ها قد عادت محاولتها لخلع الباب.
- ماذا تريد مني؟

تجاهلني وانطلق حتى وصلنا إلى الطريق السريع المُطل على البحر، كان المكان خالي والسيارات تمر بسرعة رهيبة، ولا مجال للهرب منه لو فكر في إيذائي.

- هل تخطط لاختطافي؟
- أنا أرغب في مصالحتك.
- وأنا لا أرغب في معرفتك من الأساس.
- كفى يا ميرال لم يسبق واضطرني مخلوق للاعتذار فلا تزيدي من صعوبة الأمر.

قالها بنبرة صادقة، تطلعت إليه لأول مرة منذ رأيته اليوم، كان في حالة يرثى لها من الإهمال، نبتت ذقنه ونبئني احمرار عينيه بقلة نومه واستطالت خصلاته السوداء بشكل فوضوي.

- ما فعلته هذه المرة لا يغتفر، من البداية وأنت تراني كساقطة وعا...
- إياكِ أن تكمليها، لقد فقدت السيطرة على غضبي حين رأيتك معه، كنتَ أبحث عنه طوال الشهور الماضية لأنتقم لكِ منه، في حين أنك جلستي معه بكل بساطة.
- لقد أرغمني على الجلوس معه، كنت أتفادى إثارة فضيحة بالشركة وأنتَ فعلتها.
- لقد عاقبت نفسي على ما فعلته بما فيه الكفاية، وحرمت نفسي من رؤياكِ والحديث معك رغم حاجتي المضنية إليك، أنتِ لا تعلمين كيف كان وَقع غيابك عليّ؟
- هل تظن أن هذا يكفى للاعتذار؟
- سأفعل ما يرضيكِ، بشرط أن تنتهي الخصومة بيننا.
- هذه هي المرة الثانية التي تتعمد فيها إهانتي.
- وستكون الأخيرة أعدك.

بدا مختلفًا، شيء فيه تغير، اختفى ذلك الجانب البارد وتلاشت سخريته، كانت عيناه تبوح بحديث طويل لم ينطقه لسانه، لكن فضحته عينيه التي بدت وكأنها تعانقني بلهفة.

- كيف حالك أخبريني؟ ماذا فعلتِ بالفترة الماضية؟
- لاشيء جديد، غارقة ما بين الدراسة والعمل.
- هل التحقتِ بوظيفة جديدة؟
- نعم أعمل بالمقهى المجاور للمعهد.
- لم تعودي بحاجة إليه الآن، دعينا نرتب مواعيد عملك في الشركة لتتوافق مع محاضراتك.
- لن أعود إلى الشركة مهما حدث.

أمسك بيدى وقبلها بإلحاح وسط ذهولي.

- لقد أصبح المكان جحيم من بعدك.

لن أطأ هذا المكان بعد الفضيحة التي سببتها لي هناك.

- حسنًا لا داعي لحضورك، دعيني أرسل إليكِ الملفات، لقد تراكم العمل ولم أجد من تتقن الترجمة بسلوبك.
- لقد اكتفيت من تعليقاتك الساخرة على كل عمل أقوم به.

قال بتوسل:

- سأكتفي بإرسال الملفات فقط ولن أتدخل في عملك، مبارك عودتك للعمل.
- مستبد ومتسلط و...
- لكنه طيب ولا يقوى على هجرك.

كان مرحًا ومنطلق بشكل جنوني لم أعهده فيه من قبل، أصابتني عدوى جنونه فجلست على باب السيارة ودفعت برأسي للخارج وصرنا نُغني ونصيح بجنون، توقفنا أمام محل للكحوليات أحضر بعضًا منها، وتقاسمناها لا أدري كيف فرطت في إقلاعي بسهولة هكذا؟

أخبرني أن هذه هي المرة الأولى التي ينتشى فيها من السعادة، كان كلانا يلجأ للخمور حين يشتد به الوجع والحزن فقط، شعرتُ في ختام اليوم بأني عدت للحياة وللوطن بعد أن عادت علاقتي معه.

«وخُذني إليكَ وخذْ ما شئتَ مِن عُمُري، إلا الرحيلُ فإني لستُ أقواهُ، أنا الغريبُ بأرضٍ لا أراكَ بِها، تظَل رَوحي عِندك وإن بقى جسدي مَعي»

تجاهلت تسنيم الحديث معي بعد أن عدت بنصف وعي، بادلتها التجاهل في البداية، لأني كنت أرى بأنها تتدخل في حياتي الشخصية لكن تراجعت عن موقفي حين تذكرت وقوفها معي في الفترة الماضية.

- أعلم أنكِ غاضبة مني لكن كان الأمر مفاجئ ونسيت قراري من فرط سعادتي.
- أنا لست غاضبة منكَ بل لأجلك، ففي النهاية هذه حياتك وستحاسبين عليها وحدك، لقد كنت أحسب الأيام حتى نحتفل سويًا بمرور شهر على إقلاعك.
- سامحيني، لم أقصد أن أخيب ظنك بهذا الشكل يبدو أنه لا فائدة مني، لقد سبق وأقلعت عشرات المرات، لكن في كل مرة أنسى قراري وأعود بسهولة.
- لم تخبريني بأنكِ تركتِ الخمور من قبل.
- حاولت كثيرًا بعد أن عرفت بشدة عقوبتها وأضرارها.
- اعذريني لم أقصد إحباطك يا ميرا لقد حزنت فقط من سرعة عودتك.
- الأمر قديم لقد كنت أتجرعها كبديل عن المياه حتى أصبحت تجري في دمي.
- يا اللّه كيف وصلتِ لهذه المرحلة، أين كان والديك من كل هذا؟
- دعينا نتجاهل ذكرهم فأنا من جلبت على نفسي هذه اللعنة.

- كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.

- لقد قرأتُ من قبل أني وحدى المسؤولة عن أفعالي، لكن هل تعتقدي بأن هناك أمل في أن أتوقف عنها؟، لا أظن لقد تماديت كثيرًا وأصبحت أشعر بأني أكذب على اللّه، في كل مرة أقف بها بين يديه اصلي واذرف دموع الندم، وما إن أرفع رأسي من صلاتي حتى أعود من جديد، لقد استنفذت توبتي.

- على العكس ياميرال باب التوبة لا يغلق أبدًا مهما انتكستِ وفعلتِ، واللّه لا يمل من توبتنا مهما تكررت، أخبريني ما هي علاقتكِ بحازم هذا؟

- أصدقاء.

- لكن الصديق لا يؤذي صديقه، لقد تسبب في عودتك للخمور.

- حازم يعتني بي دائمًا ولم يؤذيني أبدًا، لقد كان بإمكاني الرفض فلا تتحاملي عليه.

(٣٥)

هناك سحر غريب يجذني إليها، لا تراه عيني لكن روحي تعرفه وتهواه، الهواءِ من حولي يتغير لحظة مجيئها، يصبح أخف وزنًا وأنقى ثم يصير ثقيلًا لا يحتمل عند رحيلها، حتى الأماكن تتسع عند حضورها وتصبح رحبة ثم تضيق بعد رحيلها.

كنت أعلم أن قرب الشديد من ميرال سينتهي بوجع احدُنا، ومع هذا لم أقوى على البعد عَنها، أعياني التفكير في إيجاد حل يبقيها معي دون أن أتسبب في جرِحها، انتهى الأمر بمرضي من شدة التفكير، لا زمت الفراش بفعل الحمى، وغبت عن الوعي معظم الوقت، ظننت في البداية أني أصبت بالبرد لكن الألم فاق الحد، ولم أرغب بإزعاج جدتي فلم تكن تحتمل أن يمسسني أذى فاضطررت للاتصال بميرال.

وافقت ميرال على الحضور بعد تحقيق مطولًا وتهديدًا ووعيدًا لو كنت أدعي بالمرض، استسلمت للنوم بعدها، كان صوتها المرتجف يصلني من عالم آخر وهي ترجوني أن أبقى معها، وكانت لهفتها وقلقها عليّ هو ما يشغلني، فوجئت بنفسي محاط بالمحاليل ولم أقو على رفع رأسي بسبب حالة عدم الاتزان التي أصابتني، ترى أين ميرال من كل هذا؟

علمت من الممرضة بأنهم قاموا باستئصال الزائدة بعد أن وصلت لحالة شديدة من الالتهاب، سألتها عن ميرال وصدمت بأنها أصيبت بنوبة هلع شديدة اضطرتهم لإعطائها مُنوم، انتظرت صحوها في قلق.

(٣٦)

نجحت في تكوين صداقات مع زملائي بالمقهى، كان الجميع يُحسن معاملتي خاصة عمر ذلك الشاب السوري الذي كان يتفنن في كل ما يقوم به بدءًا من الوجبات وإعداد الحلوى والمشروبات.

توطدت علاقتي بروان وتسنيم وتذوقت طعم الصداقة معهم بعد أن كانت علاقاتي تتسم بالسطحية، كانت هناك ثقة متبادلة فيما بيننا وبتنا نتبادل الأسرار والنصح رغم فارق العمر والطباع بيننا.

لاحظت تسنيم شرود روان معظم الوقت فألحت عليها لمعرفة السبب، وعلمنا بأنها معجبة بمعيد لديها لكنها لم تجرؤ على اتخاذ أي خطوة للفت انتباهه، وكان هذا الأمر يشغلها جدًا لأنها أوشكت على إنهاء دراستها ولن تتمكن من رؤياه ثانية.

أدركت من حديثها شدة تعلقها به وبأنها لن تقوى على نسيانه بسهولة، فَـ روان شخصية حساسة وعاطفية للغاية رغم شدة كتمانها وحرصها على إخفاء مشاعرها، لكنها كانت من الأشخاص الحالمين، لذا نصحتها بأن تبادر بلفت انتباهه؛ حتى لا تعلق نفسها بسراب فإما أن يبادر باتخاذ خطوة أو تقلع عن التفكير فيه.

هاجمتني تسنيم بشدة وعارضت فكرتِ وأصرت على أن موقف روان السلبي هو الأفضل، كانت تخشى من أن يقوم هذا المعيد باستغلالها أو يُسيء الظن بها لأنها قامت باتخاذ الخطوة الأولى، ولم تهتم بمشاعر روان التي باتت معلقة بشخص لا يعرف شيئًا عنها.

وضّحت لها وجهة نظري ونصحتها بأن لا تضيع الوقت في الأوهام فإما أن تبادر باتخاذ موقف صريح أو تنهي الأمر وتتوقف عن التفكير فيه.

جزعت روان وصارحتني بأنها حاولت نسيانه طوال أعوام دراستها لكن عوضًا عن هذا ازداد تعلقها به؛ حتى أنها رفضت الارتباط عدة مرات بسببه.

طمأنتها بأنه سيتفهم مبادرتها لو كان جاد ولديه وعي وإما أن يتخذ خطوة للارتباط أو سيعتذر وينتهي الأمر، وبأننا سوف نعرف في حالة إذ كان شخص عابثًا وحاول استغلالها، فعادت تسنيم لمهاجمتي مدعية بأني مندفعة ومجنونة وسأتسبب بإيذاء روان.

أخذت روان جانب تسنيم ورفضت مجرد التلميح له، أدركت أنها خجولة للغاية وأن مشاعرها تسيطر عليها رغم أنها تحاول إظهار العكس فتوقفت عن المحاولة، واكتفيت بالاستماع لتسنيم وهي تخبرنا عن خطبتها وكيف التقت بفارس.

بدت لي علاقتها بخطيبها باردة للغاية، مجرد زيجة مبنية على العقل وحده، وكل ما لفت نظرها إلى خطيبها هو أخلاقه ومستقبله العملي والعلاقة السابقة بين عائلتها وعائلته، لم أستغرب الأمر فتسنيم شخصية عملية للغاية لا شيء يحركها سوى العقل ولا تتقن التعامل من خلال مشاعرها.

بعكس روان التي لم تقوى على إخفاء استنكارها وحاولت أن تقنع تسنيم بألا تتعجل بعقد القِران؛ حتى ترى إن كانت مشاعرها ستتحرك تجاهه أم لا.

هتفت تسنيم بسخرية:

- الحب وهمٌ لا جود له إلا بالأفلام، أما الواقع فلا يعرف سوى التوافقات الاجتماعية والعقلية، والزواج الناجح لا يقوم إلا على العقل والتفاهم، وهذا الأمر متوافر في علاقتي بفارس.

تدخلت بالحديث وأخبرتها بضرورة أن يكون الزواج مبنيًا على توافق العقل والقلب؛ حتى لا يفشل لكنها عادت بسخريتها فأنهينا النقاش.

أرسل لي شقيقي بعد فترة انقطاع طويلة وأخبرني بقرار عودته لقضاء العطلة معي هو وزوجته، استغربت أنه تراجع عن رفضه السابق للعودة.

فوجئت بعد هذه المحادثة بتواصله الدائم معي ولاحظت التغيير الذي طرأ عليه، فلم يعد ذلك الشاب الانطوائي الذي كنت أعرفه، ولم أتخيل يومًا أنه سيتخلى عن تحفظه ويصبح منفتحًا معي بهذا الشكل، حتى انه اعتذر لي عن عدم عودته بعد وفاة والدي، ووعدني بنقل وصايتي من شذى إليه وإعطائي نصيبي من ميراث والدي.

صارحني بعدها بأنه كان يتردد على معالج نفسي لعلاج بعض المشكلات النفسية التي علقت به منذ الصغر بسبب سوء معاملة شذى وقسوة والدنا، وأنه عانى جدًا في بداية علاقته ب(حنان) وكان يجد صعوبة دائمة في الاعتراف بمشاعره فمجرد الحديث معها كان يتطلب منه جهدًا نفسيًا كبيرًا، لذا حاول في البداية أن يكتفي بالعيش معها في عالم الخيال ومراقبتها من بعيد، لكن خوفه من خسارتها وتفكيره المستمر فيها دفعه لمصارحتها بكل شيء، وشجعه حبها له للبحث عن حلّ لدى طبيب نفسي.

كان حبه لها هو أكبر دافع للتغيير، وساندته هي حتى تغلب أخيرًا على معظم المشاكل التي كان يعاني منها وتسببت في انطوائيته، لم أتوقع يومًا أن تصدر هذه الكلمات من لؤي، بدا واضحًا أن الزواج والارتباط كان له تأثير جيد عليه.

ودعته بعدها وذهبت للنوم في وقت متأخرٍ بسبب التفكير بحديثه، واستيقظت مرغمة على اتصال مبكرٍ من حازم:

- ألو ميرال.. استيقظي فورًا، أنا متعب جدًا وأحتاجكِ.
- أين أنت، ماذا حدث؟
- أنا طريح الفراش بفعل الحمى ولم أعد أقوى على الحركة، سأرسل إليك بالعنوان احضري فورًا.
- ماذا لو كانت هذه إحدى مقالبكَ؟
- ليس هذا وقت ظنونكِ السوداء هيا.

يا الله ألم يحلو له المرض سوى في الخامسة صباحًا!، أثارت نبرة صوته قلقي فارتديت ثيابي على عجلٍ وذهبت للعنوان الذي أرسله، كانت بناية شاهقة في حي هادىء، تطل على البحر مباشرة، دلفت إلى المصعد وطلبت الطابق الخمسين كما هو مكتوب برسالته.

هل ضاقت به المدينة حتى يسكن بناطحة السحاب هذه؟ تغلبت على خوفي وحبست أنفاسي وأنا أراقب شاشة المصعد بقلق، وصلت إلى الطابق المنشود ووجدت المفتاح حيث أخبرني.

دخلت إلى الشقة بتردد بعد ضغط طويل على الجرس دون جواب، كان مريضًا للغاية، ولم ينتبه للجلبة ألتي أحدثتها، حاولت إيقاظه فلم يصلني منه سوى همهمات ضعيفة.

كان يرتعش بقوة ووجهه شديد الشحوب والعرق يتصبب منه بغزارة، لا بد من نقله إلى المشفى، عدت إلى مدخل البناية وأيقظت الحارس على عجلٍ، ساعدني على النزول بحازم وانطلقنا إلى المشفى.

(٣٧)

طافت الذكريات بداخلي وأنا أجلس بانتظار خروج حازم من غرفة العمليات، يا الله ما بال الدقائق قد تضاعفت!، لا تقلقي سيكون بخير استجمعي قوتك لأجله لقد وعدتيه بالبقاء معه فلا تخذليه، يا الله ما أشبه الليلة بالبارحة هنا فقدت جميع أحبتِ.. جدي، وجدتي ثم أبي.

توقف عن التفكير لا تستسلمي الآن، ما هذا التشويش كيف عاد الزمان لَلخلف هكذا؟ وكأن ليلة رحيل والدي عادت من جديد، أخبروني في البداية أن الأمر سهل وأنه يحتاج فقط لتركيب دعامة بالقلب، جلست أنتظر خروجه من العمليات كما أنتظر خروج حازم الآن لكنه رحل دون أن يودعني، هل سيغادر حازم ويتركني بعد أن تعلقت به؟

لا.. هذا لن يحدث لقد تعلقت به، ولن يحتمل قلبي رحيل جديد، نعم لهذا سيرحل عني لا أحد يرحل سوى من نحتاج إليهم، زادت ارتجافة قلبي وسرت بأوصالي رعشة حتى وصلت لقدمي فهويت على الأرض من شدة ذعري، لم أعد أميز بين رحيل والدي وبين فكرة فقدان حازم، وتخيلت بأنهم يحملونه بعيدًا عني حيث الغياب الأبدي.

سيكون بخير لأجلي، سيكون بخير لقد وعدني وهو لم يخذلني قط، رحت أرددها في وجه خوفي ووساوسي، لكن صوت شرير بداخلي صدح بقوة بأنهم كاذبون، سيرحل فقط لأني وجدت الأمان معه، هكذا كان يحدث مع جميع من تعلقت بهم.

شعرت بأن رأسي يصطدم بالأرض ويتناثر كقطع صغيرة، وفقدت إحساسي بالمكان من حولي استيقظت ببطء لا أدري كيف نمت؟ لكن

لحسن الحظ وجدت حازم يرقد أمامي على الفراش المقابل، نهضت إليه بلهفة:

- هل عدت أخيرًا، أنتَ بخير أليس كذلك؟

عاد الصوت الشرير يهمس بداخلي ربما كان حلم أو وهم، فحركت أناملي على وجهه وضعت كفي على قلبه وشعرت بأنفاسه وضربات قلبه.

لم يعرف حازم كيف يتصرف أمام فورة مشاعرها، كان مفعول المخدر قد بدأ يزول وكل حركة تبدر عنها تؤلمه ومع هذا تمنى أن يعانقها ويدفع عنها فزعها، إن لم يدفعها الآن بعيدًا عنه سيضمها إلى صدره بقوة ويبقيها بين ذراعيه حتى يتشبع بها ولن يقوى أحد على منعه.

كبت مشاعره وهمس بصوت أجشّ:

- لم أتوقع أن تغاري مني حتى بالمرض.

ضربت الكلمات عقلي، كيف يجرؤ على السخرية مني بعد كل ما عانيته بسببه! همست

- ماذا تقصد؟

- أتركك وأنتِ تقفين على قدميك وأعود لأجدك تحتلي الفراش المجاور لي.

ألجمتني الصدمة وامتقع وجهي من سخافة حديثه فهتفت بغضب:

- أحمق، مخبول.

قطع دخول الممرضة حديثنا أعطتني جرعة مسكن وأخبرتني بما حدث مع ميرال.

- لم تتوقف السيدة زوجتكَ عن البكاء منذ دخولك إلى غرفة العمليات، يبدو أنها شديدة التعلق بكَ لدرجة أصابتها بنوبة هلع.

لا أدري هل أفرح بعد أن تيقنت أخيرًا من مشاعرها تجاهي، أم أفزع من هشاشتها!

- متى سأغادر المشفى؟

- غدًا، لكن عليك الالتزام بالراحة التامة، سيمر عليكَ الطبيب في الصباح.

غادرت الممرضة تاركة ميرال التي كانت تتفحصني بجزع، قطعته حين انتبهت لمراقبتي لها.

- أنتَ بخير إذًا، صار بإمكاني الذهاب الآن.

- وتتركيني هنا وحدي!

- سأتصل بجدتكِ وروان.

صرخت بعصبية زائفة:

- حذاري أن تفعليها، لن تحتمل جدتي رؤيتي هكذا.

- لكن لا يصح أن أبقى هنا، إنهم يعتقدون بأني زوجتكَ.

- ارحلي يا ميرال، لم أعد بحاجة إليكِ.

لم أتمالك الألم فصحت متأوه، اقتربت مني بهلع ووضعت يديها على وجنتي، فقبضت على أناملها بقوة وجذبتها إليّ، انهارت من جديد وعادت للنحيب، اضطربت أنفاسي لقربها الشديد مني، وتاهت شفتاي بين خصلاتها الكثيفة، يا الله! ماذا يحدث معي؟ هل حدث ما كنت أخشاه وسقطت بهواها؟ كان نحيبها يزداد بازدياد عناقي لها.

- كفى يا ميرال، احتفظي ببعض دموعك لجنازتي.

فجذبت نفسها بعيدًا عني، لم أستطع النوم وبقيت أراقبها أثناء نومها، كانت أطرافها تتحرك بقوة وكأنها تتعرض لهجوم، وصوتها يعلو كل فترة بالسب لأشخاص مجهولين، ترى هل يحدث هذا معها دائمًا؟

أفقت في الصباح ولم أكن قد نلت كفايتي من النوم، كيف يمكن للمرء أن يغفو وسط سُباب ميرال؟

ذهبت لتحضر بعض القهوة، ومر الطبيب أثناء غيابها، وطمأنني على حالتي وأخبرني بضرورة الراحة، سألته عن حالة ميرال، فأخبرني أن نوبة الهلع التي أصابتها مجرد عرض؛ يؤكد على وجود اضطرابات لديها وبأن علينا الذهاب إلى طبيب مختصّ حتى لا تتفاقم حالتها فيما بعد.

كنت أخشى عليها من الدخول في دوامة الأطباء التي لا تنتهي، ولم أتوقع أن تضطرب حالتها بهذا الشكل، عادت ومعها كوب القهوة، حاولت جري للحديث لكن شرودي جعلها تلتزم الصمت فانشغلت بقهوتها، رشفت بعضًا منها وبصقته سريعًا.

- ماذا حدث؟

- طعمها يشبه المياه الراكدة .

أضحكتني ردة فعلها وتعبيرات وجهها، فعقدت حاجبيها بغضب وانشغلت بجمع أدويتي بعصبية وحين انتهت أعلنت أن وقت الرحيل قد حان.

- هل تستطيع النهوض بمفردك؟

- أحضري الممرضة إن كنتِ خائفة من الاقتراب يا ميرال.

جذبت الكرسي المتحرك إلى جوار الفراش واقتربت على مضض ومدت لي يديها المرتجفة فاستندت عليها محاولًا النهوض لكن فشلت لشدة ما أشعر به من وجع، فمالت عليّ وطوقتني بذراعيها، يا لها من حمقاء تشعل نيران شوقي دون أن تعي خطورة ما تفعله، تمكنت من النهوض بعد عذاب، اطمأنت على وضعي واستدارت لتدفع الكرسي حتى باب المشفى حيث استقلينا سيارة أجرة.

- حمدًا لله على سلامتك من المؤكد أنك جائع الآن، سأذهب لأعد الطعام.

- انتظري، ناوليني ثيابي من الخزانة؟

- هل ستقوى على تبديلها وحدك.

لم تنتبه لِمَ تفوهت به، فلمعت عينيه بمكر وراقبها بتسلية:

- لن أمانع مساعدتك بالطبع.

زفرت بحنق وتناولت المنامة وقذفتني بها وغادرت.

طفتُ بالشقة بحثًا عن المطبخ ووجدته في الطرف الآخر من المنزل، كان مصممًا على الطراز الأمريكي وبه شرفة تطل على البحر، بهرني تصميمه وتجهيزه الحديث، لم أجد ما يصلح لإعداد الغداء فعدت لغرفة النوم كي أخبره بذهابي للتبضع.

- لماذا لم تكمل ارتداء ثيابك؟

استدار إليّ وهمس من خلال وجعه:

- اشتد الألم في موضع الجرح ولم أقوى على الحركة.

اقتربت منه بحذر، وتجاهلت النظر إليه ومددت يدي لجذب قميص منامته.

- هل ستساعديني وأنتِ مغمضة العينين؟

صحت به:

- كف عن التذمر ولا تتدخل فيما لا يعنيك.

تجهم وجهه حين أخبرته بأني سأعد الغداء وأرحل وصاح حانقًا:

- هل تخافين من طريح فراش لا يقوى على الحركة دون مساعدتك؟ في حين أنكِ أقمتِ مع حقير لشهور طويلة دون قلق.

أشحت بوجهي ولم أعلق فهمس بخجل.

- ميرال لم أقصد سامحيني، أردت أن أخبركِ بأنه لا داعي للخوف مني وأنا في وضعي الحالي.

- اعتذار بشع كالعادة.

وصلني صوت إغلاق باب الشقة، هل فقدت الأمل مني ورحلت؟ ما العمل الآن أنا أكره البقاء بمفردي أثناء المرض، فهذا يجعل الوساوس تستبدّ بي وتحيل مزاجي إلى جحيم، هل أتصل بروان لكنها ستخبر جدتي وتفزعها؟!

على كل حال بقاء ميرال تحت سقف واحد معي شديد الخطورة، لقد انقلب حالي منذ أدركت حقيقة مشاعرها بالمشفى ولم أعد أحتمل القرب منها دون أن أبوح لها بمشاعري!

أي حظ هذا الذي أوقعني بمخلوقة هشة وحساسة مثلها، كيف ستتصرف لو صارحتها بباقي عيوبي؟! حتمًا ستفر مني أو ستنتحر لو بقت معي، لذا عليّ أن أبتعد عنها لكن كيف؟

أفقت على طرقات الباب، ترى من سيأتي الآن.

- حازم..حازم، لقد نسيت مفتاح الشقة!

- أنا من سيقدم على الانتحار بسببها.

وصلت للباب بصعوبة، بادرتني قائلة:

- لماذا تأخرتَ حتى تفتح؟

- كان لدىّ حفل راقص يا ميرال! ستتسببين لي بجلطة.

أسبوع كامل قضته ما بين الذهاب إلى شقتها والبقاء معي طيلة النهار مع إصرارها على قضاء الليل بسيارتي، هل تراها تحاول ردّ رعايتي السابقة لها أم أن ما تفعله نابعًا من قلبها؟

عدت إلى العمل بعد غياب طويل، نبهني الطبيب حين عدت إليه للكشف بضرورة التحكم في عصبيتي وتوتري بعد أن باتت معدتي تعاني من التهاب مزمن بفعل القلق.

كانت حاجتي لرؤياها تزداد وتمنيت أن تعود للعمل في الشركة لتبقى بجواري، فألحيت عليها في العودة مستخدمًا كل وسائلي لإقناعها حتى وافقت، رغم هذا لم أستطع التخلي عن قرار إقصائها عني، لكن كيف سأفعل هذا دون أن أجعلها تتألم؟

(٣٨)

عدت للعمل مع حازم من جديد ولم يتغير وظل يترصد أخطائي ويراقب تصرفاتي بجنون يفقدني صوابي، كان يثور وينفعل عند أقل خطأ، ما دخلي أنا بالإشراف على تنظيم الحفلات أو أجندة مواعيده وحافظة أوراقه! ما دخلي بإعداد قهوته!

وأخيرًا جاءت القشة التي شطرت صبري، حين احتجزني أحدهم بمصعد الشركة وألح عليّ في الذهاب معه ووعدني بهداياه لو أصبحت رفيقته، أعجزني الخوف عن الرد ورحت أتابع شاشة الأرقام بهلع بعد أن قام بالضغط على لوحة الأزرار كلها، شعرت بأني سأظل محتجزة معه للأبد، أنهرت سريعًا وفقدت قدرتي على التنفس.

لا أدري كم مر من الوقت وأنا على هذه الحالة! أفقت على صوت حازم ويديه التي تهزني بعنف، خمنت بأنه عرف ما حدث معى حين شاهدت حارس البناية يمسكً بالقذر الذي احتجزني.

تغيرت معاملة حازم معي بعد هذا الموقف، وأصبح يعاملني بجفاء ولا يفوت فرصة لانتقادي أمام الجميع، كان يصرخ بي لأقل سبب، ويدّعي أنى أتعمد لفت الانتباه إليّ بطريقة ثيابي ونبرة صوتي وبساطتي مع زملائي.

كنت أستمع إليه بخنوع وأنفذ تعليماته دون نقاش، وغيرت من طريقة ثيابي وامتنعت عن الحديث مع الجميع، لكنه تمادى في جنونه، فما أن يرى رأسي مرفوعة عن الملفات المتراصة أمامي حتى يثور، في النهاية

قام بسحب الملفات التي بحوزتي وأصبحت مجرد عاملة بوفية، قدمت استقالتي بعد أن تأكدت بأنه يتعمد إذلالي.

انتهت اختباراتي بشكل مريع كانت المناهج عبارة عن أرقام وحسابات وفشلت في تحصيلها وفهمها، فقمت بحفظ المعادلات بأرقامها ووضعتها في ورقة الإجابة، عدت للعمل في المقهى من جديد كنت أتهرب من التفكير في حازم بشتى الطرق لكن استسلمت في النهاية لمعاناتي بعد أن فشلت في معرفة سبب تغيره معي، فقررت الاتصال به ومواجهته.

- ألو من معي؟

لقد حذف رقمي إذًا.

- ميرال معكَ، كيف حالك؟

أجاب ببرودٍ:

- أرجو أن تكوني بخير.

- هناك سؤال يشغلني.

رد بوجوم:

- تفضلي.

- لماذا تغيرتَ معي؟

- كنت أحاول وضعك على بداية الطريق وانسحبت عندما أيقنت أنك لم تعودي بحاجة إليّ.

- هكذا إذًا!

- نعم، أنتِ تعلمين بأن فارق السن بيننا يمنع وجود صداقة.

أنهيت الاتصال وأنا ألعن نفسي على الوضاعة التي وصلت إليها، لقد كانت علاقته بي قائمة على الشفقة فقط، فمن أين ابتليت بهذا الغباء حتى أتعلق به بهذا الشكل المُهين؟

لكن عن أي صداقة يتحدث ذلك المخبول! هل يُسمى ملاحقته الدائمة لي وإصراره على التدخل في حياتي صداقة؟

فاق وجعي منه قدرتي على الاحتمال ولم أقوى على تحمل الأذى الذي سببه لي، فتناولت مشرط صغيرًا من أدوات تسنيم وبدأت بمعاقبة نفسي كما اعتدت، لكن لم أشعر بتحسن رغم كثرة الجروح التي غطت ساقي، فعدت إلى الشراب والتدخين.

(٤٠)

كنت قاسيًا معها ومع نفسي ونجحت في إبعادها عن حياتي، لكن اتصالها المؤلم بي في منتصف الليل أثار قلقي عليها، كانت المرارة التي تشع من صوتها تمزقني لكن ليس باليد حيلة، ما المنتظر من علاقة تجمع مريض وساوس بمضطربة نفسيًا؟!

حتمًا سيقضي أحدنا على الآخر، لقد فشلت من قبل في الاستمرار بعلاقة مع إنسانة سوية وكنت وقتها أقل جنونًا وأكثر وعيًا، وكانت مشاعري تحت السيطرة فما بالك الآن بعد إن فقدت سيطرتي على قلبي؟

كنت أعلم أن مرضي الأخير كان بسبب تفكيري فيها وقلقي الجنوني عليها، لم يقوى جسدي على الاحتمال فأنهار، كنت أتمنى لو أن هناك طريقة ما تجعلني أنفذ إلى عقلها لأراقب أفكارها دائمًا؛ حتى يهدأ قلقي منها وعليها.

يومًا ما ستدرك قيمة تضحياتي ففي النهاية هي بحاجة إلى يد قوية تنتشلها من اضطرابها وتمنحها الأمان والاستقرار، من أين سيأتي الاستقرار لو ارتبطت بي؟

أعترف بأنها الوحيدة التي استطاعت الحفاظ على تعلقي بها وكان شغفي بها يتضاعف كلما اقتربتُ منها، كان لديها غموض طبيعي ولوع فطري يجعل من الصعب على أي مخلوق أن يمل منها، لكن ماذا عنها؟ سينتهي تعلقها بي تدريجيًا حين تظهر نوبات وساوسي التي زادت حدتها منذ تعلقت بها، وستبقى معي احترامًا لرابطة الزواج، أي من باب العشرة.

لم أقوى على تجاهلها طويلًا وعدت إلى ملاحقتها بعد أن أعياني القلق عليها، كنت أراقبها كل مساء وهي تتنقل داخل المطعم الذي تعمل فيه وابتسامتها البشوشة لا تفارق وجهها الفاتن، وبدا أنها تعافت من غيابي سريعًا، في حين أنَّ غرقي بها يزداد يومًا عن يوم.

كانت تقضي معظم وقتها برفقة شاب أبله تصحبه معها أينما ذهبت وتغرق صفحتها على الفيس بصورها معه، وكلما بحثت عنها لا أجدها إلا برفقته، حتى أنها سمحت له بتأبط ذراعها، لقد جنت وما إن غِبت عنها حتى انجذبت إلى ذاك الأبله.

مراهقة حمقاء جذبتها وسامته وزُرقة عينيه، كنت أعاني في كل مرة أراها فيها معه، ورغم غضبي منها لم أقوى على تجاهلها فحين علمت بظهور نتيجتها ذهبت للاطمئنان عليها، كانت درجاتها صادمة، أين كان عقلها لحظة الاختبارات؟

ذهبت للمطعم الذي تعمل فيه ولمحتها قادمة من بعيد فلحقت بها، كنت أنوي الحديث معها بهدوء، لكن رؤيتي لهذا الأحمق الذي كان يجلس في انتظارها برفقة فتاتين أثارت غضبي، هل باتت تقدمه لصديقاتها؟ إلى أي مدى وصلت علاقتهما؟

- هذا الأحمق هو سر رسوبك أليس كذلك؟

نظرت إليّ بوجوم ودهشة، ثم بدأت هجومها.

- وما شأنك أنتَ بحياتي، ابتعد عن طريقي.
- لماذا؟ هه حتى تتسلي برفقته، ما إن أزحتيني عن طريقكِ حتى ذهبتِ إلى غيري.
- ما دخلك أنتَ بمن أصاحب أو مع من أذهب؟
- دخلي أنكِ غبية لا تتوقف عن اجتذاب الحمقى لحياتها، كنت أظن أنكِ تعلمتَي من درسكِ الأول.

دفعتني في تجاهل آثار جنوني.

- هل أنتِ على عجلة للقائه؟

جُنت وعلى صوتها بالسب وهي تضربني بقبضتها الصغيرة وتركُلني بقدميها، أتت صديقتيها على صوت صراخها وفوجئت أن شقيقتي كانت بينهما، حاولت روان السيطرة عليها.

- ماذا فعلت بها يا حازم؟

غطى صراخ ميرال على صوت روان:

- أنتَ حقير وقذر تتفنن بإيذاء من حولك.

قالتها من بين شهقاتها.

- هذا الحقير لم يتجرأ على الاقتراب من أي فتاة منذ ظهرتي في حياته، كان غارقًا في التفكير فيكِ طوال الفترة الماضية في حين أنك لم تضيعي فرصة الصرمحة مع كل عابر.

- حازم هل جننت كيف تتحدث معها هكذا؟

نجحت الفتاة الأخرى في إبعاد ميرال التي أنهكها الغضب.

- ماذا تفعلين مع هذا الأبله أنتِ الأخرى

ظهر ذلك الشاب واتجه نحوي بعنجهية.

- هذا شقيق ميرال يا حازم.

وكأن أحدهم سكب دلو ماء فوق رأسي فجأة، تسّمرت في مكاني واتجهت عيناي حيث تقف ميرال وفي عينيها نظرة توعد لم أرها من قبل.

- لماذا لم تخبرني ميرال بهذا منذ البداية؟

صاحت بي روان:

- ولماذا تخبركَ، ألم تنسحب بعيدًا عنها؟

- هل أخبرتكِ بما حدث؟
- وهل أنا بحاجة لمن يخبرني بطباعك وطريقتك في الهرب؟

قاطع لؤي شجارنا:

- يكفي فضائح، هيا لنجلس في مكان آخر.
- لن أجلس مع هذا الحقير في مكانٍ واحد.
- هذا لا يليق بكِ يا ميرال، ألم يكن ما حدث سوء تفاهم؟
- لا هذا هو طبعه دائمًا.

هتف لؤي بإصرار:

- هيا يا ميرال كفى فضائح.

دعوتهم إلى سيارتي، جلس لؤي بجواري ودخلت ميرال بالغصب إلى المقعد الخلفي.

- كنت أتمنى أن نتعرف بطريقة أفضل من هذه.
- ها هو يتهرب من الاعتذار كعادته مغرور، أحمق.
- ميرال أصمتي فورًا.
- دعها يا لؤي، هكذا عرفتها سليطة اللسان دائمًا.
- كيف تجرؤ على إهانتي بوجود شقيقي؟

صاحت روان:

- كفى، انتبه للطريق يا حازم ودعها وشأنها.

وصلنا إلى مقهى هادىء يطل على البحر، غادرت ميرال بحجة الوقوف بقرب البحر وتبعتها حنان وروان، وجلست بالداخل مع لؤي.

- ماذا فعلت لتخرج جنونها بهذا الشكل؟

أخبرته باختصار عمَّ دار بيننا منذ اللقاء الأول حتى الآن، فسألني:

- أنتَ تحبها إذًا؟

- ما أشعر به نحوها يفوق الحب، لقد أدمنت عيوبها قبل مميزاتها وأعرف كيف أحتويها.

- لكنكَ تخليتَ عنها أكثر من مرة.

- كنت أظن أن غيابي عنها هو الأفضل لها، لكن كنت مخطئًا ووجدت من الأفضل أن نبقى معًا، وأحاول السيطرة على مشاكلي الخاصة.

- ما هي مشاكلك؟

- لديّ مشكلة في التعامل مع المقربين مني بسبب خوفي الدائم من فقدهم، وخشيت من أن لا تحتمل رغبتي الزائدة في حمايتها وتظنها مجرد رغبة في السيطرة عليها.

- وكيف نضمن أن هذا لن يحدث؟

- سأصارحها بمعاناتي ولها الحق بالاختيار، لكن هل يمكن أن تقبل بزواجي منها؟

وجدت الجرأة لطلبها للزواج منه، بعد أن كدت أموت قهرًا لمجرد ظهورها معه كانت لحظة تهور، واندفاع ربما؛ لكنها كانت أهم خطوة اتخذتها لصالح علاقتي بها.

رفع حاجبه بتساؤل:

- هل تتوقع موافقتي بعد كل ما أخبرتني به؟

- ميرال تحتاج لمن يحتويها، ومن الصعب أن تجد من يضحي من أجل مصلحتها مثلما فعلت.

صمت ثم تابع بعد تفكير:

- لكن ارتباطكَ بها الآن سيعيق دراستها.

- سأؤجل زواجنا حتى تُنهي الدراسة.

- حسنًا دعني أفكر، لكن لا أظن بأن ميرال ستوافق.

- ما يهمني الآن هو رأيك.

كانت ميرال في الخارج تصيح بحدة بعد أن حاولت روان الدفاع عن حازم:

- لعنة اللّه على أخيكِ الأحمق، لقد تخلى عني بعد أن علمته كيف يضحك بصخب ويصيح بمرح دون تحفز أو خجل، جعلته يغوص بتفاصيل الأشياء ويستمتع بالحياة، لقد هجرني لأني اخترقت قناعه الجليدي.

- امنحيه فرصة أخيرة، لقد تغير كثيرًا لأجلكِ وكلنا نعلم أنه يعشقكِ، لكن ما ذنبه في نوبات الجنون التي تصيبه فَجأة!

- كان لديّ عقدة خذلان وعدم ثقة مثله لكن إصراره على البقاء معي جعلني أقاوم لأجله.

- لقد تألم لغيابكِ كثيرًا، سامحيه هذه المرة، هداكِ اللّه.

- أخيكِ لديه إلحاد بالعلاقات والزواج.

قالتها ومضت هاربة من مواجهته بعد أن أقسمت على أن لا تلين مهما فعل، عادت حنان وروان إلى المقهى في اللحظة التي كنت أنتظر فيها قرار لؤي في زواجي.

- أين ميرال؟

- ذهبت للعمل.

قضيت النهار بصحبة لؤي وزوجته وعدت في المساء للمقهى الذي تعمل به، كانت تقف بصحبة شاب وسيم يتحدث بلهجة شامية، هل بات عليّ الشجار بسببها صباح مساء، ترى ماذا يقول لها لتمنحه ضحكتها بهذا السخاء؟

اتجهت إليها وهي تهمّ بالرحيل، ما إن رأتني حتى صاحت بانفعال:

- أي مصيبة رمت بك في طريقي؟
- عشقي لكِ هو ما حملني إليك.
- اذهب عني وإلا صرخت وفضحتك.
- هيا افعليها، هذا محل عملكِ والفضيحة ستكون من نصيبك وحدك.

عاد الشاب الذي كان معها مسرعًا.

- ميرال شو صار معكِ هالزلمة بيتعرض إلك؟
- أنا بخير يا عمر لا تقلق.

استدارت لتبتعد فلحقتُ بها.

- هيا إلى السيارة قبل أن أضطر لتحطيم رأسه، لم يعد ينقصني سوى شباب الشام أيضًا.

سارت إلى السيارة وصفعت الباب بقوة كعادتها في استفزازي.

- حاسس إنو أيامي معاكي راح تكون سودا متل عيونك.
- بدي إياك تكون متأكد مو بس حاسس.
- موافق على شرط أن تصفحي عني.
- هذه هي المرة الثالثة التي تهينني فيها، كنت تتعمد إزاحتي عن طريقك بأبشع الطرق دون سبب، كان من الأفضل لو أنكَ طلبت مني الرحيل صراحة دون أن تُعرضني لهذه المهانة، ليس هناك فائدة حتى من الكلام معك.

همست بخفوت:

- أليس لديك فضول لمعرفة سبب تغيري الأخير معك؟
- لم يعد الأمر يعنيني مجرد أحمق مغرور ظن أنه تملكني وأني سألهث خلفه وعندما فشلت توقعاته عاد ليخدعني.

- قد أكون أحمقًا ومجنونًا وكل السبابات الأخرى التي يمتلىء بها قاموسك لكن لست بهذه الحقارة حتى أفعل ما صوره لكِ خيالك الآن.

حاولتْ فتح باب السيارة ففشلت وانهالت عليّ بقبضتها حتى فقدت قدرتي على القيادة.

- هيا استمري دعينا نموت معًا، ليس هناك أفضل من تلك النهاية.

توقفت عن الصراخ والضرب وسكنت تمامًا.

- أنا أحبك يا ميرال ولا حيلة لي في هذا، حبي لكِ يخرج أسوأ ما بداخلي وهذا ما جعلني أدفعكِ بعيدًا عني، كنت أَحميكِ من جنوني بعد أن صرت متيمًا بكِ.

نظرت إلىّ بعينين متسعتان عن آخرهما وفم مفتوح.

- لقد أفزعني ما حدث لكِ بالمشفى وخشيت أن أفقدك بعد أن تغلغلتِ بداخلي وتذوقت نكهة الحياة معكِ، فجزعت أمام مخاوفي واستسلمت لها.

- لقد واصلت بدوني لأيام وشهور وبإمكانك أن تستمر للأبد لأني لن أعود لك.

- كان قرارًا أحمقًا وكان من الصعب علىّ مصارحتك بتلك الأشياء.

- حازم توقف الآن، ستتسبب في مقتلنا بقيادتك المجنونة هذه.

لم أنتبه لتحذيرها.

- كنت أُفضل الموت على أن أبدو أمامكِ بهذا الضعف، لا تتخيلي كيف كانت معاناتي وأنا أنتزع نفسي عنكِ.

- سنموت الآن لتستريح مني ومن جنونك.

- قولي بأنك سامحتيني إذًا.

- سامحتكَ.
- ما رأيكِ في الزواج بي؟
- يا اللّٰه ما هذه المصيبة التي حلّت على رأسي؟!
- هل صار حبي لكِ مصيبة؟
- نعم من يوم أن التقيتك والمصائب تنهال على رأسي.
- لا عليكِ بالمصائب، فعشقك لي كارثة بحد ذاته وقد تمت بحمد اللّٰه.
- الحمدللّٰه الذي لا يحمد على مكروه سواه يا حازم، اتنيل.
- تنيلت منذ رأيتك.
- ما الذي غير حالك هكذا! ألم تقل أن أي علاقة بيننا ستنتهي بكارثة؟
- لم أعتد الهرب يومًا يا ميرال، وعلاقتي بكِ تستحق الصبر فتحمليني حتى لو فشلت.
- لكن أنت شديد الشك وأنا..
- هششش ربما أكون شديد الغيرة والتملك لكن لم أشك فيكِ أبدًا.
- بدليل معايرتك الدائمة بإقامتي بمنزل وليد؟
- هذه طريقتي بالدفاع عن نفسي حين أتألم، أتعمد إلقاء العبارات المؤذية بوجه من أحبهم.
- صريح إلى حد الوقاحة، لكن اطمئن فأنت تجيد ما تفعله.
- لا داعي للسخرية، هذه أحد عيوبي وقد اعترفت بها وهذه فضيلة تحتسب لصالحي.
- وهجومك على لؤي وعمر؟
- هذه غيرة، لقد خشيت أن تنجذبي إلى أحدهما.
- لا أرى فائدة من المحاولة فمجرد وجودنا في مكان واحد يخرج أسوأ ما فينا، أنتَ تدفعني للجنون بملاحظاتك المستمرة.

صحت بها وقد ألمني فقدانها الأمل في علاقتنا.

- وأنتِ تدفعيني للغضب بلا مبالاتك المستفزة واندفاعك نحو الآخرين.
- أرأيت، ستفشل علاقتنا قبل أن تبدأ.
- ربما من جهتك، لكن من جهتي سأتعلم النظر إلى مميزاتك المدهشة والتغاضي عن عيوبك المثيرة، رغم أن هذا يتناقض مع رغبتي الجنونية في الوصول بنفسي وبكِ للكمال، أما أنتِ فربما يكون الأمر تافه لديكِ ولا يستحق المحاولة.
- أنا لا أصلح للارتباطات، العلاقات تشعرني بوحشة تدفعني للهرب.
- لكن هذا لم يحدث معي لقد تحملتي جنوني ولم تتهربي مني، إذًا فلنؤجل الارتباط حتى تنتهي من دراستك، وعلى ذكر دراستك أخبريني بحق الله كيف استطعتي الوصولَ إلى هذه الدرجة من الفشل؟
- هذا لا يسمى فشل، هذا سوء تقدير من جانب المصححين.
- لم أصدق عند سماعي درجاتكِ، فذهبت لأراها بنفسي وصدمتني كميات الكعك الموضوعة أمام اسمك، هذا ليس عيد الكعك يا ميرال.
- أردتُ أن أستعد للعيد مبكرًا.
- ها هي تفقع مرارتي.

أطلقت ضحكة عالية أعادتني للحياة بعد طول غياب.

- أنا لا أجيد التعامل مع الحسابات، ولم أتخيل أن أواجه هذا الكم الضخم من الأرقام، كنت أجلس بالمحاضرة بفم مفتوح وعقل مغلق ومع هذا لم أفقد الأمل لقد حفظت أرقام المعادلات ووضعتها بالاختبار لكن لا أدري ماذا حدث؟
- وضعتِ ماذا يا مخ البسلة؟ كيف تفتق ذهنك عن هذا الحل العبقري؟

(٤١)

كانت تسنيم في انتظاري عاتبتني بنظراتها، ونبرتها المتبرمة سألتني عن سر الهاتف المغلق، أخبرتها أن المجنون حازم أصرّ على أن ننفصل عن العالم لنحتفل، هاجمته كعادتها وأسمعتني ما لذ وطاب من المواعظ ثم أخبرتني عن بحث لؤي عني وقلقه عليّ.

هاتفت لؤي واعتذرت له لكنه ظل يحادثني بالتقتير واحتفظ بنبرة صوته المنزعجة، تدخلت حنان وأخذت منه الهاتف متسائلة:

- تصالحتما إذًا؟
- لقد نجح في خداعي ككل مرة.
- ما أجمل هذا الخداع الذي جعلكِ سعيدة بهذا الشكل، أنتِ تُحبيه أليس كذلك؟
- أنا لا أصلح للحب.
- سأتغاضى عن التعليق الآن، لكن يكفي أن تعلمي بأنه يعشقكِ.

لم يتركني حازم ليلتها وظل معي على الهاتف حتى الصباح، فذهب إلى عمله متذمرًا واستسلمت للنوم لكن مجيء لؤي أيقظني، أمضينا اليوم على الشاطئ وسألني عن علاقتي بحازم وعلمت منه أنه طلبني للزواج، بدا لؤي معجب بشخصية حازم وبقدرته على مواجهة أخطاؤه، لكنه كان يخشى من تقلباته.

علقت حنان:

- بالتأكيد هناك سبب لتقلباته فلا يعقل أن يكون ولد هكذا.

صاح لؤي:

- ها قد بدأت جلسة التحليل النفسي.
- أظن أن هذا يرجع إلى انفصال والديه وتخليهما عنه في صغره.
- أرايت هذا وحده سبب كافي لتصرفاته.

هتف لؤي:

- كثيرين فقدوا ذويهم بطريقة ما ومع هذا استمروا في الحياة بشكل طبيعي.
- ردة فعل كل شخص تختلف عن الآخر.
- هل تقصدين أن ما حدث لحازم هو السبب في تقلباته معي؟
- بالتأكيد يا ميرال لقد ترك بداخله قناعة أن العلاقات والمشاعر تجلب الخذلان والهجر، لذا كان يبتعد عنكِ ليحمي نفسه، هل لديكِ استعداد لتحمله ومساعدته؟
- المشكلة ليست في حازم وحده أنا لا أصلح للعلاقات.

سألتني حنان:

- لمَ ترفضين الارتباط؟
- لَا أحد سيتحملني في لحظات فقداني السيطرة على نفسي.
- على العكس حازم من النوع الصبور ولن يتخلى عنكِ بسهولة.

غادر لؤي لرؤية المحامي الذي سيتولى قضايا الميراث، وواصلت الحديث مع حنان.

- كيف استطعتي التأثير على لؤي بهذا الشكل لقد ظننت أنه حالة ميؤوس منها؟
- لم يكن الأمر بتلك السهولة، لقد كان يواجه صعوبة في التعامل مع مشاعره، وكنت أعاني من عدم ثقتي بنفسي.

- ما سبب فقدانكِ الثقة بنفسك؟

- نشأت في عائلة عملية وقاسية إلى حد ما كانت والدتي تقارن بيني وبين أقراني ولم تكن المقارنة لصالحي، حتى فقدت ثقتي بنفسي وتأثرت شخصيتي، وتطور الأمر للخوف الدائم من الرفض، وأوقعني انعدام ثقتي بنفسي في زيجة بشعة.

- يا الله كيف تخطيتِ كل هذا؟

- وجدتُ بالصدفة كتاب يحكي عن معاناة شبيهه لمعاناتي من خلال تجربة حقيقية، تواصلت مع الكاتبة وذهبت إليها وبدأت معها رحلة العلاج.

سألتها بفضول:

- كيف كانت رحلت علاجكِ؟

- كانت صعبة في بدايتها، وجهت صعوبة في مواجهة مشكلتي، وفي التخلي عن بعض الأشخاص لتسببهم في ترسيخ هذه المشاعر بداخلي، لكن وجود لؤي ساعدني في تخطي مشاكلي النفسية سريعًا، بتقبله الدائم لي، كنت أنصحه أحيانًا بأن يجد فتاة أخرى مقاربة له بالعمر وليس لديها نفس ظروفِ، وكان يجيبني أنه لن يجد من تحتويه بأسلوبها وطريقة تعاملها معه كما فعلت.

- لم أفهم ما الذي أعجبه في أسلوبكِ تحديدًا؟

- اسأليه.

- أعتذر لم أقصد الإساءة، استغربت أنه التفت لأسلوبكِ فقط مع أنك رائعة وجذابة للغاية.

أبتسمتُ بخجل، وواصلت:

- أخبرني أنه معجب بقدرتي على التسامح وبصبري الدائم على عيوبه، بإمكان المعاملة الطيبة أن تساعد الآخرين على مواجهة مخاوفهم والتغلب عليها يا ميرا.

- مهما كانت هذه المخاوف؟

- نعم الاهتمام النابع عن القلب بإمكانه أن يداوي الندبات النفسية التي نعاني منها، لكن الأمر يحتاج إلى صبر، بإمكان قطرة الماء أن تترك أثر في أشد الجبال صلابة بالاستمرار والصبر.

- ليت الجميع يملكون مثل إحساسك.

- لماذا ننتظر دائمًا أن يقدم لنا الآخرين الاهتمام والحب لما لا نبادر بالعطاء دون مقابل؟! أخبريني بصراحة ما الذي يخيفك من الارتباط؟

- أنا لا أجيد التعبير عن مشاعري وستظهر حتمًا بشكل سيء.

- إذًا تعلمي التعبير عنها بشكل صحيح، لكن لا تقمعيها، في النهاية لا يمكن للإنسان أن يعيش دون حب وزواج.

- الزواج أمر مفزع يبدأ بالحب والاهتمام وينتهي بالجفاء.

- العيب ليس بالزواج إذًا، بل بأطراف الزواج.

- أنتِ رائعة يا حنان، ولديكِ حل لكل مشكلة.

(٤٣)

لا أدري كيف سأترك ميرال وحيدة بعد كل ما عرفته عن معاناتها في الشهور الماضية؟ ألحيت عليها في العودة معي واستكمال دراستها هناك لكنها رفضت، كنت أعلم أنها لا تتراجع عن قراراتها حتى لو أمطرت السماء حجارة.

فلم أجد حل سوى الموافقة على خطبتها لحازم حتى تبقى تحت رعايته، اتفقت معه على التفاصيل، ودعانا إلى منزله لنتعرف بعائلته، وعدتني جدته بأنها ستعتني بها وتعاملها كابنتها حتى تسلمها إلى زوجها سواء كان حازم أو شاب غيره.

لكن كانت تقلباتها المزاجية حادة بشكل كبير، تثير قلقي فأحيانًا كانت تبدو قوية ومقبلة على الحياة ثم تتحول فجأة لشخصية سوداوية وشكاكة، كان من المستحيل أن يُخرج المنزل الذي تربينا فيه أشخاصًا أسوياء، وكانت ميرال أكثر المتضررين لحقد والدتي عليها وهوس والدي بها.

لكنها كانت تجيد إخفاء معانتها عن الجميع حتى ظننت أنها تخطت الأمر، لكن فوجئت بقناعتها التي ظهرت أثناء حديثها مع حنان، فضلت يومها التظاهر بالنوم واكتفيت بمتابعة حديثهما.

- هل أخبركِ لؤي كيف كان الوضع في منزلنا؟
- أخبرني بالقليل لكن أودّ معرفة الوضع من وجهة نظرك.

- كان أشبه بالحروب الأهلية كوكتيل حادًا من السادية والقسوة، اختار لؤي العزلة وأخذت مرام صف والدتي، وحاولت البقاء على الحياد لكن فشلت، فقد كانت شذى ترفض وجودي من الأساس، حاول والدي التخفيف عني لكنه انتقى أكثر الطرق فشلًا ومع هذا يكفيني أنه حاول.

كنت أعاني دائمًا من افتقاري للثقة بالآخريين وعدم قدرتي على التعاطف معهم، ليس من المنطقي أن أعاني بسبب غيري!

- التعاطف مشاركة وجدانية لا تتطلب المعاناة، مجرد المشاعر والكلمات الصادقة تكفي، نحن نستمد قوتنا من دعم المقربين لنا.
- وكيف أثق بأنهم لن يستغلوا دعمي بشكل يؤذيني؟
- الأذى لا يأتي إلا حين ننتظر الحصول على مقابل، فنتألم حين لا نجد الثناء.
- لم أفكر بهذه الطريقة من قبل، لقد اعتدت أن لكل شيء ثمن حتى الجمال له ضريبة، فجميع من التقيتهم كانوا يتقربون مني بسبب جمالي.
- ربما كان لديكِ شيء أعمق من الجمال الظاهري يجذب النفوس إليكِ.
- لا أظن هذا، يبدو أن شذى معها حق فأنا لا أملك سوى جمال ظاهري.
- لو كان منطق والدتك سليم فلماذا لم تنجح في كسب محبة والدكِ إذًا؟
- لا أدري، أظن بأني أفتقد لمعيار الحكم على الأخريين وأخشى أن أمنح ثقتي لأحدهم فيخذلني.
- استفت قلبك إذًا، لقد منحنا الله القدرة على التمييز عبر إحساسنا، الأمر يَشبه البوصلة، هناك تفاصيل بسيطة يمكنها أن تساعدكِ مثل الاهتمام والأفعال وأسلوب الحديث عنكِ في غيابكِ.

- معكِ حق لقد وجدت هذا مع حازم، طريقته في الإنصات إليّ، اهتمامه بالتفاصيل التي تخصني، كل هذه الأمور دفعتني إلى الثقة به، وتكرر هذا مع تسنيم وروان.

- أرى أنكِ لا تحتاجين للمساعدة فلديكِ معيار جيد للحكم على الأشياء.

- كيف استطعتِ الإقدام على الحب والزواج دون خوف؟

- عندما أيقنت بأني وجدت الشخص المناسب.

سألتها ميرال بشك:

- هل أذاكِ لؤي أو أساء إليكِ؟

- أحيانًا بدون قصد، لكن كان يتدارك الأمر، أنا أيضًا أسأت إليه عدة مرات دون قصد، الحب يا ميرال امتزاج شخصين معًا بقناعتهم وطبائعهم المختلفة، لهذا تحدث الخلافات بينهم حتى يتألف كل منهما على الآخر ويمتزج به.

ظهر أمامي قلة خبرتها، كيف ستقوى على مواجهة الحياة وحيدة، وخشيت من أن يتخلى حازم عنها.

(٤٣)

كانت هذه هي أول مرة أعيش فيها بمفردي بعد أن سافرت تسنيم لقضاء العطلة مع عائلتها، وباتت روان تتجاهلني بعد خطبتها وتتهرب من لقائي وانشغل حازم في مناقشة رسالة الدكتوراة، كنت أقضي معظم الوقت في العمل، مع هذا فشلت محاولاتي في التغلب على وحدتي، أصبحت أبكي كثيرًا دون سبب، يا الله ما سر هذا الوجع!

أنهى لؤي إجراءات نقل الوصاية وقام بفتح حساب بنكي لتغطية نفقاتي حتى يحين موعد استلام ميراثي، تجاهلت الأمر وقررت الاستمرار في عملي؛ حتى تعلم شذى أني نجحت في الاعتماد على نفسي.

التقيت بحازم بعد فترة غياب طويلة.

- هل فكرتِ في أمر دراستكِ؟
- سأعيد اختبار المواد التي رسبت فيها وأكمل الدراسة.
- لمَ لا تبحثي عن معهد يناسب مؤهلك عوضًا عن المحاولة في مجال تكرهيه؟
- لأني لن أجد عمل لو التحقت بتخصصي.
- هذه حجج واهية، ابحثِ إذًا عن معهد للغات والترجمة.
- بحثت ولم أجد معهد يقبل بمؤهلي الدراسي.
- إذًا كُفي عن العبث واهتمي بدراستكِ عوضًا عن الصرمحة اليومية مع تسنيم وروان.

- من أين ستأتي الصرمحة؟ تسنيم غادرت المدينة منذ بداية العطلة وشقيقتك اختفت منذ خطبتها.

- لماذا لم تخبريني بسفر تسنيم؟ ستذهبين للإقامة عند جدتي حتى عودة صديقتك.

- أنا سعيدة بسكني ولن أتركه.

رماني بنظرة تحذير أجبرتني على الصمت.

- لن أسمح لكِ بالبقاء بمفردكِ فهذا الحقير يبحث عنكِ الآن ولا أضمن ما سيفعله.

- عن أي حقير تتحدث؟

- زوج شقيقتكَ.

- من أخبرك بهذا؟

- اتصل بي لؤي اليوم وأخبرني أن المحامي أبلغه بصدور حكم نقل الوصاية وحذره من ردة فعل عائلتك، بالمناسبة استعدي للقائهم بالجلسة القادمة.

سرت بداخلي رجفة لا إرادية.

- لا أرغب في رؤيتهم.

- لا تقلقي سنذهب سويًا لننهي تلك المسألة.

عدنا إلى شقتي واتصلت بلؤي أخبرته بإصرار حازم على إقامتي مع جدته، فوافق وطلب مني عدم الذهاب إلى أي مكان دون علم حازم حتى تنتهي هذه المسألة وأخبرني بأنه تلقى تهديد من شذى بسبب قضية تبديد التركة التي رفعها ضدها.

رحبت جدته بعودتي واستقبلتني بمودة ردت عني بعض الوحشة التي لازمتني في الأيام الأخيرة، وحيتني روان ببرود أثار حيرتي.

تدهورت حالتي المزاجية مع قرب موعد الجلسة وبدأ الخوف يتسرب إليّ مما قد يفعله خالد، فوجئت بحازم يطلب مني الاستعداد كي نذهب لعقد قراننا، ذكرته باتفاقنا على تأجيل الزواج فأخبرني بأنه حلّ مؤقت اتفق عليه مع شقيقي حتى تنتهي مسألة الميراث والمشاكل.

- ماذا لو رفضت فسخ العقد بعدها؟

- كيف دار بعقلكِ أني قد أرغمكِ على الاستمرار في الزواج مني رغمًا عنكِ، إما أن نستمر معًا بإرادتكِ أو لا، هذا مجرد إجراء مؤقتًا حتى تكوني تحت رعايتي.

- لماذا لا أبقى تحت رعايتكَ دون زواج؟

- وبأي صفة سأظهر أمام عائلتكِ وأتدخل بينكم!

(٤٤)

استلمنا محضر بالدعوى التي أقامها لؤي لسحب وصاية ميرال وتقسيم التركة، وأبلغنا المحامي الذي وكله خالد أن الحكم لن يكون لصالحنا بعد أن علم بأن والدي طلق والدتي قبل وفاته وأسقط حقها بالميراث.

تم تحديد جلسة تقسيم التركة، كان حضور ميرال للجلسة هو الفرصة الأخيرة للحفاظ على حق والدتي، فليس من العدل أن تطرد والدتي من المنزل وتحرم من الميراث فيما تحظى هذه اللعينة بكل شيء، كنت متفائلة وتخيلت أن بإمكان خالد إعادتها إلى المنزل وتزويجها من شقيقه.

ذهبنا للجلسة صباح ذلك اليوم المشؤوم لكنها تأخرت عن الموعد حتى ظننت أنها لن تأتي، اقتحم المحامي الغرفة ومعه ميرال بفتنتها ودلالها، وبصحبتها شابًا أنيقًا، جلست ميرال أمامنا، ورفعت ساق فوق أخرى دون أن تهتم بفستانها القصير، وجلس الشاب بجوارها ويداه تحتضن يديها، لم يرفع خالد عينيه عنها وحاول أن يتدخل لمعرفة صلتها بهذا الشاب، لكن والدتي منعته لحين انتهاء الجلسة.

تقدم المحامي ببلاغ عدم تعرض حرره زوج ميرال ضد خالد، قاطعته بذهول:

- ميرال لم تتزوج وما زالت تحت وصايتنا.

هتفت ميرال بتحدي:

- لقد تزوجتُ وتم نقل وصايتي إلى شقيقي يا مرام.

علق الشاب ببرود:

- معذرة لقد تم الأمر سريعًا ولم نتمكن من دعوتكم.

- كيف تجرؤين على الزواج دون علم أهلك؟

- عن أي أهل تتحدثين؟ ليس لدى أهل سوى شقيقي، وزواجي تم بموافقته.

فقد خالد أعصابه ونهض متوعدًا:

- أهذا هو الحقير الذي شجعك على الهرب طمعًا في ميراثكِ؟

قفز حازم من مكانه وجذب خالد من سترته:

- الزم حدودكَ وإياكَ أن تتجرأ على الحديث مع زوجتي ثانية.

تدخلت والدتي في الحديث:

- كفى يا خالد هذا ليس وقته.

حضر قاضي النزاع وذهبت معظم التركة إلى ميرال ولؤي بما فيها المنزل، بعد أن اضطررت للتنازل عن نصيبي لسداد ما أنفقته والدتي من نصيب ميرال، ولم يتبقى لي سوى صيدلية صغيرة والشقة التي أقيم بها أنا وخالد.

لكن ميرال لم تكتفي بما حصلت عليه وأفصحت عن الوديعة التي تركها يامن قبل مرضه، واتهمت والدتي بسرقتها، واتهمتنا بسرقة ذهبها وسيارتها الخاصة، لا أدري من أين أتت بتلك الجرأة والحقارة؟

صدر قرار بإخلاء المنزل وغادرنا القاعة في صدمة، لقد حدث ما كنا نخشاه، لم يتمالك خالد أعصابه وهجم على ميرال وحازم.

- لو كان شقيقكِ رجل لما تركك مع شاب غريب ولاذ بالفرار.

صفعته ميرال وأمطرته بألفاظها القذرة وتهجم زوجها عليه ولم يوقفه سوى تدخل المحيطين.

جلست شذى منهكة بعد عودتنا للمنزل، وفقد خالد السيطرة على غضبه كان يحطم كل ما تطاله يده فهربت من أمامه، وانشغلت بجمع أشياءنا، ظل الوضع مرعبًا حتى أتى الصباح ومعه مجيء ميرال، قرعت الباب وتخطتني وهي تجذب زوجها البغيض خلفها..

همست متفاخرة:

- ما رأيك بمنزلي؟ رائع أليس كذلك، لا أصدق أنني عدتُ إليه أخيرًا.

كان يراقبها في انبهار عجزت عن فهمه، لا أدري كيف استطاعت أن تسحره بهذا الشكل؟! لكن ما العجب لقد كانت تتفنن في جذب الجميع إليها وحتمًا لم تدخر جهدها معه.

وقف يتفحص غرفتها بإعجاب وأثنى على ذوقها في اختيار الألوان والأثاث، لم أحتمل ما يحدث فانسحبت وتركتهم. عادت ميرال إلى الصالون وجلست بمواجهة والدتي، كانت ترتدي فستان قطني بلون المشمش يظهر انحناءات جسدها المثير، لا أدري منذ متى أصبحت تهتم بارتداء الفساتين؟ لم تتمالك والدتي نفسها.

- هذا الشاب الذي تركتي عائلتكِ وهربتي من أجله سيمل منكِ قريبًا بعد أن يجردك من ميراثك ويكتفي من بضاعتك الكاسدة.

أطالت النظر إلى والدتي باحتقار:

- معكِ حق في أن تفكري بهذه الطريقة لأنك فعلتي هذا مع والدي واحتلتي عليه من أجل المال فقط، كما فعلها ابن شقيقتكِ من بعدكِ طمعًا في ميراث مرام الحمقاء لكن هذا لا يعني أن الجميع مثلك.

صحت بغضب:

- إياكِ أن تتحدثي عن زوجي.

- أي نطع هذا الذي يترك زوجته ليراقص شقيقتها بمثل هذا الشغف؟.

صاحت بها والدتي، لكنها تجاهلتها:

- أنتِ النسخة الأقذر من شذى لقد اخترتي الزواج بمن اعتدى على طفولة شقيقتك.

- هل يعلم زوجك أن حظه أوقعه بسليطة لسان مثلك، سيفيق من سكرته قريبًا ويلفظك.

دخل زوجها وأحاطها بذراعيه، وعلق ببرود:

- لقد كان الحظ كريمًا معي حين جمعني بحبيبتي، بالمناسبة أين زوجكِ هل تعافى من ضربات الأمس بعد؟

قاطعته والدتي:

- أنتَ لا تدري بأي مصيبة أوقعت نفسك، هذه مجنونة وأخيها مختل.

- أعرف الآن سبب رفض لؤي للمجيء إلى هذا المستنقع.

لم يظهر خالد إلا في المساء لحمل الحقائب وأصرّ على بقاء والدتي بمنزل عائلتها.

عدنا للمنزل وبدأ الشجار:

- أخبريني ماذا أفعل بعد أن رحلت شقيقتكِ بكامل التركة، ماذا فعلت ليوقعني حظِ في قبيحة مثلك، بل ماذا فعلَ هو ليحظى بها هكذا بكل سهولة؟

لأول مرة وأتتني الجرأة للرد عليه:

- يكفيه أنه لم يكن وغدًا مثلك وأنه يعاملها كالأميرات.

رماني بنظرة توعد وفك حزام بنطاله ومزق ثيابي وهو يسبني بأقذر الألفاظ، ثم جرني خلفه إلى غرفة النوم التي شهدت ساديته معى. كان يستمتع بكل صرخة مع كل جلدة يهوى بها على جسدي بحزامه العريض، وزاد بكائي من نشوته، لم يترك موضع بجسدي إلا ومزقه ثم أنهى الأمر باعتدائه عليّ، انتهت حفلة التعذيب قرب الفجر.

كنت أعرف أني تسببت لنفسي بهذا الوضع، ظننت أني سوف أحقق انتصارًا على ميرال بزواجي من خالد الشغوف بها، تدهورت صحة والدتي بسبب الصدمة التي تعرضت لها على يد ميرال، مع هذا ظلت تردد أن زوجها واقع تحت سحرها وأنه سيلفظها قريبًا، وستعود إليها زاحفة، ولم تتوقف عن الدفاع عن خالد رغم أثار تعذيبه لي الواضحة، كانت تردد أن هذا انتقام اللّه من يامن بسبب ما فعله بها.

لا أدري كيف نست أني ابنتها وأنها كانت السبب في قسوة والدي عليها، بسبب سوء معاملتها لميرال، لكن ماذا فعلت أنا لخالد حتى يعاملني كجارية، ويستولي على ميراثي؟ انتقلنا للعيش مع والدتي بعد أن باع خالد شقتنا.

لقد نجت ميرال بنفسها وعلقت أنا بين السندان والمطرقة، وأتتني الشجاعة أخيرًا واتصلت بلؤي وطلبت مساعدته، لكنه رفض وأنهى الاتصال بتشفي:

- كل ساقي يُسقى بما سقى يا مرام، لم أتوقع أن تقتص عدالة السماء منكِ بهذه السرعة.

لم ينسى لؤي وشيّاتِ به عند شذى، وسخريتي منه، ولم أتخيل وقتها أن ذاكرة الزمان لا تغفلَ عن شيء مما فعلناه مهما كان صغيرًا!

(٤٥)

صارحني لؤى بما تعرضت له ميرال في طفولتها، وصدمت بما أخبرني به، كنت أظن أنها مجرد خلافات عائلية، أدركتُ الآن سر دفاعها الدائم عن والدها، لقد كان الوحيد الذي ساندها وانتقم لها، لم أجد تعليقًا مناسبًا للرد على لؤي فصمت، وأساء فهم صمتي.

- بإمكانك الانسحاب الآن.

- كيف تخيلت أني سأتخلى عنها، كل ما في الأمر أن ما تحكيه صادمًا ومؤلمًا.

- لذا أخبرتك حتى لا تغتر بقوتها الظاهرية، فهي مجرد قناع تخفي به خوفها وهشاشتها، وربما لا تزال بحاجة لتأهيل نفسي حتى تتقبل فكرة الزواج.

- تأكد بأني لم أعرضها لما يفوق احتمالها.

جرت الأحداث سريعًا بعد سفر لؤي، وتم تحديد موعد لجلسة الميراث، وعقدت قراني على ميرال وذهبنا بعدها للشاطئ، كانت هادئة بعكس جسدها المرتجف.

- هل تشعرين بالبرد؟

- أبدًا، الجو لا زال دافئًا.

- ما الأمر إذًا، هل أنتِ نادمة على ارتباطكِ بي؟

همست بانكسار:

- لا، لكن لا أرغب في تواجدك معي غدًا، أعلم أنهم لن يفوتوا فرصة مضايقتي بكلماتهم السامة وحتمًا سينالك بعضها منها، ما ذنبكَ أنتَ في هذه المصائب؟ منذ التقينا وأنا أبليك بمشاكلي وكأني لعنة حلت على رأسك.

- لا عليكِ فقريبًا سأدهشك بمصائبي، المهم أن لا تتخلي عني وقتها.

ذهبنا للجلسة في صباح اليوم وبدأت حفلة إهانتهم لها منذ لحظة وصولنا لكنها كانت ترد الإهانة بأضعافها، ربما في وضع غير هذا كنت سأراها بذيئة تتطاول على أمها، لكن شذى لم تكن أم أبدًا ولا ترقى لتلك المكانة، انتهت المهزلة بعد أن استنفذت كامل طاقتنا.

لم تقوى على إخفاء حزنها وظلت على صمتها، أعلم أن وجعها لم يكن من إهاناتهم وحقدهم عليها بقدر ما كان بسبب وجودي ومشاهدتي لما حدث، جلست ساهمة بمجرد وصولها للفندق، وظننت بأنها ستنهار بالبكاء كعادتها، لكن ظلت على حالها حتى المساء.

كنت أشعر بالعجز أمام حزنها وكلما اقتربت منها ضاعت الكلمات مني، أعلم أن أي كلمة مواساة ستبدر مني الآن ستظنها شفقة.

أفاقت من وجومها وذهبت إلى الحمام فظننت أنها عادت لإيذاء نفسها من جديد، ولم أجد أمامي سوى الحديث معها كل فترة حتى أطمئن أنها بخير، خرجت بعد فترة وأخذت ركن للصلاة، كنت أراقبها بدهشة فهذه أول مرة أراها تصلي.

- حازم، لماذا قبلت بالزواج مني؟

باغتتني بسؤالها.

- إياكِ أن تظني ولو لحظة أنه كان من باب الشفقة.

قلتها وأنا أقترب منها فانتظرت إلى أن جلست وعادت للحديث:

- حازم أنا سألتك لماذا تزوجت بي ولم تجبني؟

- لأني أحببتك يا ميرال منذ اللحظة التي رأيتكِ فيها.

- هل تظن أن هذا الحب يستحق أن تتحمل لأجله كل ما حدث؟

- وجودك معي يستحق الكثير، وأعدكِ أن أجعل زواجنا ناجحًا مهما كلف الأمر لكن أحتاج لمساعدتك.

- مساعدتي أنا!

- نعم فنجاح العلاقة يعتمد علينا معًا، سأتحمل الجزء الأكبر لكن ساعديني وصارحيني بكل ما يدور بعقلك، ثوري، اغضبي مني، دعينا نتعارك لكن لا تهجريني.

أطالت النظر إليّ بشك.

- أعدك لن أخذلك يا ميرال، فقط ثقي بي.

- حازم هناك أمر لا بد أن تعرفه أولاً.

- ما هو؟

- محاولة اعتداء وليد لم تكن الأولى لقد سبقه خالد حين كنت صغيرة.

اضطربت أنفاسها وسكنت بينما تقاوم دمعة تحجرت في عينيها، اقتربت منها وضممتها إلى صدري بقوة فبكت بصمت، أخيرًا رفعت رأسها هامسة بصوت مبحوح:

- لا أدري أيهما يؤلم أكثر، اعتداء خالد أم خذلان شذى ومرام؟

- سننتهي من كل هذا غدًا ونبدأ معًا صفحة جديدة نداوي فيها ما مر بنا من وجع.

عادت للنحيب فضممتها إلى قلبي، كانت كل دمعة منها تذكرني بذلك الطفل الصغير الذي كنته يوم أن جلست أنتحب في يأس بعد أن فشلت توسلاتي في إقناع والدتي باصطحابي معها، كان الفارق أن ميرال وجدت

السند من والدها أما أنا فلم أجد من والدي سوى الجفاء والقسوة، ترى كيف ستشفى أرواحنا مما علق بها؟

- أجلي البكاء يا ميرال فأمامنا العمر كله، ولا أريد أن نذهب إليهم غدًا بعينين منتفختين.

ابتعدت عني ورمقتني بغضب.

- دائمًا تتفوق على نفسك في استفزازي.
- ورغم هذا وقعتي في عشقي.
- مغرور.
- من حقي أن أغتر لأنك معي.

تناولت القليل من الطعام ودلفت إلى الفراش بعد أن اطمأنت لنومي على الأريكة المقابلة وأرشدتني إلى منزل والدها في صباح اليوم التالي، وانتهينا من الإجراءات بعد أن استنفذت صبري، لم أرى من قبل امرأة تكن كل هذا الحقد لأبنتها!

- والآن ماذا سنفعل؟
- سنحتفل بذكرى مولدك.
- كيف عرفتي بموعده؟
- لديّ طرقي الخاصة، هيا لأريك دراجتي البخارية.

جذبتني من يدي إلى أسفل البناية حيث تقبع سيارتها المكشوفة بجوار دراجتها البخارية الضخمة، قفزت فوقها وصاحت متحمسة هيا تعال لا تضيع الوقت.

- ميرال عاهديني أن لا نصبح أشلاء صغيرة متناثرة على جانب الطريق؟
- أعدك أن تظل قطعة واحدة.

- قطعة واحدة على قيد الحياة أم ...

ضاعت كلماتي في الهواء بعد أن انطلقت كالسهم تطوي الأرض خلفها،استطعت التحكم بأعصابي لدقائق وانطلقت بالصياح بعدها بعجز:

- ميرال الأطفاااااال، القطة، الأتوووووبيس يا ميرال سنموووووت دعيه يمر أرجوكِ.

- كفّ عن الخوف أوشكنا على الوصول.

- معك حق سنصل إلى حتفنا بأسرع طريقة.

كانت جولة رائعة رغم جنونها، تناولنا الغداء في مطعم شهير، واصطحبتني بعدها إلى محل حلوى صغير يقدم حلويات رائعة، كانت تأكل بشهية وحماس لم أرها من قبل، ما إن ننتهي من مكان حتى تنطلق للآخر، وكأنها عادت للحياة فجأة

ذهبنا إلى نادي رقص قوطِ الطراز، كان الصخب والزحام هو الميزة الأساسية للمكان، كانت على معرفة بالجميع هناك، ولم يتوقف الترحيب بها منذ وصلنا، قدمتني إلى أصدقائها، وقفزت الى حلبة الرقص مع رفيقاتها، كان الجميع يتحرك بسرعة وجنون وكانت هي الأخف والأسرع بينهم، لم أطق البقاء طويلًا وشعرتُ أني سأصاب بالصمم لو بقينا أكثر من هذا.

وصلنا إلى الفندق حزمت حقيبتها وأصرت على السفر في منتصف الليل.

(٤٦)

كنت سعيدة بشكل يفوق الوصف، وأردت أن أحتفل باسترداد حقي من شذى وبعقد قراني، هاتفت لؤي وزففت إليه الأخبار وكأنه لم يكن على علم بها لكن رده المقتضب أسكتني.

بحثت عن من يشاركني حماستي هاتفت تسنيم وجدت جوالها مغلقًا، سأبدو سخيفة لو اتصلت بروان وأنا على وشك لقائها بعد قليل، لم أتمالك الفكرة التي ضربت رأسي، نعم هو الوحيد القادر على مشاركتي وحماستي، اتصلت به، كان تركيزه منصبًا على القيادة.

- أجيبِ يا ميرا، ربما تكون جدتي.

تجاهلته، فتناول الهاتف وتفاجىء بأني المتصلة.

- ميرال هاتفك يطلبني أوقفيه.

- لم لا تجيب؟ هيا.

جاراني في جنوني.

- حازم آسفة لو أيقظتك لكن لديّ ما يستحق الاحتفال.

- ماذا حدث؟

- لقد عقدت قراني على أفضل شاب في العالم واستردت حقي بميراث أبي.

قلتها بجنون ومرح، توقف عن القيادة وضمني إليه بقوة:

- مبارك على قلبي وجودك بحياتي.

أخجلني عناقه المفاجئ فهتفت:

- إن لم نتحرك الآن ستلتقطنا دورية المرور.
- ها قد عادت هادمة اللذات، أخبريني لماذا كنتِ واجمة طوال الوقت؟ لقد جعلتيني أظن بأنك مرغمة على الزواج مني.
- كان الأمر مفاجئًا وكنت مرتبكة وخائفة، ظننت أنك تفعل هذا رغمًا عنكَ.

عاد للقيادة وسألني:

- لماذا كنتِ خائفة؟
- من انطباعك عني بعد رؤيتك لعائلتي.
- لا دخل لي بعائلتك كل ما يهمني هو أنتِ فقط، فمنذ لقائكِ وقلبي يصر على الوصول إليكِ.
- هل يعقل هذا! ظننت بأنك تكرهني من النظرة الأولى، وحين التقينا بعدها أيقنت بأنك لا تطيق البقاء قربي.
- أخبرك سرًا؟ لقد دفعني جنوني بكِ للبحث خلفك، فتتبعت أخبارك وعلمت بخلافك مع عائلتك، لذا لم يصدمني لقاءنا الساحر بهم، غدًا نحتفل بعقد قراننا.
- دعنا نكتفي بإعلان الخطبة فقط حتى يحين موعد الزفاف.
- هل سيشكل هذا فارق؟
- نعم فالناس تفسد الأمور دائمًا، دعنا نحتفل بالأمر مع عائلتك فقط.
- لكِ ما أردتِ، لكن لدينا حديث طويل الليلة، فإياكِ أن تفكري في النَوم.

أدار بعدها قصائده العربية التي لا أستوعب حرفًا منها وراح يغني معها:

«أصابك عشق أم رميت بأسهم؟!، أيا داعيًا بذكر العامرية بأنني أغار عليها من فم المتكلم، أغار عليهَا من أبيها وأمها إذا حدثاها بالكلام المغمغمِ، وأحسد كَاساتَ تقبلن ثغرها إذا وضعتها موضع اللثم في الفمِ»

كانت عيناه تلتفت إليّ بين لحظة وأخرى ويداه تعانق أناملي بتملك محبب.

وصلنا إلى المنزل في الصباح، كانت جدته في استقبالنا، عانقتني بقوة وكأني غبتُ عنها دهرًا لا يومين، فهمست لها بخجل:

- لقد قررنا أن يستمر عقد قراننا.

باركتني بسعادة وضمتني إليها بفرح، قطع دخول روان حديثنا:

- مساء الخير يا روان كيف حالكِ؟

ردت موبخة:

- تقصدين صباح الخير.
- لقد تأخرنا بالعودة.
- هذا أمر لا يعنيني.
- لماذا تغيرت معاملتِك معي يا روان؟
- لا شأن لي بكِ.

ضايقني أسلوبها لكن أردت معرفة سبب تغيرها معي.

- هل أنتِ غاضبة مني؟

علا صوتها بحدة وهي ترميني بنظرة احتقار صريحة:

- لا أريد أن تجمعني أي علاقة بكِ، يكفي المشاكل التي تسببتي بها.
- عن ماذا تتحدثين؟
- أتحدث عن ثيابك الفجة، وطريقة حديثك الجريئة مع الجميع في حفل خطبتي.

- كنتِ على علم بنمط ثيابي ومع هذا أصريتي على حضوري.

كان حازم في طريقه إلى غرفته لكنه عاد غاضبًا من حديث روان.

- ماذا سأنتظر من فتاة سمحت لنفسها بالسفر مع شاب غريب عنها والمبيت معه؟!

- هذه الفتاة التي تتحدثين عنها زوجتي يا روان هانم.

- زوجتكَ هكذا دون عقد أو ولي او إشهار، أي زيجة هذه كيف وصلتما لهذا الحد؟

هوت يد حازم على وجه روان بغضب وجذبها من شعرها، أفقتُ من صدمتي ووقفت بينهما، وحاولت تخليصها من بين يدي حازم الغاضب، توسلته كي يتركها.

- هذا ليس كلامها هذا كلام خطيبها المحترم ذو الحسب والنسب.

- خطيبي هذا أفضل منك.

جذبها حازم من شعرها ودفعني بعيدًا عنها، وفشلت جدته في زحزحته عنها.

- والله سأترك لكَ المنزل لو رفعت يدكَ عليها ثانية يا حازم.

- افعليها لأكسر رأسك ورأسها، والله يا روان لأنهي خطبتكِ اللعينة هذه لو تعرضتي لميرال ثانية.

انتهت المشاجرة بعد معاناة وعادت روان إلى غرفتها وأغلقتها خلفها، وفشلت في إقناعها بالسماح لي بالدخول، وانطلقت جدة حازم إلى المطبخ تعد المبخرة وتشعل الفحم والبخور؛ لتطرد عين الحسود عنا وفق ظنها، فذهبت خلف حازم إلى الشرفة.

(٤٧)

كان يجلس في الظلام ينفث دخان سيجارته في غضب ويهز ساقيه بعصبية، جلستُ في المقعد المقابل له ورحت أتأمله في حذرٍ.

صاح فجأة:

- ماذا؟

- لا شيء، أشمّ الهواء فقط.

- كفّ عن النظر إليّ هكذا، لم يسبق وأن رفعت يدي عليها لكنها تمادت في حماقتها بسبب المتخلف خطيبها وأفكاره السوداء.

- أنا على يقين من أنها لم تقصد ما قالته، لا بد وأن هناك ما يضايقها.

- أصبحتِ تدافعين عنها الآن، ثم من أين أتيتِ بهذه الحكمة؟

- من عند عم عبدو البقال، لديه عروض رائعة يا ظريف.

- ها قد عادت خفيفة الظل من جديد.

- لنتحدث بجدية، منذ فترة وأنا ألاحظ تغيّر روان، لقد أصبحت منطوية وتتجنب الحديث مع الجميع حتى سوسو.

- سوسو ستحرق المنزل ببخورها، لا أدري ما دخل العين والحسد بحماقة حفيدتها التي أفسدت علينا احتفالنا!

- احتفالنا لم يبدأ بعد أم أنك تتهرب؟!

- كيف تودين الاحتفال إذًا؟

- سنعد غدًا عشاءً يليق بالخبر، ولا تنسى الاتصال بخطيب روان ودعوته هو وعائلته.

- ما دخل هذا الأحمق بنا؟
- أنا على يقين أن ما حدث الليلة من تحت رأس مازن هذا، دعنا نرى كيف يتعامل مع روان.
- كل طلباتكِ الليلة مُجابة، هل نبدأ سهرتنا؟

أومأت برأسها موافقة، فبدأت:

- لكل علاقة قواعد تسير عليها حتى تنجح، دعينا نتفق الآن على الأشياء الأساسية بعلاقتنا.
- حسنًا.
- هذا الحديث كنت أؤجله دائمًا خوفًا من أن تسيء فهمي، أنا أحبك كبضعة من نفسي وقد اعتدت أن أعتني بمن أحبهم، كل ما أريده منك هو أن تتجنبي لفت الأنظار إليك، يكفيني أنك جميلة بشكل يقطِع الأنفاس ولم أكن أنوي الوقوع بفاتنة مثلك حتى لا تقتلني غيرتي عليها.
- هل فعلت ما يجذب الأنظار؟
- فعلناه سويًا على سبيل المثال تلك الليلة التي اصطحبتك فيها للرقص كانت الأنظار تتبعك، وكدت أجن يومها، وتكرر هذا بخطبة روان لكن أجلت الحديث وقتَها.
- المطلوب أن أتوقف عن الرقص إذًا؟
- بالطبع لا، أرغب فقط بأن أكون جمهورك الوحيد، الآن دورك ما الذي رأيتيه مني ولم يعجبك؟
- أتمنى أن نقلع عن الكحوليات تمامًا مهما كان حجم الألم الذي نمر به.
- أعاهدك رغم صعوبة الأمر، لكن عاهديني أن تبقي معي ولا تضطريني للعودة إليها.

- أعاهدكَ أن أبقى معكَ دائمًا حتى في لحظات الوحشة والعتمة.

- اتفقنا، هل هناك أمر آخر؟

- ما رأيك بأن نهرب إلى الصلاة حين يهاجمنا الحزن والوحشة، فالأرواح تهدأ بالصلاة وتستكين حين تتصل باللّه.

- لن أعدكِ بهذا، فعلاقتي باللّه سيئة للغاية.

- ليس أكثر مني، لكن دعنا نصلحها معًا، فلن أستطيع إكمال هذه الخطوة بدونك.

- هل ستصبرين عليّ؟

- نعم، سنضبط مواقيت الصلوات على هواتفنا حتى لا ننسى، الآن جاء دورك.

- لا تدخين منذ هذه اللحظة.

- اتفقنا.

- رائع.. هل أخبرتك بأني أعشقك؟

- نعم، لكن لا بأس من التكرار.

- دورك الآن.

- أريدك أن تصارحني بوساوسك حتى لو كانت مجرد شكوك وأوهام أريد أن أشاركَك كل شيء.

- لن تحتملي هذا الجحيم من الأفكار السوداء، أحيانًا تتكرر الفكرة في رأسي عشرات المرات في اللحظة الواحدة، ولا أملك القدرة على التحكم فيها رغم يقيني بأنها أوهام.

- ما حاجتك لي في النور إن لم تجدني معك في لحظات العتمة والجنون!

- هل لي أن أطالبك بالأمر نفسه، أود أن أعرف كل شيء يدور بداخلك مهما كان حتى لو فكرتي في مخلوق غيري صارحيني، صراحتكِ معي ستخفف من حدة وساوسي.

- أنا لا أجيد البوح بمشاعري لكن سأحاول لأجلك، فساعدني ولا تجعلني أشعر بالعجز لفشلي في شرح ما يدور بذهني.

- امنحيني إشارة.. أفهم بها ما يحدث معك، عبّري عن ما يؤلمك حتى لو بالصراخ أو بالسبّ، تخلي عن صمتك لأنه يزيد من حدة أفكاري السوداء.

- كيف لاحظت صمتي؟

- أول أمس عندما عدنا من الجلسة اللعينة وغرقتي في صمتك، تملكتْ وساوسي مني وتوقعت أنك ستنفضين يداكِ عني، وفي اليوم التالي حين ذهبنا للاحتفال بذكرى مولدي فسرتها على أنها لحظات الوداع، حتى الساعة التي أهديتيني إياها توقعت أنها آخر تذكار يصلني منكِ.

بح صوته وعاد إليه شعوره بالاختناق.

- يا اللّه لماذا لم تخبرني بكل هذا؟

- هل كنت ستبقين حينها شفقة بي أم لرغبتك في البقاء معي، توقعت أن الصباح سيأتي بدونكِ حين أصريتي على العودة في منتصف الليل، لذا صدمني جنونكَ المفاجىء أثناء عودتنا، كنت كمن ينتظر تنفيذ حكم الإعدام.

- لقد ذكروا أن هناك فيض من المشاعر السلبية الناتجة عن فرط القلق والخوف لكن لم أتخيل أن يكون الأمر بهذا الشكل.

- عن ماذا تتحدثين؟

- لقد بحثت عن الوسواس القهري حتى أعرف ما الذي يدور في رأسك.

- يا اللّه كيف تفتق ذهنك عن معرفة ما أعاني منه؟

- أنتَ أخبرتني عدة مرات بأن لديكَ وساوس، ما الذي يخيفك مني بهذا الشكل؟

- أخشى من قدرتكِ على التخلي عني، ففي كل مرة غبت فيها عنك كنت أتمنى أن يكونَ حبك لي كافيًا للحد الذي تحاولين معه استردادي بأي شكل، ماذا عنكَ ما الذي يخيفكَ مني؟

- قناع السخرية البارد الذي ترتديه فوق حمم مشاعرك، لديك قدرة مدهشة على إخفاء ما يحدث بداخلك!

كان يخيفه أنها تجيد التخلي عنه في أشد لحظات تعلقها به، وكانت تخشى من قدرته على كبح مشاعره رغم حاجته المضنية للبوح.

- عاهديني أن لا تفلتي يداي مهما حدث وأعدكِ أن أنزع عني قناع البرود، لكن لا أعدكِ بالتخلي عن سخريتي وأظَن أنكِ أدمنتيها.

- لا أعلم أي حظ هذا الذي أوقعني بمغرور مثلك!

- أنا ممتن جدًا لهذا الحظ الذي وضعك بطريقي، هل جربتِ الدخول في علاقات من قبل؟

- نعم.

- هل يمكن أن نتحدث عن الأمر أرغب بمعرفة كل شيء عنك.

أطرقت بخجل فاسترسل:

- لا يعنيني ما فعلتيه في الماضي أرغب فقط بمعرفتك، سأبدأ بنفسي.

كانت علاقاتي سطحية دائمًا مجرد لقاءات عابرة تنتهي بالملل، كنت أبدأ التعارف بقصد الصداقة لكن الأمر كان يتحول إلى منحنى آخر بفضل اهتمامي بأدق التفاصيل، كنت أصاب بالملل بعد معرفة كل ما يتعلق بالفتاة التي أوقعها حظها معي، فأرحل وأودعها دون سبب، لم أتعمد بالتأكيد أن يحدث هذا.

- هل هذا يعني أنكَ لم تعرف الحب من قبل؟

لم أجد من تتقبل التناقض الشديد في شخصيتي، لكن اختلف الأمر حين التقيتكِ وأدركت أن كل ما مضى كان عبثًا، أنا لا أؤمن بوجود توأم

الروح ومثل هذه الأشياء، لكن لديّ يقين بأن الأضداد تنجذب وتتألف وهذا ما حدث معنا، كنت أنفر في البداية من الهالة الساحرة المحيطة بكِ والتي تجذب الجميع إليكِ، ودفعك بحثي عن الكمال وسخريتي للنفور مني في البداية، لكن رغم هذا كان لديكِ ما يكفي من الصبر لاستيعابي وتحملي وكان لديّ شغف رهيب تجاهكِ؛ دفعني للسعي خلفك.

راحت عينيها تحتويه بانبهار ودهشة وكأنه الرجل الأوحد في عالمها، فاحتوت عينيه دهشتها في حنان.

- - أظن أن دوري حان الآن.. كنت مشهورة بعلاقاتي السريعة والمتعددة، أطول علاقة استمرت معي ثلاثة أيام، وكان من المفترض أن تنتهي قبل هذا لو لا أن هاتفه كان مغلقًا، كنت أجد نفسي عالقة في عدة علاقات معًا هذا رفيقي من النادي وآخر من المدرسة وثالث عبر الإنترنت، كنت أشعر بفراغ رهيب رغم كثرة أصدقائي، وظننت أني سأجد في العلاقات ما يملأ هذا الفراغ، لكن حدث العكس، وزاد شعوري بالوحدة والغربة ولم أجد من يفهمني.

- لقد حققتي رقم قياسي في سرعة إنهاء العلاقة، كم كان عمرك وقتها؟

- كنت في الثالثة عشر.

- ألم يكن الأمر مبكر جدًا؟

- كان هذا هو المعتاد بين أصدقائي.

حاول ضبط أعصابه وهو يسمعها لقد كانت تتعامل مع العلاقات كمسكنات للوحدة، يا الله أين كان لؤي من كل هذا لو كانت شقيقته لما تركها تلجأ إلى الغرباء بحثًا عن الرفقة والأمان.

- كم واحد أخبرتيه عن حبكِ؟

شعرت بالإهانة من سؤاله فهتفت بسخط

- واحد فقط جالسًا أمامي الآن، أنا لا أجامل في مشاعري.

- لم أقصد مضايقتك لكن رغمًا عني تخيلتك تبحثين عن من يملأ وحشتك.

- لم أبحث عن أحد كانوا يلتصقون بي أينما ذهبت حتى أني كنت أتعمد إيذائهم كي ينصرفوا عني لكن دون جدوى، كان يحركهم جنون الرغبة في امتلاك الفتاة الجميلة التي تلفت الأنظار أينما ذهبت، تمامًا مثلما فعل وليد.

- لا زلت أتسأل لماذا وافقتي على الارتباط بي؟

- لأنكَ ظهرت في حياتي بعد أن فقدت الأمل في وجود من يلتفت إلى شخصيتي وعقلي لم أراكَ يومًا تلتفت إلى جسدي بتلك النظرة التي أراها في أعينِ الجميع، كنت تتحدث معي بجدية ولم تحاول لفت انتباهي إليكَ، كنت تهتم بأن تغيرني للأفضل، كنت أعتقد بأنكَ تهزأ مني في البداية لكن فهمتكَ مؤخرًا.

- أحمد الله أني جئت في الوقت المناسب مع أن الأمر تأخر، كان من المفترض أن نلتقي من البداية حتى أجنبك كل هذا.

- لقد جاء لقاءنا في الوقت المناسب، لو كنت التقيتك مبكرًا لما أدركت قيمتك وشدة احتياجي إليكِ ولم أكن لأحتمل نقدكِ ونصائحك، ولو التقيتني مبكرًا لما احتملت جنوني.

تأملها بافتتان أهذه هي الفتاة السطحية التي التقاها بالعام الماضي، كيف أصبحت بهذا الوعي؟!

قطعت الصمت بتثاؤب:

- سأذهب إلى النوم لم أعد أقوى على السهر أكثر من هذا.

- بخصوص النوم ذكرتيني نحن بحاجة للذهاب إلى طبيب نفسي، فنوبات الفزع التي تهاجمك عند النوم لا يمكن السكوت عنها.

- وهل شكوت إليكَ أنا بخير ولن أُعّرض حياتي أمام غريب ليعاملني ببرود ويلقي إليّ بحفنة حبوب ومهدئات.
- سنذهب معًا إلى مختص ونبحث لديه عن حل لمشاكلنا، علينا أن ننتهي من مشاكل الماضي حتى نمضي في حياتنا دون تعب.
- اذهب بمفردك إذًا.
- بل ستأتين معي وتخبريه بما يحدث معكِ أيضًا.
- هل تظن أن هناك علاج للتشوهات النفسية التي علقت بنا؟ كل ما هنالك انه سينصحك بنسيان الماضي ويرمي إليك بحفنة أقراص مهدئة، لكن ليس هناك شفاء، لقد اختبرت الأمر من قبل ودار بي والدي على الأطباء بلا جدوى.
- العلاج النفسي تقدم الآن دعينا نجرب.
- جرب وحدك فلن أضيع المزيد من عمري في العبث، تصبح على خير أنتَ تجيد إفساد اللحظات السعيدة.

وقف مذهولًا من ثورتها المفاجئة وهجومها الضاري عليه، كان يظن أنها سترحب بخضوعه للعلاج حتى تنتهي مشكلاتها معه أي جنون هذا الذي أصابها وجعلها تفسد السهرة!

(٤٨)

غرقت في البكاء والنحيب بعد ما حدث بيني وبين حازم، لم يسبق ورفع يداه عليّ، كان يعاملني دائمًا كابنته لكنه فعلها الليلة وتمادى في الأمر، كنت أعرف أن مازن هو السبب الحقيقي فيما وصلت إليه الآن فمنذ تمت خطبتنا، وهو يعايرني بعائلتي وبشقيقي، وينتقد علاقتي بميرال، واتصل بي ليلة خطبتنا ليخبرني برأي عائلته في أمر انفصال وَالدَيّ، كان يرى أن طلاق والدتي فضيحة يجب أن تُدارى وادعت والدته بأنَه تنازل عندما تقدم إلى خطبة فتاة أهلها منفصلين.

كنت أثور على إهانته في البداية لكنه هددني بفسخ الخطبة وهجرني بالفعل، حتى اعتذرت له ووافقت على قطع علاقتي بميرال، لكنه لم يكتفي بهذا وعاد ليطالبني بتجنب حازم، وكالعادة رفضت في البداية فعاقبني بالهجر حتى رضخت.

وعلى الرغم من أني لم افصح له عن مشاعري إلا أنه أدركها واستغلها ضدي، لم أكن بهذا الضعف يومًا، لكن كنت أقنع نفسي أن مازن على حق فميرال مختلفة عني، وحازم شاب مستهتر، لكن شعرتُ بضعفي الليلة حين تدخلت ميرال للدفاع عني رغم إهانتي لها، وثار حازم ضدي من أجلها ولم يسمح لي بالتقليل منها، في حين أن مازن كان يُسمعني استهزاء والدته بي وإهانتها المتكررة دون أن يهتم بكرامتي، لماذا سمحت له بهذا؟

أيقظتني طرقات الباب من أفكاري، علا صوت ميرال مهددة بإحضار حازم ليكسر الباب، فنهضتُ مرغمة عليّ أن أعتذر لها عمَّ بدر مني ويكفى أنها أتت إليّ بعد ما فعلته.

- أخيرًا فتحتي! هل كان على قدميك نقش الحنة أم أنكِ سقطتي على أذنيك؟

وقفتُ مترددة أمام العاصفة التي دخلت الغرفة وقفزت فوق فراشي دون دعوة.

- هيا أخرجي أفضل فستان لديكِ، سندعوا مازن لحفل خطبتي غدًا، مع أن زواجي بشقيقكِ يستدعي الرثاء لا الاحتفال.

كانت تتحدث بتذمر ووجهها يتفاعل مع كل كلمة تقولها كدت أنفجر من الضحك بفعل حركة شفتيها المزمومة وارتفاع حاجبيها المستمر.

- هل ستقضي اليوم شاردة؟ هيا فلديك حملة نظافة ولدي وليمة تحتاج للإعداد.

استجمعت ذهني المشتت، وهتفت:

- لم أقصد ما قلته أنتِ لست غاضبة مني أليس كذلك؟ سامحيني.

قلتها وأنا أقاتل دمعاتي التي تهدد بالانهمار من بعد طول الكتمان.

- هل عداكِ شقيقك بطريقته المستفزة في الاعتذار أم أنها جينات وراثية لديكم؟ لم أقرر بعد ما سأفعله بكِ، لكن سأؤجل الأمر حتى أعرف سبب تغيرك معي.

جذبتني من يدي وجلستّ بجواري وانتظرت أن تسمع السبب، لكني انفجرت بالبكاء فضمتني إليها وربتت على شعري، فزاد نحيبِ.

- كُفِ عن البكاء وفري دمعاتك لحين تقطيع البصل.

- لقد أصابك حازم بسخريته اللعينة.

- أخيكِ لا يدخر جهده في نشر عدواه، هيا أخبريني ماذا حدث؟ سيصل خطيبك السمج قبل أن نرفع ذرة تراب واحدة من الصالون الأثري؟

- كيف علمتي أن مازن هو السبب؟
- الأمر واضح هيا اعترفي.
- مازن دائمًا يعايرني بعائلتي وبشقيقي حتى أنه أرغمني على مقاطعتك.

رفعت حاجبها باستنكار شرير وهتفت بغضب:

- كيف تجرأ هذا المعتوه منعكِ عني؟ سأخرب بيته بإذن الله، لكن أخبريني لماذا يعايرك بعائلتكِ؟
- لأن والدتي انفصلت عن والدي وتزوجت غيره ولأن والدته ترى أني تربية امرأة.
- وهل تربى هو وأمه على يد الرجال، هل ترك والده العمل ليربيه؟ يبدو أن هذه العائلة تحتاج إلى تأديب، ثم إن الطلاق أمر شرعه الله.
- كنت أثور عليه في البداية لكن توقفت بعد أن هددني بفسخ الخطبة.
- دعيه يفسخها لنرى أين سيجد فتاة بمثل أخلاقكِ وتعليمك وجمالكِ؟ محدث النعمة هذا يعاني من شعور بالنقص هو وعائلته.
- أنا أحبه يا ميرال هل نسيتِ؟ كيف كنت أتمناه؟
- تنازلك عن كرامتكِ شجعه على التمادي لقد تقدم لخطبتك وهو على علم بوضعك ما الذي تغير الآن هل صار يستقوى عليكِ بعد أن ضمن وجودك؟ عليك أن توقفيه عند حده لقد صار حبك له ضعف.
- ما العمل ماذا ستفعلي لو كنتِ مكاني؟
- كنت سأخبره أن عائلتي خط أحمر وبأن يذهب هو وأمه إلى الجحيم، وصدقيني لن يمر أسبوع قبل أن يأتيكِ راجيًا، لقد أراد إخضاعك حتى تغمضي عينيكِ عن مساوئه وتصبحي طوع يديه.

كنت أستمع إليها مشدوهة، معها حق لكن كيف عرفت ميرا بطباعه وهي لا تعرفه؟

- كنت أخشى خسارته لذا تحملت إهاناته.

- لا تسمحي لأحد بأن يصبح نقطة ضعفك، فما قدره الله لكِ سيأتيك رغم أنف الجميع، وما منعه عنكِ لن تناليه مهما حاولتي.

- ما يؤلمني حقًا أنه استغل محبتي ولم يقدرها، لقد فات الأوان لم يبقى لديّ سوى حلين كلاهما مُر إما أن أستمر على هذا الوضع أو أخسره.

صمتت ميرال قليلًا:

- دائمًا ما يكون هناك اختيار ثالث، سنجعله يدرك قيمتك لكن الأمر يحتاج إلى الصبر.

- مازن لن يهتم بخسارتي.

- دعينا نحاول لم يعد لدينا ما نخسره بعد أن أهدر كرامتكِ، لا بأس ببعض المحاولات.

نهضت ميرال لتعد العشاء وتركتني افكر في حديثها، حضر مازن وعائلته ونفذت خطة ميرال حرفًا حرف كما اتفقنا، وراحت تعدد مميزاتي وتتحدث عن من تقدموا لخطبتي ومستوياتهم وأخلاقهم، ولم تأبه بنظرات مازن الغاضبة ولا لسخرية والدته، وحين جلسنا لتناول الطعام عادت لتدير الدفة للحديث عن والدتي.

- هذا العشاء ينقصه حضور والدتكِ يا روان كم اشتقت لوجودها بيننا ولذوقها الراقي.

- راقبت ميرال انفعالات مازن بتحدي وساعدها حازم بعد أن اتضح الأمر أمامه، انتهى العشاء البارد ولم تمضي ساعة على انصرافهم، حتى جاء اتصال مازن، ناديت على ميرال قبل أن أجيب مخافة التراجع عن الخطة.

- كيف تجرأت على مخالفة اتفاقنا؟ هل كنت تخدعيني حين أخبرتيني بمقاطعتكِ لأخيك وتلك المستهترة؟

- إياكَ أن تتحدث عن أخي وزوجته بهذا الشكل، هل تفهم؟

- هل جننتِ يا روان أم أنها أفكار زوجة أخيكِ؟ عودي إلى عقلك وراجعي نفسك وإلا...

- هل ستهددني بفسخ خطبتك دعنا ننهيها الآن، يكفي أني أرغمت عائلتي على القبول بكَ، وإياكَ أن تتجرأ على عائلتي ثانية لقد طفح الكيل يا مازن.

كان مازن يستمع إليها بذهول لقد ظن أنه تملكها لكن يبدو أن هناك من لعب برأسها وعليه أن يعيد تأديبها، سيهجرها حتى تأتيه طائعة.

ألقيت بالهاتف مصدومة فعانقتني ميرال بقوة:

- أنتِ قوية وقلبك ملكك وحدك فلا تمنحيه لمن لا يستحق.

شهقت بقهر:

- لكني أحببته ولا أقوى على تخيل نفسي مع غيره.
- سيعود إليك أقسم لكِ، لكن تجاهليه.
- لن يبحث عني من الأساس وسينهي الخطبة دون تفكير.

صاحت ميرال:

- كفاكِ ضعف، دعيه يذهب إلى الجحيم هناك متسعًا لأمثاله، إما أن تكونيَ تاجًا على رأسه أو تلقي به تحت قدميك هل فهمتي؟ الحب يموت حين يتعارض مع الكرامة.

(٤٩)

دخل إلى مكتبِ بتوتره وسلامه البارد وخلفه فتاته الغاضبة التي صفعت الباب بغل لا أدري سره، رحبت بهما، بادلني الترحيب ورمتني الفتاة بنظرة استهزاء.

كانت البداية حين زارني في العيادة أول مرة بمفرده حكى لي عن معاناته من اضطراب الوساوس القهرية والقلق الانفصالي، أخبرني بأنه يبحث عن علاج لخطيبته من اضطراب الشخصية الحدية لكنها رفضت الحضور معه، أكدت عليه ضرورة خضوعها للفحص أولًا، غاب بعدها حتى نسيته لكن فوجئت بقدومه اليوم ومعه فتاة عنيدة، أعلنت تصرفاتها أنها جاءت مرغمة، يا الله ما أشبه الليلة بالبارحة!، كل حركة منها تذكرني بابنة عمي ساندي التي كانت تعاني من نفس الاضطراب اللعين.

- أرجو أن لا نضيع الجلسة في المماطلة يا آنسة ميرال.
- لقد أتيت في الموعد وأخبرتك بما تريد معرفته.
- الكلمات المتقطعة التي تلقي بها إلينا لا تسمى إجابات يا ميرال، راعي وقت الطبيب ووقتي وكفى عبثًا.
- دعها على راحتها لكن لن أتمكن من تشخيص حالتها بدون مساعدتها.
- حسنًا دعنا نبدأ من جديد ماذا تريد أن تعرف؟
- دعينا نيسر الأمر، هل حضور حازم يوترك؟

- لا ولن أستمر في الجلسات في غيابه.

- ما رأيكِ أن نبدأ الجلسة بشكل مختلف سأعطيكِ استمارة أسئلة وعليكِ الإجابة عليها بدقة حتى نسهل الأمر.

انسحبت بالورقة كان كل سؤال فيها يحملني إلى ذكريات بغيضة.

تفحص الطبيب إجابتي بتركيز ثم أعاد عليّ بعض الأسئلة وكان التشخيص هو اضطراب الشخصية الحدية Bpd ذاك الجحيم المتكامل من المشاعر المتضاربة إما أبيض أو أسود.. إما قريب حد الالتصاق أو عدو، فقاموس مشاعري لا يعرف الوسطية، ألهذا كانت كل علاقتي سطحية ولم أجد يومًا من يملأني حد الشبع! علمت أن اضطرابي يقف على حدود عدة أمراض نفسية، يأخذ من كل واحد منهم عارض أو اثنين، حتى العالم الخيالي الذي كنت أهرب إليه بالساعات لم يكن سوى نوبات فصام، لهذا كنت أعجز أحيانًا عن التمييز بين ما حدث في واقعي وما عشته بخيالي.

ماذا أفعل الآن؟ العلاج قد يستغرق أعوام، إن كان حازم بقوته ووعيه لم يتحمل اضطراب واحد، فكيف سأتحمل بضعفي هذا دستة الاضطرابات هذه؟

أعدت النظر في إجابتها بعد انصرافها كانت الفتاة مريضة للغاية، لقد جمعت كل أعراض الاضطراب، والغريب أنها لم تشكو من معانتها قط، كانت تكتفي بالهروب والخمور وتعدد العلاقات وإيذاء نفسها، لقد رأيت من قبل طرق الهرب التي يستخدمها المصابين بهذه اللعنة، كل مريض وله طريقته، لكنها كانت الوحيدة التي جربت كل الطُرق عدا العلاقات الجنسية، معها حق فالعلاقات الحميمية ستذكرها بمحاولة الاعتداء التي تعرضت لها في الصغر.

دخلت بنوبة بكاء هستيري بعد أن علمت بأني أعاني من نوبات الفصام ضمن أعراض مرضي، ذلك المرض اللعين الذي سرق مني والدي وأنا طفلة وجعله ينعزل مع خيالاته، ويظن أني حبيبته، ثم يهجرني حين يسترد وعيه، لقد ورثت الجنون من والدي، ترى هل سيعايرني حازم بمرضي مثلما فعلت شذى مع والدي؟

عاد الخوف يهاجمني ويضرب أوصال قلبي الموحش، كنت أشعر دائمًا بأني مختلفة عن الجميع، لم تكن تصرفاتي تتعلق بتقاليع المراهقين، لكن رغم هذا أقنعت نفسي بأني بخير وأن كل هذا بسبب وضعي العائلي.

- إما أن تفتحي الباب أو سأحطمه فوق رأسك، لقد نفذ صبري على جنونك، ماذا جرى لكل هذا أخبريني؟

نهضت بجنونها لتفتح الباب، لم أصدق أنها استجابت أخيرًا بعد أن قضيت النهار أرجوها أن تسمح لي بالدخول.

- ماذا تريد؟ هيا ابدأ محاضرات الوعظ النفسي التي تمطرني بها دائمًا.

وقفت مشدوهًا أمام كومة الشعر التي تكورت على السرير، لا يميزها سوى صراخها بكلمات غير مفهوم.

تركت أناملي ترتب خصلاتها المشعثة، فرفعت رأسها إليّ لأرى عينيها المحمرة ووجهها المنتفخ من النحيب، جذبتها إلى صدري وربت على رأسها حتى استكانت وانتظمت أنفاسها المضطربة.

منحتني إحدى ابتساماتها الرائعة، يبدو أن مخاوفها وحزنها زال فجأة كما بدأ! يا الله من أين أتى ذاك الوجع الأسود الذي احتلها منذ غادرت عيادة الطبيب؟

- ماذا حدث لكل هذا لقد كدت أموت من قلقي عليكِ.

- لا أدري تذكرت والدي ومرضه، لقد نسيت أن أخبرك بأنه كان يعاني من الفصام وتفاقم ولم يفلح العلاج في إنقاذه كان يقضي معظم الوقت في عالمه الخاص، وخشيت أن يتكرر الأمر معي.
- الفصام مرض عقلي يا ميرال وأنت لديك اضطراب نفسي مجرد جلسات وينتهي الأمر.
- لقد ذكر طبيبك أنه يتضمن نوبات فصام.
- لن تكون في حدة المرض الأصلي مهما تفاقمت، مجرد هلاوس بسبب اضطرابات النوم.
- من أين أتيت بهذه المعلومات؟
- من الطبيب.
- لا أريد رؤية هذا الطبيب ثانية ولا أظنك ستحتمل جنوني مع ما تعانيه من وساوس.
- لا دخل لكِ بي سأتحملك حتى لو تحولتِ لمستشفى مجانين كاملة.

غرقت في الضحك فجأة.

- آه لو تعلم منذ قليل كنت أتخيلك تعايرني بمرضي ثم تهجرني.
- لا حرمنا الله من خيالكِ السوداوي ليتك تستخدميه في القصص والروايات.

عدت إلى الطبيب وحيدًا في الجلسة التالية وأخبرته بما حدث معها، عليّ أن أتعلم كيف أحتويها حتى تستقر حالتها ما دامت ترفض العلاج، كانت أول القصيدة كفر طلب مني الطبيب الغياب عنها تدريجيًا حتى لا تتعلق بي بشكل مرضي، فالتعود هو العدو الأول للشخصيات الحدية، حاولت الاعتراض لكن أدركت أن هذا علاج لكلانا معًا، عليها أن تصنع لها عالم خاص حتى لا تتدهور حالتها لو غبت عنها تحت أي ظرف، يا

اللّه كيف أمنع نفسي عنها؟

بدأت الدراسة وأخبرتني بأنها ستنتقل إلى سكن الطالبات مع تسنيم، وذهبت معها لتقديم أوراقها للمعهد الجديد بعد أن اقتنعت أخيرًا بالتخصص في مجال اللغات والترجمة، لا أدري السر وراء تغييرها لقرارها بالتخصص في فن الطهي! لكن كنت سعيدًا لأجلها هكذا سأضمن أنها ستنشغل عني.

(٥٠)

فوجئت برسائل من خالد تحوي صور اعتدائه على مرام، حاولت أن أقنع نفسي بأنها لعبة مدبرة حتى أعود إليهم فينتقمون مني، لكن باتت الصور أشد بشاعة، أرسلت الصور إلى لؤي لكنه أخبرني بتجاهل الأمر، كنت أشعر بنغزات مؤلمة في قلبي مع كل رسالة تصلني من ذلك اللعين، تواصلت مع حنان وطلبت نصحها فأخبرتني بأن مرام استغاثت مؤخرًا بلؤي وردها خائبة.

إذًا فرسائل خالد لم تكن فخّ كما ظننت، كيف تحملت مرام هذه الوحشية، لماذا لا تطلب الطلاق وتهرب؟ أين شذى من كل هذا؟

وصلتني رسالة من خالد أخبرني فيها بوفاة شذى، لم أصدق أنها ماتت قبل أن أحقق أي إنجاز في حياتي، وظننت أنها مجرد لعبة جديدة لاستدراجي، لكن شقيقي أكد لي صحة الخبر، جلست واجمة طوال المساء حتى عادت تسنيم من الخارج لتجد الأرض والأسرة مفروشة بثيابي فيما كنت أجلس حائرة ماذا سأرتدي غدًا؟

- تسنيم، تعالي لتساعديني هيا ليس لدينا وقت.
- ما هذه الفوضى؟ لقد رتبت الغرفة قبل ذهابي.
- سأعيد ترتيب كل شيء فقط أخبريني أيهما أجمل الأحمر الداكن القصير أم الأحمر البرتقالي هذا، لحظة سأجربهم أمامك وأعطيني رأيك.

دلفت ميرا إلى خزانة الثياب قبل أن أستوعب ما يحدث، وبعد دقائق من الصخب والطرقات خرجت متوهجة بفعل اللون الأحمر المثير كان الفستان يجسم تفاصيل جسدها ويزيد من فتنتها، أين ستذهب بهذا الإغراء القاتل؟

- ها ما رأيك في هذا؟ أحفظِ شكله حتى أجرب الآخر.

- أين ستذهبين بهذا التألق؟

- سأذهب إلى جنازة شذى.

لقد عادت للسكر من جديد إنها تهذي بلا شك أم أن الصدمة أكلت عقلها، اقتربتُ منها أنوي عناقها لكن ابتعادها المفاجىء أربكني فهتفت حائرة

- البقاء للّه، اهدئي وتعالي لنجلس يا ميرا.

- اللعينة هربت قبل أن أبهرها بنجاحي.

لقد جنت الفتاة كانت تصرخ بغضب للحظات ثم تعاود الصياح والقفز بمرح!

- هل ستذهبين إلى جنازة والدتكِ بهذا اللون المثير؟

أجابتني ببساطة تناقض جنون الوضع.

- نعم، سأذهب الآن للكوافير أنا بحاجة لترتيب شعري وأظافري.

أتبعت ميرال حديثها بخلع الفستان أمام أنظاري المشدوهة، وارتدت بنطالها القصير وكنزتها القطنية واختطفت حافظة النقود راكضة إلى الخارج.

ماذا سأفعل بتلك المصيبة؟! اتصلت بروان عدة مرات بحثًا عن خطيب هذه المجنونة.

أعدت ترتيب الغرفة من ثياب ميرال، من أين أتت بكل تلك الألوان

الصاخبة أحمر وبرتقالي ومشمشي وفوشيا حتى لون البطيخ لم تتركه يفلت منها! أين تنوي ارتداء هذه الفساتين المثيرة؟

عادت ميرا بعد التغيير الذي أجرته على هيئتها، وصلت الغرفة لتجدها في حالة نظام وترتيب مبالغ فيه.

يا اللّه لقد أعادت تسنيم الملابس إلى الخزانة، سأضطر لإعادة البحث عن ما سأرتديه من جديد.

- ماذا فعلتِ بشعركِ ما هذا اللون الهيستيري؟
- هل أعجبك لونه؟ كنت حائرة ما بين القرمزي والأحمر الداكن.
- أحمر في شعركِ؟ هذا ما ينقصنا يا ميرال، لماذا لم يحضر حازم حتى الآن؟
- هيا لننتقي فستان.

قالتها وغرقت الغرفة بعدها في الفوضى من جديد، قفزت ميرال من بين أكوام الثياب هاتفة سأرتدي الأحمر هذا إنه الأنسب للون شعري.

- تعقلي يا ميرال لا يصح أن تدخلي للمسجد بهذا الشكل فبيوت اللّه لها حرمتها.
- معكِ حق، لكن ماذا سأرتدي إذًا؟

بعد ساعة من المفاوضات والبحث فشلت في أقناعها بارتداء فستان باللون الأسود لكن نجحت في جعلها تتخلى عن الأحمر وانتقيت لها فستان بلون الكرز الداكن وجدته الأكثر احتشامًا من بين جميع ثيابها.

ذهبت لرؤية ميرال بعد أن علمت بوفاة والدتها، ما إن رأيتها حتى صدمت بمظهرها.

- ماذا فعلتِ بشعركِ؟

- ما رأيك في هذا التغيير؟

- لقد توفيت والدتك يا ميرال ولم تتزوج، أفيقِ بالله عليكِ.

- لقد خافت أن أثبت لها خطأ فكرتها عني فهربت.

- لا جدوى من الحديث معها لقد أذهبت الصدمة ببقايا عقلها، لم أتخيل أن تحزن على وفاة والدتها لكن لم أتوقعً أبدا ردة فعلها الغريبة هذه!، قدتها إلى السيارة بهدوء، لقد أهملتها إلى هل كانت تنوى الذهاب بمفردها. هل عدتِ إلى الخمر يا ميرال؟

- ألم نتفق على الإقلاع عنها للأبد!

- نعم اتفقنا على ذلك، لكن لم نتفق على لون شعركِ المستفز هذا!

- للأسف هذا مجرد لون مؤقت.

- هذا من حسن حظك وإلا قصصته لكَ.

اصطحبتها إلى مقهى هادىء تناولت العصير الذي طلبته لها في شرود تام، حاولت أن أجترها للحديث عن أي شيء حتى تتجاوز حالة الجنون التي ضربتها، لكنها كانت في عالم آخر فاضطررت إلى إعادتها للسكن قبل أن يغلق أبوابه.

سأتي لاصطحابك في الغد ضعي الهاتف بجوارك وإياكِ أن تتجاهلي اتصالي.

- الهاتف.. نعم تذكرت، أنظر ماذا فعل اللعين بشقيقتي يجب علينا أن نقتله.

تفحصت الصور البشعة على هاتفها يا الله أين ذهبت مروءة ذلك الخنزير؟ لقد كان يتلذذ بتعذيب زوجته ووصل به الأمر لأن يلتقط لها صور كهذه دون مبالاته بحرمتها!

اصطحبتها لحضور العزاء وأصرت على الذهاب إلى منزل والدتها أولًا، صعدتُ معها الدرج المتهالك وأنا أفكر هل هذا هو المنزل الذي شهد

اغتيال برائتها؟ ترى أي جدار من بين هذه الجدران عاش معها رعبها؟ استقبلنا صوت خالد يسبّ ويتوعد شقيقتها.

كانت مرام تفترش الأرض بعباءة بيضاء فضفاضة وخصلات شعرها مشعثة ومتناثرة خارج حجابها، ومن خلفها يقف خالد وبيده حزام بنطال يلوح به في الهواء مهددًا، لم تتمالك ميرال نفسها عقب رؤية هذا المشهد نسيت كل ما فعلته بها مرام في لحظة، وانطلقت أمام عيني كطلقة عشوائية هجمت على خالد بصفعة مدوية وبصقت في وجهه، جذبتها بعيدًا عنه.

- اخرج من منزل والدتي فورًا.

رمقها بسخرية وقد أدرك أنه نجح في إيذائها عبر شقيقتها وانحنى يجر زوجته من شعرها، لم أتمالك نفسي فلكمته وجررته إلى خارج المنزل، لم يقوى على النهوض وهو يرى الباب يصفع في وجهه.

ساعدت ميرال شقيقتها على النهوض وأجلستها على الأريكة، وهي تتفحص جسدها الهزيل ووجهها المدمي بقهر، «أه لو أن يامن هنا ما كان كل هذا ليحدث.»

- علينا الاتصال بالمحامي الآن ليضع حدًا لهذه المهزلة.

- اسأليها أولًا إن كانت ترغب في الانفصال عنه.

كان من الصعب عليها التحدث مع مرام وهي في تلك الحالة الهيستيرية من الضحك والبكاء، تارة تبكي رحيل أمها وتارة تلعنها، نفس الحالة التي هاجمت ميرا بالأمس، لم أستوعب لماذا تلعن شذى وهي ابنتها المفضلة؟

ثلاثة أيام قضيناها بمنزل والدها لرعاية مرام التي حاولت الانتحار مرتين متتاليتين بمجرد أن غفلنا عنها، فنقلناها إلى مصحة نفسية

مشهورة.

اضطررت للعودة إلى العمل وأصبحت أقطع الطريق من مدينتي إلى العاصمة يوميًا حتى لا أترك ميرال بمفردها بعد أن أحكمت رأسها بأن تبقى مع شقيقتها حتى تسترد وعيها.

(٥١)

كنت أتابعها في غربتي وهي تصر على إنقاذ مرام، لا أدري عن أي صلة رحم تتحدث ألم تذقها مرارة الخذلان منذ نعومة أظافرها؟ ألم تعايرني بانطوائيتي وخجلي، ألم تمطرني بمكائدها! ألم تستبيح سرقة مال ميرال من أجل زواجها؟

لماذا عليّ أن أتناسى كل ما فعلته بي الآن وأهرع لنجدتها؟ أليست هي من ألقت بنفسها بين يدي ذاك الخسيس؟ لماذا أنقذها الآن؟ لقد تسببت في هروب ميرال وأبلغتني بالأمر في رسالة حقودة مثلها، والله لن أنسى، عليها أن تخلص نفسها وتكفر عن ما فعلته.

لكن كيف أُوقف ميرال عن مساعدتها ؟ أخشى عليها من أن يتعرض لها خالد أو أن ترميها مرام بأي تهمة حقيرة، من الممكن أن يكون كل هذا مجرد فخّ، إلى من ألجأ لإيقافها حتى حازم رفض مساعدتي.

شهر مضى منذ أودعتها بإحدى المصحات النفسية، كانت تخضع للمهدئات والأدوية التي حولتها لشبح بلا روح، وكنت أجلس معها بالساعات دون أن أحصل منها على كلمة واحدة.

أين ذهبت مرام التي كانت تنتظر ظهوري لتمطرني بكل ما لذ وطاب من الإهانات والاتهامات المشينة؟ لا أدري ما العمل؟ ظننت أن خلاصها من خالد سيردها إلى وعيها، لكن لم يرمش لها جفن حين علمت بطلاقها منه، إن كان كل هذا لم يساعدها على التعافي فلا شيء سيعيدها إذًا.

ظل لؤي ناقمًا عليّ لمساعدتي لمرام، ولم يفوت يوم دون أن يذكرني بما فعلتِ بنا وكأني نسيت، حاولت أن أرقق قلبه تجاهها بلا جدوى وفشل حازم في إسكاته عني.

تيقنت من فشل الطبيب المتابع لحالة مرام، فذهبت مع حازم إلى الدكتور جاسر الذي ذهبنا إليه من قبل لكن لم نجده واستقبلتنا زميلته بدلًا منه.

لم ألتفت في البداية إلى اسمها لكن انتبهت حين وجدتها تردد اسمي المدوّن ببطاقة الكشف في دهشة، انتبهت للاسم الظاهر على مكتبها.. «د/حور رامز، أخصائية تأهيل نفسي وتعديل سلوكي» هل يعقل أن تكون هي؟ ألتفتُ إليها بانتباه..

حور صاحبة النجمتين الفضيتين هكذا كان يصف يامن عينيها، نعم هي بوجهها المستدير، أخفى الحجاب الوردي الذي ترتديه شعرها أترى هل لا زالت خصلاتها سوداء طويلة كما كان يصفها؟

- هل أنتِ من عائلة الزهراوي المعروفة؟
- بلى أنا حفيدة الزهراوي.

انتهت الجلسة ولا أدري كيف انتهت؟ ظل حازم يتابع المشهد بدهشة، كانت حور مذهولة من تلك الصدفة التي جمعتنا، لكنها تمالكت دهشتها وسألتني عن يامن.

- كان يحاول الوصول إليكِ ليطلب صفحك عنه، لقد اكتشفنا أنه مريض فصام ولم يكن على وعي بأغلب أفعاله، فهل تسامحيه؟

تمتمت بخفوت:

- ليغفر الله له.
- كان يردد عبارتك دائمًا «إن الله لا يضيع حقوق العباد ولا ينساها وإن نسوها»

- من كان يظن أني سأتحدث مع ابنته بعد كل هذه الأعوام!
- لقد أتيت اليوم طلبًا لاستشارة طبية.
- أخبريني ما الأمر هل كنت تتابعين العلاج مع جاسر أم أنها استشارتك الأولى؟
- تابعت معه لجلستين فقط، لكن أتيت اليوم من أجل شقيقتي التي تعاني من انهيار نتيجة صدمة عصبية فشل الأطباء في انتشالها منها.

أعطيتها ملخص ما حدث وتعهدت بأن تهتم بنقل مرام إلى المؤسسة النفسية الخاصة بها وتشرف على علاجها بنفسها، ونصحتني بحضور جلسة علاج جماعي.

وفّت حور بوعدها واهتمت بنقل مرام للمؤسسة التابعة لها واهتمت بحالتها، حتى استقرت وبدأت تتحسن، عدت لحياتي من جديد وافقت على القواعد الجديدة التي وضعها حازم لعلاقتنا، أصبحت اللقاءات بيننا نادرة وباتت الرسائل مقتضبة، لعنة الله على طبيبه عدو الحب، كنت على يقين بأنه وراء هذا التغيير.

شعرتُ بالفراغ بعد غيابه وزادت حدة تقلباتي، وأصبحت ألاحظها لكن لم يكن هذا ما يشغلني، ماذا لو شفى حازم تمامًا، هل سيتوقف عن محبتي بعد أن يدرك حجم الاختلاف بيننا؟

أرسلت إليه:

- أما بعد.. فقد أدماني الشوق إليكَ ولم أعد أقوى على غيابكَ.
- أما بعد فأنا أذوب شوقًا لرؤياكِ لكن نحن بحاجة للحفاظ على استمرار الشغف بيننا حتى لا تتحولَ علاقتنا إلى اعتياد ويقتلها الملل.
- أي لعنة تلك التي رمتني بمخبول عديم المشاعر مثلكَ؟!

- أعدك يا ميرال بأن أهذب لسانكِ هذا بطريقتي الخاصة حين يجمعنا سقف واحد.

- وعلامَ السقف الواحد يا حجر الصوان أيّ حظ هذا الذي أوقعني فيك؟!

- لن يكون الأمر هينًا وستحاسبين على كل حرف قريبًا.

- أسأل الله أن لا تعرف عيناكَ سبيل النوم قطّ يا حازم.

- دعوة رائعة كرريها، حتى أنتهي من أكوام العمل المتراكم فوق رأسي.

ذهبت إلى النوم عابثة أجرّ أذيال خيبتي لا فائدة من الترجي، فعندما يقرر حازم الالتزام لا يتراجع عنه مهما حدث، لكن ماذا لو أنه زهدني؟

(٥٣)

لقد بات حبي لها يؤلمني وبت أرغب فيها إلى درجة الجنون، أشتاق أن تصبح معي لأمنحها كل ما لديّ من حنان وعشق وقوة، لكن عليّ الصبر حتى يصبح لديها وعي ونضج، فوجئت بظهورها أثناء مغادرتي الشركة بصحبة هديل للحاق بأصدقائي في النادي، ظلت تتبعني بدراجتها وقد أخفت وجهها داخل خوذتها، مع هذا لم يكن من الصعب التعرف عليها، وصلنا وانتقت زاوية بعيدة وجلست تراقبنا كنت مستمتعًا بالهوس الذي تملكها.

تعمدت أن أعطيها انطباع بأني على موعد مع هديل، ورحت أفكر في صدمتها حين تفاجىء بوصول زملائي وتدرك حجم جنونها لكنها فقدت صبرها قبل مجيئهم، واتجهت إلينا ودون مقدمات تناولت كوب الشراب الساخن وسكبته على رأس المسكينة، تمكنت من تهدئتها بأعجوبة بعد أن لفتت أنظار الجميع إلينا، ظننت أن الأمر سينتهي بعد أن شرحت لها كل شيء لكنها ثارت عليّ.

- من الآن أصبح لديّ الحق في الحديث مع زملائي في المعهد والعمل.
- لا أمانع لو كانوا ضمن أصدقائك القدامى لكن أن تذهبي وتتعرفي عليهم الآن فهذا ممنوع.
- أنت لا تمانع بصداقتي مع عمر إذًا؟

كانت ترمقني بنظرة تحدي

- لا مانع لكن في حدود العمل أما خارج المطعم فلا.

- وما الداعي لصداقاتك مع هديل وميس وغيرهن؟

- هم صديقاتي من قبل ظهورك ولو أردت الارتباط بإحداهن لما ترددت كل هذه الفترة.

قاطعته بغضب:

- أعلم ما ستقوله لكنك فضلتني عليهن واخترتني أنا، أنا أيضًا التقيت بعمر قبل ارتباطنا وكان بإمكاني الارتباط به وقتها، لكني وقعت فيك وانتهى الأمر؛ لذا سيظل صديقي بالعمل وخارجه.

قضيت السهرة معكر المزاج وأنا أتخيلها تتحدث وتضحك مع عمر هذا، وبعد أن كنت سعيدًا بإشعال غيرتها ها هي تقذف بي داخل حفرة الغيرة التي حفرتها لها منذ قليل، وكأن هذا ما كان ينقصني.

أعدتها إلى السكن بعد أمسية سوداء انتهت برضوخي لقرارتها، متى أصبحت متسلطة وعنيدة هكذا؟ سأنهي علاقتي بزميلاتي وأفاجئها بالأمر حتى أتخلص من علاقتها بهذا الــ عُمر.

(٥٣)

لم أصدق عندما سمعت صوته هل تنازل مازن وقرر الاتصال بي أخيرًا؟

- كيف حالكِ يا روان أرى أنكِ استطعتِ الاستغناء عني.
- أنتَ من بدأت الهجر ظننت اتصالك بغرض الاعتذار.
- هل نسيتِ بأنكِ المخطأة؟ كنت أنتظر اعتذارًا منك.
- لن أعتذر عن انفصال والداي ولا عن علاقتي الطبيعية بشقيقي وصديقتي.
- لكنكِ عاهدتيني على أن...

قاطعته بحزم:

- لقد أخطأت حين سكت عن إهاناتك، شبكتك في انتظارك.

قلتها وأغلقت الهاتف في وجهه بعد أن تأكدت من صحة كلام ميرال لقد استغل مشاعري وضعفي أمامه لذا سألقنه درسًا لن ينساه، يبدو أن الطيبة لا تصلح مع أمثاله، لم تنقطع اتصالاته على مدار الأيام التالية، وفاجئني بزيارته دون موعد مُسبق، استضافه حازم وأخبرني بحضوره، فناولته الشبكة والهدايا التي أحضرها.

- ما هذا يا روان؟
- رد إليه شبكته وأخبره أن الأمور بيننا قد انتهت.

اضطرب مازن حين وصله قرارها، لم يدري كيف حملته قدميه إلى منزله، كانت روان بمثابة نجمة عالية في نظره، كان ينتظر موعد المحاضرة التي يراها فيها بفارغ الصبر، ولو لا تشجيع صديقه لما تجرأ على طرق بابها خاصة أن والدته كانت ترفض هذه الزيجة وتعارضها بشدة، فَـ روان أعلى منه اجتماعيًا وستتعالى عليه، لكنه أقنع والدته بأنه قادر على السيطرة عليها.

لم تتوقف والدته عن توبيخه لضعفه أمامها، كل ليلة تخبره بأن هناك عشرات غيرها في بلدتهم يحلمون بالارتباط به، أفضل من أن تتكبر عليه روان هذه!

نعم هناك الكثيرات من بنات الأخوال والأعمام، لكن ولا واحدة منهن ترقى لتكون في حُسن روان وأخلاقها لقد ضيعها، هل كان مخطئًا يوم أن نفذ كلام والدته ونصيحتها!

بات عليه كسب رضاها من جديد، لكن شعور الرفض الذي جربه في الفترة السابقة يكوي كرامته ورجولته، لقد أهانته حين ألقت إليه بشبكتها على مرأى من أخيها.

مرّ شهر على اختفائها، لم تظهر بالكلية وما زالت تتجاهل اتصالاته، وربما لو استمر على عناده سيأتي يومًا ويراها أصبحت لغيره، حسم أمره ورتب موعد مع حازم لزيارتهم.

ألحّت جدتها عليها كي تجلس معه فوافقت على مضض، دلفت إلى الصالون مرغمة كان مازن يجلس مشدود الأعصاب.

- مرحبًا يا روان كيف حالكِ؟

- لماذا أتيت؟

صاحت جدتها باستنكار:

- روان كفى.

- معها حق، لقد تماديت في الإساءة إليها لكن أتيت اليوم لمصالحتكِ، لقد تغيرت طريقة تفكيري في الفترة الأخيرة بعد أن أدركت قيمتكَ عندي.

- هل تعلم والدتك بمجيئكِ؟

- والدتي لا علاقة لها بزواجنا، أرجو أن تمنحيني فرصة جديدة.

- لكن هناك شروط جديدة.

- ما هي شروطكِ؟

- سيخبركَ بها حازم.

رحل بعد أن أهانته أمام الجميع، لقد تمادت ولن يحتمل إهانة كرامته أكثر من هذا.

صاح حازم بإشفاق:

- ارحمي عزيز قوم ذل.

- هو من جلب على نفسه هذا، اتصل به وأخبره أن يبحث عن سكن بعيد عن والدته وغيّر معه اتفاقات الزواج فمثله لا يُقدر قيمة التنازلات.

عادت إلى غرفتها حزينة لقد اضطرها إلى وئد مشاعرها والتصرف خلاف طبيعتها، ألم يكن من الأفضل له أن يحترمها من البداية؟

«يبدو أن الإنسان لا يعرف قيمة ما معه إلا حين يفقده»

(٥٤)

- لا يعقل هذا يا ميرال كفِ عن ملاحقته، لقد أصبحتِ مهووسة به.
- كنت أتأكد فقط من مدى إخلاصه.
- لقد جربنا الإيقاع به عبر جميع مواقع التواصل، ومنذ شهر وأنتِ تتبعيه، سيفر من جنونكِ.
- هل تظنين هذا؟
- يا اللّه أنتِ تثيرين جنوني مثل فارس.
- ماذا فعل المسكين يا باردة؟ أنتِ لا تستحقين شاب طيّب مثله.
- لقد صار يلاحقني أكثر من اللازم حتى أنه لا يتوقف عن الاتصال بي كل ساعة.
- من أين لكِ بهذا البرود؟ أنتِ تستحقين شخص متعجرفًا مثل مازن.
- أنا إنسانة طبيعية ياميرا وليس ذنبِ أن فارس شخص عاطفي بشكل يثير الأعصاب.
- هل يعقل أن يفكر بي حازم بمثل طريقة تفكيرك في فارس؟
- لا مجال للمقارنة بيني وبين خطيبك المهووس، أظن أنه يبتعد عنك حتى لا يشغلك عن دراستك، فتوقفِ عن ملاحقته لا أدري من أينَ لكِ هذه القدرة على الالتصاق به؟
- أنا أحاول كسر القوانين اللعينة التي وضعها لعلاقتنا.

قطع اتصال روان حديثهما.

- رورو ما الأخبار؟

- ضعيها على مكبر الصوت يا ميرا.

- لقد عاد واعتذر مني، ووافق على جميع شروطِ.

- هل تتحدثين عن مازن يا روان أم أن الأمر اختلط عليّ؟

- شش اخرسي الآن يا تسنيم ودعيها تكمل.

- لقد اتفقنا على موعد الزواج.

أطلقت ميرال زغروتة عالية، وصرخت تسنيم تحاول إيقافها.

- اخرسي يا ميرال ستوقظين جميع من في السكن.

- كل هذا ما كان ليحدث لولا مساندتكِ يا ميرا، سأضطر لإنهاء المكالمة الآن لقد أتى شقيقي مُفرّق الجماعاتِ أراكم بالغد.

- كان عليك أن تتركيها تتصرف بمفردها حتى تتعلم كيف تتعامل معه؟

- لقد أخبرتها أن تكون حازمة معه ولا دخل لي فيما حدث بعدها، أنتِ تصرين على أن تضعيني دائمًا في دور الفتاة الشريرة مثل حازم، وعلى ذكره هيا لننام قبل أن يتصل ويملي عليّ مواعظه.

ما إن أنهيت جملتي حتى أضاء هاتفي معلنًا عن اتصاله.

وكعادته كرر عليّ ضرورة اهتمامي بمذاكرتي وأوصاني أن أهتم بصحتي وأن أعذره لأنه سينشغل عني بالفترة القادمة لتجهيزات زواج شقيقته إلى جانب عمله المتراكم، أنهى الاتصال ببرود وتركني غارقة في شوقِ اليأس إليه لم يعد لديّ أمل في لقائه قريبًا، ولم تعد ملاحقتي له تطفيء ظمىء للقياه فقررت الإقلاع عنها.

كان حفل زفاف روان بسيطًا، انزويت في أحد الأركان وجلست أتابع حازم المرتبك وهو يدور في كل اتجاه ليتأكد أن كل شيء في موضعه، لم أرى من قبل شخص مهووسًا بالكمال مثله.

عدت إلى رتم حياتي المعتاد، كان فصل الشتاء قد بدأ وبدأت معه الأمطار وكانت هذه هي أول مرة أشاهد فيها حبات المطر تعانق مياه البحر، رغم أني قضيت الشتاء الماضي هنا لكن لم يسبق ولاحظت هذا المشهد الرائع، تمنيت أن أصبح قطرة مطر واندمج ببحر حازم الغامض فأصبح قطعة من روحه وجزء لا يتجزأ من كيانه، أخيرًا وبعد أن فقدت الأمل برؤياه هاتفني وحددنا موعد للقاء، كنت انتظر رؤياه بشوق كما ينتظر الأطفال صباح العيد، ضرب الجنون قلبي ليلتها، كنت أدور حول نفسي بفرح، تارة أدندن كلمات أغاني تعبر عن الشوق العالق بداخلي، وتارة يهاجمني الخوف ترى ماذا سأفعل لو ألغى موعدنا بسبب عمله؟ أنهكني الحزن والتفكير فاتصلت به.

- هل لا زلت مستقيظًا؟
- وكيف أجرؤ على النوم؟

ضحكت بخجل.

- ما رأيكِ هل أترك ذقني هكذا أم أهذبها، خصلات شعري طالت كثيرًا منذ آخر لقاء هل تعجبكِ هكذا؟
- تعال كما أنتَ.
- ماذا أرتدي؟ أي لون تهواه عيناك؟ أين ترغبين في الذهاب غدًا؟ كيف أعبر لكِ عن لهفتي؟ أأضمكَ إليّ بمجرد رؤياكِ.. أم أؤجل العناق إلى ما بعد التحية؟

استوقفته:

- على رسلكَ لا شيء من هذا يهمّ ما دمتُ سأراكَ غدًا.

قاطعني منفعلًا:

- أنا لم أعد أطيقُ انتظار الغد وأتمنى رؤياكِ الليلة.. بل الآن وفورًا.
- لقد أصبحنا بعد منتصف الليل هل جننتَ؟

- الجنون يستنزف شوقي إليكِ ويحول الانتظار بيننا، هيا استعدي سأمر عليكِ بعد قليل.

- لكن كيف؟ ماذا سأرتدي؟ كيف سأغادر السكن الآن والجميع نيام؟

- غادري غرفتك بهدوء حين أهاتفك، لا يهم ما سترتديه، كل ما يهمني رؤياكِ.

أغلق الهاتف وتركني غارقة في دهشتي مر ما يقرب من ساعة وأنا شاردة لا أدري هل كان جاد في لقاء منتصف الليل هذا؟ أفقت من حيرتي على اتصاله وأربكني بوق سيارته، يا الله سيفضحني ويوقظ الجميع، جعلني استعجاله أهرع إليه حافية القدمين بمنامتي التي تحمل صورة بطوط وشعري المشعث وعينين أدماهما السهر.

لم يكن حاله أفضل مني، كان يرتدي بنطال رياضي وكنزة بلون الخوخ وسترة من الصوف الأسود، ولا مجال للحديث عن تضارب الألوان بين بنطاله وكنزته، أما عن مظهره العام فغير قابل للوصف بشرته الخمرية ضربها الشحوب من شدة البرد وخصلات شعره الفوضوية أحاطت بوجهه الفاتن في عبثية ساحرة.

كنت أتأمله باندهاش غير مدركة لحالة الفوضى التي ضربتني، أخيرًا أفاق من شروده ولاحظ منامتي الخفيفة وقدمي العارية، اتجه إليّ بخطوه واحدة وضمني في عناق رفعني فيه عن الأرض.

- كُف.. سيفتضح حالنا لو استيقظ أحدهم الآن، لا أحد هنا يعلم بزواجنا.

تركني على مضض وجذبني للسيارة.

- متى كان آخر عناق لكَ؟

- كان منكِ، أذكر أن عيناكِ عانقتني يومها وتعمقت داخلي من على بُعد مترين قبل أن أصل إليكِ، عانقني الكثير بعدها، لكن كنت اشعر بالوحشة والجفاء، كم كنت أَشتهي عناقكِ، ماذا عنكِ؟

- باتت روحي تحتضر منذ آخر لقاء بيننا!

- أعلم أنك ناقمة عليّ، لكنكِ لا تعرفين شيئًا عن المشقة التي أتكبدها قبل كل لَقاء أظل أعاني طوَال الليل لأنتقي ثياب تليق بموعدي معكِ، كنت أبحث عن ما يمنحني الشجاعة للحديث، و يلفت انتباهك حتى لا يظل منصبًا علىّ، كي أستجمع قدرتي في البوح أمامك.

كنت أطيل النظر إلى المرآة وأنا أتخيل عينيكِ السوداء أمامي، أحاول النظر بثبات إلى عمقها الواسع، حتى أستطيعَ مواجهتهما عند حديثي معك لكن النتيجة تأتي كارثية، في كل مرة يتعثر بوحِ وتخرج الأحرف مبعثَرة تـ ـو حـ ـشـ ـــتـ ــك، أكره نفسي حينها وأكره بَساطتك وعفويتك حين تهمسين في ثبات اشتقتكِ وأنتِ تواصلين النظر إلى أعماق عيني ببراءة.

- يا الله ما هذا الجحيم، ماذا عن اللقاءات التي تأتي صدفة دون ترتيب؟

- إنها الأبشع صدقيني أمضي أيامي بعدها في التفكير، هل كان حديثَ معك مرتبًا أم مبعثرًا كالعادة مثلي، هل لمعت عيني حين أخبرتكَ بأنيَ اشتقتك بمثل اللمعة التي تكسو عينيك حين تبوحين لي بشوقكَ؟ هل استطاعت كلماتي أن تعبر عن اللوعةَ التي بداخلي أم أنها كانَت باردة كحبات العرق المتوترة فوق جبيني.

- أنتَ تعذب نفسك.

- بل أنتِ تعذبين فؤادي بعشقك المتزايد في قلبي، إن الأمور لا تصبح شاقةَ هكذا سوى معك لأني أتنفسك وأشتاقك ولا يوجد ما يكفي من الكلمات للتعبير عن جَنوني بكِ، حتَمًا سأنفجَر يومًا بسببك.

لم أقوى على مواصلة الحديث كنت أرتجف من شدة البرد، فتقوقعت على الكرسي وضممت جسدي إليّ كي أنعم ببعض الدفء.

لاحظ معاناتي فعلق.

- سنمر بأحد المقاهي بعد قليل.
- أغلق النافذة سأتجمد في مكاني.
- لو أغلقتها سنصاب بالبرد حين نغادر السيارة.

رميته بنظرة متبرمة لكنه تجاهلني، توقف بعدها عند مقهى وأحضر لنا كوبين من القهوة وتنازل لي عن سترته.

وصلنا إلى موقعنا المفضل عند البحر، وقفت أتأمل حركة المياه الثائرة وأنا أرتشف قهوتي على مهل، فجذبني على حين غفلة وحملني فوق ظهره باتجاه الشاطئ كنت أصرخ بجنون بعد أن فشلت في إيقافه.

- هل جننت؟ دعني فورًا أنا أرتعب من الظلام.

تجاهل محاولاتي للتخلص من قبضته ولم يفلتني إلا داخل المياه، أنزلني ببطء وساعدني على الوقوف، حاولت الهرب منه بلا جدوى كنت أقفز بجنون من برودة المياه التي تداعب قدمي العارية.

- هذا ليس عدلًا أنت ترتدي كامل ثيابك وتدفىء نفسك جيدًا من أخمص قدميك حتى رقبتك.

خلع حذائه وأجلسني بجواره على الرمال، عدت للغناء من جديد لأطرد شعوري بالبرد

- كُفِّ يا ميرال لقد أفزعتي السمك المسكين.

صمت متبرمة فأدار هاتفه على أغنية قديمة لكن كلماتها رائعة، همس لي كل حرف فيها يتحدث عنا «بعدك حبيبي مشكلة.. مشكلة هدت كياني أنت فبلد وأنا فبلد نشكي ونعاني»

- لو كان الأمر هكذا فيما كان غيابك إذًا؟
- تعلمين أنها أوامر الطبيب.

مد يده إلى جيب سترته التي أرتديها وأخرج علبة بداخلها سلسلة يتدلى منها أول حرف من اسمه وعلامة الأبدية، ورفع شعري لأعلى هامسًا:

- كل عام وأنتِ معي.
- لقد عرفت إذًا!

أمضينا الليلة ونحن نغني ونتحدث حتى أعلن الصباح عن ميلاد فجر جديد، أعادني إلى السكن لتبديل ثيابي، أبدلت منامتي بفستان قصير من القطيفة الناعمة، مزين بفيونكات صغيرة، وحذاء طويل غطى منتصف ساقي واكتفيت بتثبيت خصلات شعري ببنس صغيرة.

فوجئت بسيارته السوداء محاطة بأشرطة وبلالين ملونة متى فعل كل هذا؟

انطلق بسرعته المعهودة ورفض أن يخبرني عن وجهتنا حتى وصلنا إلى منطقة الملاهي التي حرمت منها منذ طفولتي.

- هل سندخلها؟
- بالطبع لا.. يا ميرال سنتبارك بها ونرحل، أنتِ تتعمدين إثارة سخريتي.

أمضيت معه أسعد يوم في عمري، أعاد لي طفولتي التي سرقت مني.

(٥٥)

أدماني الشوق إليها بشكل جنوني لم نلتقي منذ فترة طويلة، وبدا أنها فقدت الأمل في عودتي إلى سابق عهدي، فتوقفت عن ملاحقتي بعد أن كان لا يمضي يومًا دون أن تفاجئني بظهورها من تحت الأرض فجأة كعفريت العلبة، كنت أتظاهر بعدم رؤياها لكن نظرة الحنين المتسألة بعينيها كانت تدميني وكأنها تقول كيف استطعت الغياب عني؟

احتفلنا معًا بذكرى مولدها، كنت سعيد لفرحتها الطفولية وكان من الصعب عليّ كتمان مشاعري وأنا معها، والأصعب هو العودة للغياب عنها من جديد، ذهبتُ لاستشارة جاسر وسألته عن الفائدة من غيابي عنها الآن ما دمنا سنتزوج قريبًا؟

- حتى لا تنهار حين تنشغل عنها، أخبرتك من قبل أن مريض الشخصية الحدية يعاني أزمة مع الاعتياد فعندما يعتاد على شيء يدمنه ولا يقوى على فقدناه بعد ذلك.
- هذا يعنى أنها ستدمن قربِ عند الزواج ما جدوى ما نفعله الآن إذاً؟
- ما نفعله معها الآن يشبه الفطام ستعاني لفترة قصيرة، ولن تتأثر بعد الزواج.

أنا لا أريد أن يحدث هذا، أريد أن أظل محور عالمها مثل ما هي محور العالم عندي.

- لن تحتمل انشغالك عنها تحت أي ظرف، وقد يصل الأمر بها للانتحار لقد رأيت هذا يحدث مع أقرب إنسانة لي، فكرة حرمان

المصاب بالحدية عن ما يدمنه يدفعه للجنون، قد تبدو لكَ قوية، لكنها تصبح هشة تمامًا أمام فكرة الغياب.

منذ ذلك الحديث وأنا أنازع بين رغبتي في التعجيل بالزفاف حتى نصبح معًا، وبين خوفٍ مما قد يحدث، لقد رأيت بنفسي نوبة الهلع التي أصابتها أثناء مرضي، وبعد أن كنت ألح عليها لتقديم موعد الزواج صرت أتهرب منها حتى أصابها اليأس مني.

جلست أستمع مرغمة إلى ميرال العاشقة منذ عودتها من الخارج وهي تصر على أن تحكي لي أدق تفاصيل يومها، وكلما حاولت تأجيل الحديث إلى الغد صاحت وتوعدتني برش المياه الباردة فوقي، كانت تتحدث بانبهار طفلة رأت الملاهي لأول مرة، كنت أحترم في حازم قدرته على إرضاء طفولتها المتوارية خلف مظهرها العابث.

- لقد طرت للأعلى ياتسنيم فجأة، وكنت أنظر للأرض وهي تبتعد بصدمة ألجمتني عن الصياح فقبض حازم على يدي وهو يلعن نفسه لأنه طاوعني على ركوب اللعبة، كانت رائعة ومخيفة لا بد أن نذهب إلى هناك في العطلة.
- هيا لننام الآن وسنذهب جميعًا في الغد، أرجوك لديّ محاضرة في الصباح الباكر.
- هل تظنني أن حازم قرر إلغاء قوانينه الإقصائية؟
- لا أظن يا ميرال فخطيبك هذا عنيد ولاحظت من حديثك عنه أنه لا يتراجع عن قراراته ربما تنازل عنها اليوم فقط ليرضيكِ.

راقبت الوجوم البادي على ملامحها في أسى ليت ذلك المتحجر يرى لهفتها وانبهارها به، لقد بت أستعجب كيف يعشقها إلى هذا الحد ويقصيها عنه في الوقت نفسه؟

- لقد اقترحت عليه أن نتم زفافنا في الأجازة ففغر فاه من الصدمة.
- أرى أن لهفتك عليه هي السبب.
- هل صرتُ أنا السبب الآن؟
- نعم أنتِ تربكيه بعدم قدرتكِ على السيطرة على مشاعركِ، وأظن أنه يخشى عليكِ من الأثر السلبي لتعلقكِ به.

هتفت بحنق:

- إلى من أظهر مشاعري إن لم يكن للإنسان الوحيد الذي أحببته!
- وزعِ مشاعركِ على المحيطين بكِ يا ميرال، واشغلي نفسك عنه.
- أين الحب في هذا؟
- الحب لا يعني أن يلتصق كلاكما بالآخر، العلاقات الصحية تقف في المنتصف بين التعلق والتجاهل.

كنت أعلم مدى قسوة حديثي عليها، وبدا جليًا أنها لا تعرف الوقوف عند منتصف الأشياء وتتألم بشدة حين تجبر على التحكم في مشاعرها، لكنها لم تعاود الحديث عن حازم بعد هذا اليوم وكأنها تناسته.

كانت نظرة الأسى في عينيها تؤلمني، حتى أغانيها صارت حزينة واختفى حماسها ومرحها ليته يرى ما تعانيه بسببه.

عادت روان بعد انتهاء شهر العسل والتقينا.

- هل أنتِ سعيدة مع مازن؟
- نعم، لكن لا زال كما هو ما إن تظهر عاطفتي حتى يستغل الأمر ويعود لتسلطه.
- الحياة ساخرة بشكل مضحك تسنيم لا تتوقف عن التذمر من عاطفة فارس وملاحقته لها وأنتِ تعانين من جفاء مازن أظن أن الأمور ستكون بحال أفضل لو تبادلَتم الأزواج بينكم.

- ماذا عنكِ يا ميرا بمن ستبادلين حازم؟
- لقد وقعت في أخيك المجنون وانتهى الأمر.

صاحت تسنيم ساخطة:

- يا الله كيف أصبحتِ بهذا الضعف؟ يبدو أنه نجح في ترويضك.
- لقد جربت معه كل شيء، حتى عندما امتنعت عن مراسلته لم يتأثر، ماذا أفعل وقد بلاني الله برجل الثلج!.
- شقيقي يظن أنه يحمي علاقتكما بهذه الطريقة ولن يتوقف إلا عندما يتأكد من فشله، فهو لا يؤمن إلا بالتجارب لذا عليكِ أن تفسدي عليه خطته.
- كيف إذًا؟
- أنتِ الداهية تسألينا نحن كيف؟ يا لتقلبات الزمان لقد تغيرت علاقة روان ومازن بفضل نصيحة واحدة منكِ يا ميرا.
- سأغمس نفسي في العمل أفضل من التفكير بحازم.
- كفى يا ميرا نحن لا نتحدث الآن لإحباطك أخبرتك أنه عنيد جدًا لا يقتنع إلا بما في رأسه لو أمطرت الدنيا حجارة، حتى لا تستسلمي سريعًا.
- هل من المفترض أن يتملكني الأمل الآن يا روان؟
- حازم لن يتغير أو يفهم خطؤه ما دمتِ تقفين خلف الباب في انتظار عودته.
- الحل أن نقتل هذا الطبيب الأبله حتى يتوقف عن حشو رأس حازم بأفكاره اللعينة، لا أحد يشعر بالمرارة التي تعتمل داخل قلبي منذ شهور وأنا أعاني من شوقٍ إليه بعد أن كان يلاحقني في كل مكان ولا يفوت ساعة دون أن يهاتفني، أصبحت لا أراه إلا بمواعيد محددة.
- استخدمي معه بعض القسوة وسترده إلى وعيه.

- معكِ حق، لقد تأخرت علىّ الذهاب للمقهى الآن.

زاد رحيل عمر من شعوري بالوحدة بعد أن قرر الاستقرار في العاصمة ورفض العودة إلى وطنه أخبرني أنه لم يحتمل التغيرات التي طرأت على بلاده، منذ انتهت الحرب وهو يشعر بأنهم استبدلوا وطنه بأشخاص يفتقرون للمشاعر والإحساس، لذا قرر الاستقرار هنا ونجح في افتتاح مطعم خاص.

(٥٦)

لقد وصلت لأواخر عقدي الثاني ولا زلت وحيدة ومنعزلة داخل مصحة نفسية وكأني عجوز في أواخر عمري، لم أتخيل يومًا أن أصل لهذا الحال ولولا تدخل ميرال لتدهورت حالتي أكثر.

هل هي طيبة حقًا كما تدعي أم أنها تنتظر الفرصة لتقتصّ مني؟ أصبحت أعاني من ازدواج مشاعري أشعر بالحنين إلى ميرا في غيابها فأجلس بالأيام أفكر فيها، وأسترجع حياتنا معًا بشيء من الخجل، تمنيت أن أعوضها عن ما فعلته معها، لكن مشاعري كانت تتغير لحظة ظهورها أمامي، ويطغي عليّ شعور غريب بالكراهية، ربما لأنها كانت تذكرني بكل ما حرمت منه بلباقتها وحماستها التي تلفت الأنظار إليها.

بعكسي كان الجميع يرى أني متبلدة المشاعر وكئيبة، لم تكن الحياة عادلة حين اختصت شقيقتي بالفتنة والجمال ورمتني بالقبح والتبلد، لكن ما ذنبها في هذا؟

ذنبها أنها كانت المفضلة لدى والدي ربما لو وجدت رعاية من يامن لما وصلت لهذا الحال.. قطع أفكاري دخول ميرال المفاجىء، هذا ليس موعد زيارتها ما الذي أتى بها الآن؟

- هيا اجمعي أغراضكِ سنرحل.
- لكن أنا ما زلت مريضة.
- لا وقت لديّ لاعتراضاتك، ستأتين معي رغم أنفك.
- هل اشتقتِ للعيش معي؟

- بالطبع لا، لكن مضطرة لمغادرة المدينة.
- وما دخلي أنا بهذا؟
- أنا لا أحتمل العيش بمفردي لذا ستأتين معي، أنتِ مدينة لي بالكثير يا مرام وحان موعد سداد فاتورتكِ.
- لكن الطبيبة المتابعة لحالتي لم تصرح بخروجي بعد..
- لقد مررت بها ووافقت على مغادرتك، سأذهب لاستكمال إجراءات خروجكِ وحين أعود لن أنتظرك لدقيقة أخرى.

انطلقت كالعاصفة مثلما جاءت، ما هذا الجنون؟ لماذا تصر على اصطحابي بهذا الشكل؟

نهضت لأحزم أغراضي فلم يعد مكان إقامتي يشكل فارق، عادت ميرا للغرفة بزوبعتها وصاحت في استعجال:

- هيا احضري حقيبتكِ وتعالي خلفي.
- ألن تساعديني؟
- ساعدي نفسك، أنتِ مريضة نفسيًا وليس جسديًا.

لم أعتد منها على هذا الجفاء منذ أن أتت بي إلى هنا وهي تحيطني برعايتها، ما الذي غيرها إذًا أتراها قررت تصفية حسابها معي الآن! جلست صامتة على مدار ثلاث ساعات أراقب قيادتها المتهورة بهلع بعد أن فشلت في الحديث معها، وأخيرًا وصلت إلى الشقة التي استأجرتها في وسط المدينة، انصرفت وتركتني وحيدة بعد أن أرشدتني إلى غرفتي تفحصت الشقة بفضول، كانت أقل مساحة من منزلنا لكن كانت أجمل، كانت ميرا تقف بالشرفة والوجوم يعلو وجهها.

- ألن تخبريني ما الأمر؟
- لماذا حتى أعطيك فرصة للشماتة بي؟

- هل ستصدقيني لو أخبرتك أن هناك شيء تغير بداخلي تجاهكِ منذ أفقت بالمصحة، لا أنكر أنَي كنت أكرهكِ قبل ذلك لكن أدركتَ الآن أنكِ آخر ما تبقى لي.

- ما الذي جد ألم أكن عاهرة لئيمة؟ أين ذهب أصدقائك وعملك وأقارب والدتك؟

- كل هذا كان سراب صديقاتي.. كانوا في منافسة دائمة معي ولم أجد بينهن من تساعدني أثناء مشاكلي مع خالد، وأقارب شذى وقفوا ضدي ولم أرى منهم سوى الشماتة والتشفي بسبب ما فعله والدكِ.

- أنتِ من أعطيتهم الفرصة للتشفي بكِ، من البداية وهم ناقمين علينَا، هل نسيتِ أسلوبهم الشنيع في التعَامل معكِ؟

- لم أنسى لا زالت كلماتهم الساخرة تتردد في عقلي.

- لماذا سلمت نفسكِ إليهم إذًا؟

- أردت أن أكسب ودهم كنت أطمع أن تكون لي عائلة كبيرة مثل صديقاتي.

عادت ميرال لتنفث سيجارتها بشرود لم اراها يومًا بهذه الحالة من الهدوء والصمت وكأن عمرها تضاعف فجأة، لا زلت لا أصدق أننا نجلس الآن سويًا نتبادل أطراف الحديث دون إهانة. قطعتُ الصمت

- لقد فقدت عملي.

- سنجد لك عمل في المطعم الذي أعمل به فلا يعقل أن تجلسي في المنزل ليل نهار، ووجدت لكِ مصحة هنا لتواصلي جلساتك.

- ماذا سأفعل في المطعم؟ أنا لا أجيد الطهو مثلك.

- سنجد شيئًا يصلح لكِ أنت سريعة التعلم ولديكِ مهارة عالية في التنظيم.

كنت أستمع إليها في ذهول وهي تمدحني بعفوية وصدق، أين اختفت المراهقة الغاضبة؟

- ماذا عن زوجكِ هل هو السبب وراء انتقالك إلى هنا؟

- إياك أن تتواصلي معه أو تخبريه بمكاني، وانسي مواقع التواصل نهائيًا فحازم ناجح في تقفي الأثر ولا أريده أن يصل إلى مكاني ولا تذكريه أمامي ثانية، فهمتي.

- ماذا حدث لكل هذا؟ الشاب متيمًا بكِ ولا يستحق هذه المعاملة منكِ.

رمقتني بلا مبالاة وعادت إلى شرودها.

(٥٧)

لقد رحلت تاركة خلفها فراغًا بحجم الكون، وتركتني غارقًا في تخبطِ وعتمتي بعدها، كانت تمنحني شعور رائعًا عن نفسي وعن العالم والحياةَ بأكملها! فجأة وبدون مقدمات أغلقت هاتفها فظننت في البداية أنها أضاعته، لكن اكتملت صدمتي حين ذهبت إلى السكن لأجدها رحلت وأخبروني في المطعم أنها استقالت لقد هجرتني إذًا.

ذهبت للمصحة التي تقيم بها مرام فلا بد وأنها على علم بمكانها، لكن وجدتها رحلت معها، فتشت المدينة بحثًا عنها، وظننت في البداية أنها عادت لمنزل والدها من أجل مشاكستي لكن أدركت أنها هجرتني حين ذهبت إلى هناك ولم أجد لها أثر.

عدت إلى جاسر لقد تسببت تعليماته في رحيلها، لم أقوى على انتظار خروج المريض الجالس بالداخل فاقتحمت المكتب بغضب

- لقد أضعتها بخزعبلاتك، هل هذه هي فكرتك عن العلاج؟

- اهدأ واشرح لي ماذا حدث؟

- لقد اختفت ميرال ولم يعد لها أثر.

- ربما ذهبت في إجازة قصيرة وستعود هذه مجرد حيلة منها لإثارتك.

لم أحتمل ردود أفعاله الباردة فسددت له لكمة أخرسته، مررت بحور الطبيبة التي كانت تتابع حالة مرام فربما تكون على علم بمكانهما، استقبلتني في هدوء.

- لقد أتت ميرال إلى هنا بالفعل واصطحبت شقيقتها وغادرت.

- هل أخبرتك عن مكانها؟
- لا لكنها أخبرتني أن أهنئك على نجاح خطتك في علاجها، ماذا حدث؟

أخبرتها عن مرض ميرال وخطة جاسر لعلاجها، لقد كان جاسر على خطأ بسبب حالة الإسقاط التي مارسها على ميرال، كان يرى فيها شخصية ساندي ابنة عمه الضعيفة، كم كنت أحمق حين اتبعت تعليماته، وها هي رحلت بعد أن فقدت الأمل مني، اعتذر لي جاسر ووعدني بالمساعدة وطلب بيانات درجتها البخارية لكن تأخر كثيرًا في الوصول إليها.

ظننت بأنها ستعود مع بدء الدراسة وانتظرتها كثيرًا عند المعهد لكن بلا جدوى، حتى لؤي كان يجهل مكانها، وأصبحت في خلاف دائم مع روان ليقيني بأنها تتواصل معها سرًا، ودخلت في شجار معها حين رأتني أعبث بهاتفها..

- توقف عن التفتيش خلفِ، أخبرتكَ أني لا أعلم أي أخبار عنها.
- لكنها لا زالت على تواصل معكَ؟
- أحيانًا تتواصل معي من أرقام مختلفة، لكن في كل مرة أعاود فيها الاتصال بها أجد الهاتف مغلقًا، لقد أخبرتني أنها بخير وبأنها تقيم مع شقيقتها.
- أين هي يا روان كُفِ عن التلاعب بي؟
- ماذا تريد منها الآن بعد كل ما فعلته بها؟
- أريد الاطمئنان عليها، ميرال لا تعرف كيف تعتني بنفسها وستؤذي حالها.
- أنتَ من دفعتها للاستغناء عنك، لقد هربت من قوانينك الجافة.
- هذه المرة كنت أظن أني أساعدها، هكذا أخبرني المعالج.

- كيف بسخريتكَ اللاذعة أم بقوانينكَ الجافة؟

- لا جدوى من الحديث معكم كنت أعرف من البداية أنها هشة ضعيفة ولا تصلح لشخص مثلي.

استطاع جاسر الوصول إليها من خلال لوحة دراجتها البخارية، التي قادته إلى مطعم بالقاهرة تتردد عليه يوميًا، دونت عنوان المطعم واتجهتُ إليها، لكن ماذا لو وجدت دراجتها ولم أجدها فربما تكون قد تخلصت منها قبل أن يبتلعها الغياب، كدت أموت من فرط القلق، ووقفت خارج المطعم الكبير بتردد ، لمحت شقيقتها تقف بزاوية المكان وتشرف على الصالة، هي تعمل هنا إذًا.

احترت بين الدخول والانتظار، لو دخلت الآن ستتهرب مني وربما لا أعثر عليها ثانية، قررت انتظار خروجها وتتبعها، على الأقل سأجد الفرصة للحديث معها بعيدًا عن أعين المتطفلين، أه ما أصعب الانتظار حين يخالطه الحنين!

لم تظهر منذ وصلت، هل أصبحت تعمل داخل المطبخ كما كانت تتمنى؟ نهضت مرام مغادرة فانفرجت أساريري وظننت أن ميرال ستلحق بها لكنها لم تظهر، ربما لم تنتهي من عملها بعد.

لمحتها تتجه إلى دراجتها ولم تلحظ وجودي، ارتدت خوذتها وانطلقت باتجاه الكورنيش حيث البنايات السكنية الراقية، توقفت أسفل بناية شاهقة مبنية على الطراز الإنجليزي تطل على النيل مباشرة لقد أحسنت اختيار المكان، ما دامت تفضل هذا المشهد فلن أحرمها منه وسنقيم هنا بعد الزواج.

(٥١)

كانت المصائب تتساقط فوق رأسي تباعًا على مدار عامين لا أعلم أيّ مصيبة كانت أشد وقعًا عليّ من أختها، وفاة يامن أم زواج مرام من خالد، محاولة وليد الاعتداء عليّ أم وفاة شذى قبل أن أتمكن من مواجهتها، وأخيرًا جنون حازم الذي أفقدني بقايا صبري!

حاولت أن أعرف ما الذي أصابه في الفترة الأخيرة، وعرضت عليه أن نستكمل جلسات العلاج معًا، لكنه تجاهلني وظل على جفائه، كان غيابه عني هو القشة التي قسمت صبري، لا زال بحاجة ليتعلم كيف يحافظ عليّ ولن يفعل هذا إلا حين يفقدني.

«بات عليها الآن أن تمارس حُزنها في صمت بعيدًا عنه فهي من جلبت على قلبها هذا الوجع من البداية وارتضت به في إصرار وكتمان، فما جدوى التمرد والعتاب الآن؟»

فوجئتُ به الليلة يقف عند المطعم الذي أعمل به مع عمر، وشى قميصه المقلوب وبنطاله الذي لم يعرف طريق الكي لأنه كان في عجلة للمجيء، تجاهلته وأخذت طريقي إلى المنزل.

وما إن توقفت أسفل بنايتي حتى قفز من سيارته ولم يعطني الفرصة لترك الدراجة، وقف مشدودا يتأملني بنظرة بلهاء، لقد كنت أعد نفسي لهذا اللقاء حتى يأست من حدوثه ومع هذا لم أتخيل أن تكون هذه ردة فعله، ربما لأن الغياب طال هذه المرة أكثر من اللازم! ترك مكانه فجأة وحملني من على الدراجة في عناق محموم أفقدني تماسكي، كنت أكافح دموعي المشتاقة إليه فيما انسابت دمعاته على وجنتي.

- أنتِ بخير أليس كذلك؟ لقد رفضوا إخباري عن مكانك لكن هذا لم يمنعني من الوصول إليكِ هل تعلمين أني كنت أراقب السكن والمعهد والمقهى كل يوم؟

كان يتحدث بسرعة ولهفة جعلت من الصعب إيقافه وكنت أضغط على قلبي حتى لا أنفجر أمامه بالشوق المشتعل بداخلي، لقد تأخر الأحمق في الوصول إليّ.

- ميرا هيا لنعود إلى المنزل جدتي ستفرح برؤياكِ سنتزوج غدًا لقد فهمت كل شيء، يا حبيبتي صدقيني هذه المرة، لقد اتبعت تعليمات جاسر المعتوه.

- لقد جعلتَ مني فرجة للعالم يكفي هذه الفضائح وعد من حيث أتيت.

كنت أستمع لنفسي وأنا أردد هذه الكلمات بجزع وقهر، لم أتخيل أن أعامله بهذه القسوة لكنه أجبرني عليها.

- أعلم أنكِ غاضبة مني، لقد تماديت في تصرفاتي الأخيرة معكِ لكن كل هذا انتهى صدقيني.

قفزت إلى دراجتي وسط دهشته وأعدتها إلى الجراج كان يقف مصدومًا من تجاهلي له، يا الله امنحني القوة حتى لا أنهار أمامه.

- ألا زلت تقف هنا ألم تكتفي بالفضائح التي تسببت فيها؟

- لن أذهب إلى أي مكان بدونكِ أنتِ زوجتي وليس لهم دخل بنا.

- أصبحت زوجتكِ الآن بعد أن كنت تشعرني بأني لا أليق بك وتتهرب من تحديد موعد زواجنا، كنت ترى دائمًا أن هناك أشياء أجمل من أن تقيد نفسك بي.

- لم أفكر فيكِ بهذه الطريقة أبدًا، منذ اللحظة الأولى وأنتِ تسكنين قلبي لكن كنت أخشى عليكِ من شدة تعلقك بي وأخبرني جاسر أني سأتسبب في إيذائك بسبب التصاقي بكِ لذا ابتعدت عنكِ حتى يحين

موعد الزفاف.

أجبته ساخرة:

- كلها أكاذيب يبتدعها الرجال للهرب.

- اسمعي جيدًا ليس هناك ما يرغمني على البقاء معكِ لو لم أكن أحتاجكِ بجنون، لكن ظننت أننا بحاجة إلى المزيد من الوقت حتى لا نفسدَ علاقتنا، كنت أنوي إتمام زواجنا حين تنتهي وساوسي وتتخلصي من اضطراباتك.

- جيد سنتزوج بعد الموت إذًا!

قلتها وركضت إلى البناية لا أدري كيف وصلت إلى شقتي؟ أغلقت الباب بقوة وجاءت مرام على صوته لتجدني أقف خائرة القوة ظهري ملقي على الباب، وكأني أمنع أحدهم من اقتحامه.

- ماذا حدث هل هناك من يلاحقك؟

- انه بالأسفل.

قلتها وانطلقت إلى الشرفة كان يقف حيث تركته وكأنه ينتظر ظهوري، من أخبره أني سأخرج إليه، وقفنا نتطلع إلى بعضنا في شوق كنت أراقب التغيير الذي ظهر عليه وأشبع عيني منه استعدادًا للغياب القادم، أشاح بوجهه عني قليلا حين دخلت مرام إلى الشرفة فوجدتها فرصة للانسحاب أعلم أنه على استعداد ليمضي الليل كله هكذا.

- ماذا يفعل حازم هنا؟ هل ستتركيه بالأسفل؟

- بلى، وإياكِ أن تتحدثي معه يا مرام.

- لكنه زوجكِ ولا يصح أن نتركه واقفًا هكذا.

- لأنه زوجي سأتركه أسفل البناية، عودي إلى غرفتك يا مرام أو ستقضين ليلتكِ على السلم.

ظل المجنون يتبعني مثل ظلي أينما ذهبت، أحيانًا يحاول الحديث وأحيانًا يكتفي بمراقبتي كان يختفي في النهار ويظهر في المساء، أصبحت مشتتة لا أدري ماذا أفعل معه؟ نسيت الخطة التي وضعتها من أجله.

ولم تتوقف مرام عن عتابِ لقسوتي معه، كانت تشفق عليه من وقفته اليومية أسفل الشرفة، خاصة بعد ما أخبرتنا روان أنها لم تعد تراه بالمنزل إلا في الصباح حين يذهب لاستبدال ثيابه، هل أصبح يقضي أيامه في الترحال من مدينته إلى مدينتي؟

(٥٩)

كان الجميع يطالبني بالعودة إليه بعد أن عانى طويلًا حتى عثر عليّ، هل يظن هؤلاء الحمقى أننا كنا نلعب الغميضة معًا؟ ألم يسخروا من ضعفي أمامه!، ألم يطالبوني ببعض الحزم؟ لماذا هاجموني الآن حين بدأت في استرداد حقي؟ لا زالت الخطة ببدايتها وعليه أن يتعلم الصبر إن كان يريد عودتي.

اتصلتُ بحنان لاستشارتها كنت بحاجة إلى رجاحة عقلها.

- لماذا كان يراني ضعيفة رغم أني كنت أحاول الاعتماد على نفسي؟
- لأنك تعلقتي به، دعيه يظن أنه تملك منكِ ووصل إلى أعماقك ثم أدهشيه بعكس ما توقع، دعيه يكتشف فيكِ أمور جديدة لم يرها فيكِ من قبل حتى ينشغل بالتفكير فيكِ وينسى وساوسه.
- وكأني في مهمة صيد لا علاقة حب.
- زكاء العلاقة يكمن في الحفاظ علي المسافة بين القرب والبعد حتى يبقى الشغف بينكما.
- لعنة الله على الشغف.
- حازم يستخدم الجانب العاطفي والعقلي معًا لذا عليكِ أن ترضي بكليهما لقد نجحتي في الفوز بقلبه، لكن لم تتغلبي على عقله بعد.

لاحظت الصداقة الجديدة بين حازم وعمر وأصبحا يجلسان معًا ويتبادلان الحديث بلهجتيهما الشامية وكأنهما صديقين قديمين، منذ متى وهو يتحدث بهذه اللهجة؟ ما دخلي أنا بهذا العبث؟!

استيقظت في صباح اليوم التالي على صوت مرام الخائف وهي تخبرنى بأن حازم سيوقظ الجيران بجنونه ويتسبب لنا في مشكلة معهم.

وصل إليّ صوت الكاسيت العالي يصدح وسط الهدوء بموسيقى وكلمات ليست بالغريبة على أذني هذه إحدى قصائده المفضلة.

«لأقعدن على الطريق وأشتكي وأقول مظلوم وأنت ظلمتني» خرجتُ إلى الشرفة لأجده يفترش الرصيف ويصيح مرددًا «ولأدعون عليك في غسق الدجى يبليك ربي مثلما أبليتني»

عدتُ إلى الداخل وقررت أن أعطيه سببًا حقيقيًا ليواصل الدعاء عليّ بضمير مستريح.

صاحت مرام بذهول:

- أنتِ لن تفعلي هذا تعقلي يا ميرال؟

وسبقتني إلى الشرفة وراحت تقفز وتشير إليه لتحذره لكنه واصل الصياح بقصائده، فسكبتُ دلو الماء فوق رأسه.

لم يتوقع حازم أن يصل الجنون بميرال إلى هذا الحد وظن أنه سيجبرها على النزول بهذا الصخب في هذا الوقت المبكر، وما إن استرد وعيه حتى صعد إلينا، لم أحتمل طرقاته الغاضبة ففتحت الباب ولم ينتظر دعوتي وانطلق يبحث عن شقيقتي المجنونة.

- ماذا تفعل هنا؟ كيف تجرأتي على السماح له بالدخول؟ يومك أسود من ليلكِ يا مرام.

رفعها في الهواء وسط صياحها ثم حملها إلى الحمام ووضعها أسفل الصنبور البارد، وقفت ترتعش من الغضب لم تتخيل أن يصعد إليها

ويعاقبها بهذا الشكل، تركتها وناولته منشفة وأعدت إليه سترته الجلدية التي كانت ميرا تحتفظ بها، فارتداها وعاد من حيث أتى.

ذهبت لتبديل ثيابي بعد أن قررت أن أغرقه هو وسيارته عبر خرطوم المياه، لكن فوجئت باختفائه هو ومرام، هل اختطفها؟

كانت مرام تجلس معه في السيارة بعد أن أعدت له كوب شراب ساخن ولحقت به أثناء انشغال ميرال، فوجدها فرصة رائعة ليعرف منها أخبار شقيقتها المجنونة، انطلق بها مبتعدًا عن البناية.

- ماذا تفعل توقف وأنزلني فورًا؟
- لا تقلقي سنتحدث قليلًا ثم نعود.
- ستقذفنا ميرال بالزيت المغلي لو رأتنا معًا.

كنت أراقبه بانبهار وافتتان من قدرته على تحمل أفعال ميرا وعشقه الجلي لها، أوقف السيارة على بعد شارعين من منزلنا.

- هل يرضيك ما تفعله بي شقيقتك؟ على مدار شهرين وأنا أحاول استرضائها.
- لقد حاولت الحديث معها كثيرًا لكنها تصرخ حين أذكر اسمك وتغرق في البكاء.

سألها بجزع:

- هل تبكي؟ ما الذي يبكي حبة قلبي وريحانته؟
- نعم تبكي كل ليلة بعد رحيلك.
- ما الحل معها إذًا هل تعتقدي أنها لا زالت تحبني؟

صدمت من سؤاله هل فقد الأمل من ميرال!

- بالتأكيد، لقد أخبرتك للتّو أنها لا تتوقف عن النحيب بعد مغادرتك، كما أنها كانت تدخن بشراهة قبل عثورِكَ عليها.

- هل عادت إلى التدخين؟

تهربت من الإجابة بعد أن أدركت بأني وقعت بفخّ.

- أخبريني كيف سامحتكَ بهذه السهولة؟

- ميرال لم تغفر لي ما فعلته بها وأخبرتني بتلك العبارة حين سألتها عن سبب مساعدتها لي«لأنكِ شقيقتي قطعة مني حتى لو خذلتني فلن أقوى عن التخلي عنكِ بَعد أن جمعنا رحم وجسد واحد، لكن سأقتص منكِ على ما فعلتِيه لكن فيما بعد».

استقبلتني ميرال بعاصفة نارية راحت تلعني وتلعن حازم حتى بحّ صوتها وعادت إلى غرفتها لتمارس هوايتها في البكاء على أنغام أغانيها الحزينة، فذهبت خلفها بعد أن رأيتُ أن استمرار ما يحدث سخف لا نهاية له.

- إلى متى سيستمر هذا الوضع؟

- حتى يفقد الأمل من عودتي.

- ربما يرفض العودة إليك بعدها.

- عليه أن يجرب لوعة اليأس ومرارة الإحباط التي تجرعتها على يديه على مدار عامين.

- من يحب يغفر! أليست هذه هي كلماتك؟

- أنا أتعذب أكثر منه لأني أمنع نفسي عنه مرغمة، لكنه لم يترك لي حل آخر، هذا هو علاجه كي يُشفى من وساوسه.

- هل أصبحتِ أخصائية نفسية الآن؟

ظننت أنه سيفقد الأمل مني بعد ما فعلته به، لكن فوجئت به في المساء ينتظرني أسفل البناية وقفت أنتظر أن يفسح الطريق أمامي لكن عوضًا عن هذا أدار لي ظهره ورفع سترته، شهقت بفزع بعد أن لاحظت الكدمات الطولية التي تمزق ظهره.

- ماذا حدث لكَ؟
- كنت أعاقب نفسي بالأمس لأجلكِ.
- هل جننت كيف فعلت هذا بنفسك؟
- بل كيف فعلت هذا بك؟ كل يوم يمر وأنتِ بعيدة عني أتذكر فيه قسوتي عليك فيزداد وجعي ويتضاعف، مرة لأني أذيتكِ والثانية لأني السبب في قسوتكِ الآن.
- إياكَ أن تكرر هذا الجنون مرة ثانية.
- إذًا توقفي عن النحيب، عاقبيني بأي طريقة، فيما عدى دموعكِ الغالية.

انطلقت إلى شقتي ووقفت أراقبه ككل ليلة، لم أعد أقوى على احتمال ما يحدث، وهو يرفض التخلي عن الأمل في عودتِ ما الحل إذًا؟

(٦٠)

تغيرت نظرتي إلى نفسي بعد أن غادرت المصحة، أدركت بأني لم أكن ضحية في معظم الوقت كما كنت أتخيل، كل ما حدث معي كان نتيجة أفعالي وتصرفاتي، تغيرت قناعتي تجاه المحيطين بي بعد أن وجدت مبرر لتصرفاتهم معي،

أصبحت أتأثر بحديثٍ مع ميرال، ولأول مرة أراها بعيدًا عن الوهم الذي سيطر عليّ منذ طفولتي بأن ميرال سرقة حب والدي مني، رأيت فيها طفلة قوية وقفت بوجه خالد في الوقت الذي كنت أخشاه فيه، وساعدتني في الخلاص منه.

رأيت يامن كمريض عانى طويلا دون أن يعرف ما يحدث له وفوجىء في لحظة وعي أنه فقد حبيبته وتزوج بأخرى خدعته! وقبل أن تنتهي صدمة زواجه منها وجد نفسه أب مسؤول عن طفلين متقاربين في العمر تلاهما طفلة صغيرة تخيل فيها وجه حبيبته.

أدركت أن والدي كان يعاقبني لأني تخليتُ عن حماية شقيقتي الصغيرة كنت أطمع في إرضاء شذى وكسب حبها، كنت متعلقة بها بشكل جنوني رغم أنها كانت تعاملنا بقسوة.

ترى هل عوض يامن ميرال عن حنان والدتي؟ لم يكن حنونًا بقدر ما كان كريمًا معها في كل شيء الإنفاق والهدايا لقد ترك لها حرية التصرف، لكن هذا ليس بالأمر الجيد ففي النهاية لم تجد من يوجهها وها هي تائهة، لكن يكفي أن تحيزه لها جعلها قوية لا شيء يقدر على إيقافها سيظل الأب هو جدار الأمان الذي فقدته.

لم أعد أحقد على شذى لقد أعمتها الغيرة وأكلت قلبها، لهذا كنت أرى أنها تستحق الشفقة فالكراهية مرض خبيث يدمر صاحبه ويتغذى عليه، وربما كانت مريضة كجميع من عاشوا في هذا المنزل.

قررت العودة إلى عملي وافتتاح صيدليتي مرة ثانية، يكفي خمول لقد عانيت جدًا حتى نجحت في دراستي ولن أضيعها بسهولة، يكفيني ضياع حياتي الاجتماعية.

فوجئت بعودة ميرال إلى المنزل شاحبة الوجه والرعب يكسو ملامحها، حاولت أن أعرف ما بها لكن فشلت، ما الجديد.. فهذه طبيعتها تمر بحالة مزاجية مختلفة في كل لحظة راهنت نفسي على أنها ستعود لترقص بصخب بعد دقائق.

سأنتظر عودتها إلى رشدها وأخبرها بقراري بالسفر، وإما أن تعود معي أو سأرحل بمفردي.

«هل يعقل أن يكون أحدنا أقرب للآخر من الوريد للجسد ثم يحجُبنا غياب وسفر!»

كنت أقطع المسافة كل ليلة من القاهرة للإسكندرية عائدًا كي أراها، على الرغم من تجاهلها لي فإنها على حق في كل ما تفعله بي، فقد كنت دائمًا أهتم بإرضاء عقلي على حساب قلبها، لقد دفعتّ ضريبة باهظة لإعجابي بها.

طال غيابها هذه المرة عن المحتمل ولم أعد أعرف هل ستعود إليّ أم أنها رحلت للأبد؟ وقفت أنتظر خروجها من المطعم.

- مساء الخير.

رمتني بنظرة باردة وارتفع حاجبها في استفهام.

- ما رأيكِ أن نذهب إلى مكان هادئ لنتحدث؟

- لم يعد لدينا ما نتحدث عنه لقد انتهى كل ما بيننا بفضلك.

- أعلم لكن ما رأيك أن نكمل زواجنا الآن وافعلي بي ما شئتِ بعدها.

- هل نسيتَ عندما كنت أترجاكَ كي نحدد موعد زفافنا فتتهرب مني؟

- لم أنسى لكن دعينا نكمل العقاب ونحن معًا لم أعد أطيق غيابكِ عني، لم أعد أستطيع التركيز في أيّ شيء، حتى عملي أهملته.

- لا زلت لا تفكر سوى بنفسك تظن أني قطعة شطرنج تلقى بها بعيدًا حين يتحكم فيك عقلك المريض، ثم تعود لتقربها منك حين تفشل في السيطرة على قلبك، لكن الأمور لم تعد تجري وفق رغباتك لقد خسرت فرصتك الأخيرة معي وانتهى الأمر.

- ميرا كفِّ عن هذا الحديث فلن أترككِ ترحلين عني بعد الآن وسنصبح في النهاية معًا فلماذا نضيع الوقت؟

صاحت:

- لأنكَ تخليت عني في الوقت الذي كنت أحتاجك فيه، كنت أدافع عنك دائمًا حين يتهمك الآخرين بالبرود، وكنت تلفظني وتترك ظهري عاريًا لقسوة الحياة، لم أكن أقوى منكَ وقتها لكنكَ كنت اختياري الوحيد، توقف عن مطاردتي وإلا سأمضي في إجراءات الانفصال.

تركتني غارقًا بصدمتي ورحلت، ما الذي أوقعني في حب شخصية معقدة مثلها؟، كانت تصر دائمًا أن تبقى خارج القوانين التي وضعها عقلي لفهم النساء.

يومًا ما كانت له كالخمر، تغيب عقله قبل أول رشفة، رائعة تذيب كل شيء حتى الأعصاب خطفت أنظاره بجاذبية خارقة فتقدم نحوها بخطوات مثقلة وصل لحيز سحرها لم يتفوه بكلمة فلا مساحة للكلام

في حضرة عينيها، كانت أنثي تعرف الطريق إلى تفاحة آدم أخرجته من جنة البشر لتقذفه وبقوة في جنتها هي وفقط أنثى لها مذاق خاص دون النساء جميعهن يصلحن للعشق، ولكن ليس جميعهن يصلحن للإدمان، فيا للفقر عمره لو فقدها وقد كانت أجمل ما مر به! [1]

(١) اقتباس مهدى.

(٦١)

انقطع حازم عن مطاردتها أصبح بإمكانها العودة إليه الآن بعد أن جعلته يدرك قدرتها على التخلي والغياب ويفقد الأمل منها، عادت إلى المدينة الساحلية لكن لم تجده في العمل ولا في منزل جدته ولم يكن في شقته أيضًا، فذهبت إلى مكانهما السري على الشاطئ، كان يجلس مديرًا ظهره للطريق ووجهه للبحر.

اقتربت منه فشعر بوجودها وجذبها إليه، وراح يتأملها بشوق ويروي ظمأه لها بعد أن أدماه الحنين لها، شعرت بوجعه فاحتضنت رأسه بين راحتيها وداعبت بأناملُها خصلاته برفق وحنان، أُنثى في حنانها كانت تُحرك الطفل الحَزين بِداخلهُ وتجيد احتوائه فَكيفَ ينساها؟ أَرَق دَمعهُ مُقلتيَها فبكَتهُ وبكَت معه كان كُلما اختنق بالعتاب التصق بكتفها حتى تضمهُ إليها أكثر وتَجذبه في عناق أذهب عنه جل أوجاعه، أفاق على دمعها الساخن يروي وجهه.

- ماذا حدث؟ لماذا تبكي؟

همست بصوت مرتجف

- رأيتك تبكِ فبكيت لبكائك!

كان سيغضب من جوابها في الماضي لكنه أدرك الآن أنها كانت تشارك وجعه بالقدر المتاح أمامها، يكفيه أنها لم تلاحقه بتسائلها أو تستخف بدمعه وتأخذه بمحمل الضعف، لقد أحست به فاحتوته بدمعها.

كان كل ما فيها يسرق لبه، سيجن لو سلمها عقله وسيموت شوقًا لو ابتعد عنها، ليجن، ألا يقال بأن المجانين بنعيم؟ ليمنح عقله إجازة من التفكير، هل كان عليه أن يكابد كل هذا الشوق حتى يتذوق لذة الاستسلام والضعف! غنى لها من فرط سعادته وشوقه:

«أصابك عشق أم رميت بأسهم، فما هذه إلا سجية مُغرمِ، ألا فاسقيني كاسات وغني لي بذكر سُليّمِ والكَلام المُنعمِ»

همس بخفوت وكأنه يستأذنها:

- سنتزوج إذًا؟

- نعم، فيكفي الفضائح التي أثرناها حتى الآن.

نهض وجذبها، همست متسائلة:

- إلى أين؟

- علينا أن نبتاع لكِ فستان للعرس وبدلة أنيقة لأجلي، ونخبر الجميع بزفافنا.

- هل تظن أن الأمور تسير بهذه البساطة؟

- نعم سنخبرهم بأن زفافنا غدًا، ونديربعض الموسيقى ونعلق الزينة واللمبات دعي هذه التفاصيل لروان فهي متفرغة الآن ولا شيء يشغلها بعد سفر مازن سوى المواعظ التي تلاحقني بها.

- لقد فقدت عقلك، أي زفاف هذا الذي يتم التحضير له في ساعات؟ لن أرضى بعد كل هذا الانتظار بزفاف لا يحضره أخي، لقد صبرت وتحملت كثيرًا وأستحق زفاف أسطوري.

- أعدك أن يكون زفافنا أجمل زفاف في البلدة وأن يتحاكَ عنه الجميع لزمن طويل، لكن أخبريني هل بإمكانكِ أن تحبيني يومًا مثل شقيقكِ؟

- لا.

صدمه جوابي فكسا الوجوم وجهه.

- لأني أحبك أكثر من شقيقي، ومن أي مخلوق على وجه الأرض.

جذبني إلى السيارة وانطلق.

- إلى أين سنذهب؟ لقد تركت دراجتي هناك

- سأريكِ الشقة التي جهزتها لزواجنا.

- أنا أريد العيش بشقتكَ.

- حسنًا، سنذهب لنرى ما ينقصها.

- دعنا نعود إلى جدتك، ونبدأ الاستعداد للزواج غدًا.

كانت تجهيزات الزواج تُجرى على قدم وساق، ومنعتني جدتي من الحضور إلى المنزل حتى لا أرى ميرال فينطفىء شوقي إليها، حاولت أن أعترض لكنها أصرت على تلك العادة القديمة فلجأت إلى ميرال وحاولت التحايل عليها بحجة تجهيز الشقة للزواج لكنها رفضت إجراء أي تغييرات عليها.

ولم يبقى أمامي سوى الصِبر كنت أراقبها وهي تستمتع بكل لحظة تمضيها بدوني في حين أني سأجن من غيابها، بدأت أرتب لحياتي معها، أحضرت الكثير من الكتب التي تتحدث عن الحياة الزوجية كعادتي في دراسة كل شيء.

تخيلت كيف سيكون ردها لو رأتني الآن وأنا أجلس محاطًا بعشرات الكتب وشاشة حاسوبي تزدحم بالمقالات الحديثة عن الزواج، ستسخر مني قائلة هذه الأمور العفوية لا تحتاج إلى دراسة، كنت أراها مندفعة تستمتع بتجربة كل شيء دون تفكير، لكن كان الفارق بيننا شاسع ومع هذا كان وجودها يشعرني بالأمان ويربطني بالعالم من حولي.

أمضت الأيام المتبقية على زواجها في التنقل بين محلات الثياب والعطور ومعها شقيقتها وصديقتيها كن يحمسنها على شراء جميع ما تقع عيناها عليه، فلا مجال معها للاختيار بين قطعة ثياب وأخرى، وكأن الثياب ما خلقت إلا لها، لقد ولدت لتكون عارضة أزياء بالفطرة.

لكنهم عارضنها ذات مرة حين وقفت أمام محل يعرض ثياب شعبية وأزياء للرقص وقفت تشاهد عارضته بافتتان واندفعت إلى الداخل، فوقفن يراقبنها بذهول هل حقًا ستجرؤ على ارتداء هذه الأشياء أمام حازم؟

كانت كل واحدة منهن ترفض أن تظهر هكذا ولو سرًا، لقد تربين أن إظهار الجمال عيب يجب دفنه، لم يدركن أن هذه القاعدة تتوقف عند نطاق الزواج وأن على كل طرف التفنن في إبهار شريكه، وحدها كانت تملك الثقة التي تجعلها تظهر هكذا دون خوف أو خجل مما سيظنه حازم بها، ربما لأنه أمدها بالثقة وكسر حاجز الخوف الفطري بينهما.

حان الموعد المخصص لنقل أغراضها إلى عش الزوجية فانتظرت ذهاب حازم إلى العمل وانطلقت بعدها إلى شقته بصحبة الفتيات، انشغلوا بترتيب الثياب داخل الخزانة وعندما انتهين من تنظيمها وقفت ميرال مصدومة، لقد احتلت ثيابها كامل الأرفف.

أين سيضع حازم ملابسه بعد أن كدستها فوق الفراش! حتمًا سيقتلها لو عاد ورأى ثيابه الأنيقة مكومة هكذا، ولم تجد خزانة ثياب أخرى تكدس فيها أغراضه، اقترب موعد عودته بحثت عن مفتاح الخزانة حتى لا يعبث بأغراضها فلم تجده.

فانطلقت عائدة بصحبة الفتيات سينتقم حازم منها على ما فعلته بثيابه، لكن لا يهم هذا الآن فوصايا الجدة كانت صارمة، حذاري أن يراكِ قبل موعد الزفاف حتى لا يضيع منك سحر اللحظة.

عاد إلى الشقة ومنذ أن وطائها أحس بوجود شيء مختلفًا، كان عبيرها يطارده لكن من أين أتى؟ لقد نسى أنها كانت تحتفظ بنسخة للمفاتيح لقد استغلت غيابه إذًا، دلف إلى غرفته ليصطدم بثيابه مكدسة فوق الفراش بإهمال، لقد تعب في تنظيفها وتنظيمها لتأتي زوجته الفوضوية وتهدر تعبه ترى لماذا نفت ميرال ملابسه خارج الخزانة؟

اتجه للخزانة وأدهشه كم ملابسها ومضى يتأملها ما بين فساتين السهرات الجريئة والتي لن يسمح لها أبدًا بالظهور بها خارج منزله، وبناطيل من مختلف التصميمات أغلبها ضيق وقصير بشكل لا يوصف كيف سترتديها؟ ثم توالت المفاجأت السعيدة حين وقعت عيناه على ثيابها المنزلية الفاتنة هل حقًا ستواتيها الجرأة لترتديها أمامه؟

لا يهم حتى لو ظلت حبيسة الخزانة فيكفي أنها فكرت في الأمر، لقد كان يخشى من تأثير ما تعرضت له في طفولتها، بعد أن قرأ أن معظم من تعرضن لمحاولات الاعتداء يعانون من مشاكل فيما بعد ويرفضن العلاقات الحميمية، ظل يبحث عن طريقة للتعامل معها حتى أنه كان يتقرب منها ويتودد إليها في حذر، لكنها اختصرت عليه الطريق الآن لقد أثبتت أن لديها استعداد نفسي لتقبل الأمر ولن ترهقه.

(٦٣)

لم يعد لديها وقت لتختلي فيه بنفسها، فهي إما في صالون التجميل حيث تعتقلها أيدي العاملات بالساعات حتى ملت من الأمر برمته لكنها لم تقوى على الهرب، فمرام كانت تصرّ على أن تجعلها تظهر كأجمل عروس في البلدة وكأنها كانت تبرهن لها أنه لم يعد بداخلها أي ذرة للغيرة منها بعد أن أدركت أخيرًا ضريبة الجمال التي سددتها ميرال.

كانت بهجتها الوحيدة حين تدخل على الجدة في مطبخها الواسع وتفترش الأرض بجوارها وتغمس يداها في العجين لتشكل الكعك والفطائر المحشوة بالتمر أو الجبن بالزعتر وتزين الكعكات على شكل وردات مبهجة، ثم تنهض بعدها لتراقب برطمانات المخللات والمربى.

فكل هذا كان يذكرها بليلة العيد بمنزل جدتها القديم حين كانت تجلسها بجوارها تعد معها أقراص الكعك في حبور وسعادة لقد ولّت تلك الأيام وأصبح من النادر أن تجد مثل هذه الأطعمة في الأفراح أو الأعياد.

قاطعت الجدة حشد ذكرياتها:

- لا يعقل يا ابنتي أن تجلس عروس لم يبقى على زفافها أيام في المطبخ هكذا، ستعلق رائحة العجين والبصل بكِ، وسيظن حازم أننا كنا نعذبكِ.
- ليظن ما يظنه لن أضيع متعة إعداد تلك الأطعمة التي وُلى زمانها، لكن..
- لكن ماذا أين شردتِ؟

- لا شيء.

- أه من هذه اللاشيء التي تخفي ورائها كل شيء! هيا أخبريني ما الذي شغلك؟ ألم نتفق على أن تصارحيني بما يقلقك!

- بلى لكن الأمر يصعب البوح به.

- حاولي حتى يهدأ قلبك.

- ليت روائح الطعام تصرف حازم عن النوم قربِ حتى لا يستيقظ من حديثي المفزع أثناء النوم.

- حازم يعلم بحديثكِ أثناء نومك ووجوده قربكِ سيطرد عنك الأحلام المفزعة، لا تقلقي سأصعد خلفكم بالبخور وسنرش ذرات الملح في أركان الشقة حتى نطمس أعين الشيطان فينصرف عنكم لقد جهزت عدتي.

قضت الليل مستسلمة ليد الحنانة التي وشمت بشرتها البيضاء بحنتها الحمراء، والزغاريد تنطلق حولها مع القادمين من الجيران والصديقات ورائحة بخور الجدة تكاد تخنق أنفاسها لم تتخيل يومًا أن تقام لها ليلة عرس ساحرة كهذه، وأن يجتمع كل هذا العدد لأجلها.

أخيرًا أتى اليوم المنتظر، لم تنم ليلتها كانت مستغرقة مع الفتيات في الترتيب ليوم الغد، من كان يصدق أن هذا سيصبح حال الفتاة الهاربة التي كانت تدور بحثًا عن مأوى وعمل فتقابل بالاستعلاء والسخرية وهي تنحني لتنظف الطاولات، وتجلي الأواني بأناملها، ثم تعود للبكاء وحيدة كل ليلة بعد أن أيقنت أن هذا الحال لن ينتهي وسيستمر معها للأبد! هل حقًا مرت ثلاثة أعوام؟ أقبَل المساء أخيرًا وأتى لؤي ليصحبها من صالون التجميل إلى القاعة حيث كان حازم ينتظرها على أحرّ من الجمر، كانت ترتدي فستان أبيضًا منفوشًا بطبقات كثيفة من التُلّ والدانتيل مرصعًا بحبات اللؤلؤ الأبيض، عاري الكتفين يضيق عند الصدر ومنسدلًا على خصرها في اتساع، أخفت طرحة العروس وجهها وشعرها الكثيف.

ساعدها حازم على الوقوف، كانت عينيها الكحيلة تتسع بإفتتان وعدم تصديق أن هذا اليوم أتى أخيرًا بعد عامين من الصبر، رفع وشاح وجهها فبدت كالقمر ليلة تمامه، تأبطت ذراعه واتجهت معه إلى القاعة بعد أن تلقت كمية مذهلة من العناق والمباركة.

انتهى العرس بعد أن أعتل صبره، وصل إلى بنايته الشاهقة فحملها إلى المصعد هامسًا:

- لولا أن الطريق طويل وسنمضي الليلة على السلم قبل أن نصل إلى الشقة لما ترددت في الصعود بكِ.
- وهل كنت تخطط للقيام بقفزة حرة من الطابق الخمسين حين اخترت هذه الشقة؟
- أنتِ تعانين من رهاب الأماكن المرتفعة إذًا، هذه معلومة جديدة تضاف إلى قائمتك النفسية العظيمة.
- توقف عن تحليل نفسيتي ليس في ليلة زفافي أيضًا.

استقبلتهم رائحة البخور وضوء الشموع الخافت، سحبها إلى غرفة النوم ورماها بنظرة توعد:

- لن أنسى لكِ ما فعلتيه بثيابي واحتلالكِ العظيم لخزانة ملابسي.
- هيا اذهب من هنا أريد أن أبدل ثيابي.

كانت ترتعد بداخلها، لقد أتت اللحظة التي تخشاها، ولم يخطر ببالها أن تتعرض لهذا الموقف حين كانت تنتقم من نفسها.

وصلته نبرة الخوف في صوتها فربت على يديها وسحبها بهدوء الى الصالة حيث الموسيقى الهادئة، ضمها إليه وراقصها ببطء وهو يهمس لها:

«شَبيهك بدرُ التمّ بل أنت أنوَرُ، وخَدّك ياقوتةٌ وثغرك جَوهرُ، و نصفك كافورٌ وثُلثك عَنبرِ ومسكِ ماء وردٍ وباقيكِ سُكّرُ، خُلَقتي من الإشراقِ والنورِ والبهاء»

استكانت بين ذراعيه وتركت رأسها تستقر على كتفه، غاصت أنامله بين خصلاتها وحررها من تاجها الأبيض.

- كيف استطالت قامتكِ هكذا؟

أتبع سؤاله برفع ذيل فستانها ليضحك ساخرًا:

- كنت أعرف أن هناك خدعة، هيا اخلعي هذه الدبابة قبل أن تدهسي قدمي.

افترشت الأرض وانحنت تحرر قدميها لكن فستانها الضخم أعاق حركتها، لاحظ تعثرها فساعدها على الجلوس فوق الأريكة وجلس على الأرض يكمل المهمة عنها، كانت قدماها مدماة من كثرة الحركة والرقص فربت عليهما بحنان.

شخصت عيناها في جزع وشوق زاد من حدة جنونه ولهفته، وتحركت أنامله بخفة فوق قدميها حتى وصل عند أول ساقيها ولامس ندباتها البارزة فتوقف، كانت مستكينة لحركة يده مستسلمة لما يحدث لكن توقف أنامله أعادها للواقع، لقد أحس بندوبها وسيراها الآن، ترى كيف ستفسرها له؟ هل سيقبل بالجميلة المشوّهة أم سيشمئز منها؟

فكّ سحاب فستانها وحرر كتفها، وتناثرت قبلات ثغره فوق بشرتها المخملية، وسالت معها دمعاتها الفياضة تغسل عنها خط الكحل المرسوم حول عينيها، أصبحت الآن على بعد لحظات من فقده حتمًا سينفر منها، جلس أمامها وعيناه تتابع الخطوط الوردية المحفورة بعمق ساقيها وخاصرتها.

أفاقت على سؤاله الحزين:

- كيف دفعوكِ إلى إيذاء نفسكِ بهذا الشكل؟

قالها بعد صمت دام لدقائق ظنت فيها أنه اشمئز منها، عانقها بقوة وشت بجزعه وعشقه سكت الحديث بينهما وتغلبت لغة الشوق على مدار ساعات الليل، لم تظن يومًا أنها ستستسلم بهذا الشكل ليد غريبة عنها، ولم يتخيل أنها كانت تخفي بركان من الشوق خلف لا مبالاتها، وكلما حاول أن يسترد وعيه غلبته بسحرها فعاد لسكرته من جديد.

شهر مضى وأنا غارق بروعة تفاصيلها لم أشعر بمرور الأيام معها، كانت فاتنة ببساطة لا توصف تنثر الجمال حولها، كان جمالها ينفذ من الداخل إلى الخارج فيسحرني ويسرق أنفاسي.

تدور حولي كفراشة تعد الطعام وعيناها تتابع برنامجي العلمي المفضل، ثم تتفرغ للقراءة معي، فتدهشني بملاحظاتها الصغيرة على ما تقرأه كانت تلاحظ معاني رائعة بين السطور، لا أدري كيف لم ألحظها رغم أني قرأتها من قبل؟

تتذمر حين أدير أغاني فيروز مدعية أن صوتها يثير طبلة أذنها وتنسحب إلى معملها الفني حيث الطهو، تاركة فراغًا هائلًا بموضع عناقها لي، تضع الطعام أمامي فأغرق بين لذة طعامها، وبين مراقبتها، كانت تأكل أحيانًا بشهية مفتوحة حتى يخال لمن يراها أنها نجت لتوها من مجاعة، أغرق بتأملها بإعجاب وحيرة، فتلاحظ نظراتِ وتتذمر قائلة:

- ألم تخبرك والدتك أنه ليس من الأدب مراقبة الفتيات الجائعات وهن يأكلن؟

- أتساءل فقط أين يذهب كل هذا الطعام؟

- أخاله يعلق بساقي، لا بد وأن هناك شيء يعيقه عن استكمال طريقه.

ولم يكن يمر اليوم التالي إلا وقد اختفت شهيتها فتكتفي بكوب الشكولاتة الساخنة التي تجيد إعدادها.

يأتي المساء فتتقمص شخصية من رواية أعجبتها، أو تخترع شخصيات جديدة من وحي خيالها وتخلق لي أدوار بها، لم أتخيل يومًا أن بإمكان امرأة واحدة أن تتشكل وتتحول إلى كتيبة نساء، أغادرها مضطرًا لساعات قليلة لأحاول فيها متابعة عملي.

فتدير المذياع والتلفاز على أعلى صوت وتغرق بين كتبها الدراسية، وتغرق الشقة في صخب يصم الأذان لا أدري كيف تستطيع المذاكرة وسط هذه الحرب؟ أحاول عبثًا لفت انتباهها للضجيج لكن صوتي يضيع بين الضوضاء التي صنعته، أستسلم لها وأترك العمل فتلحق بي.

أيقنت الآن حجم التناقض بيننا كانت تكملني بإختلافها وتعرف كيف تغرقني في بحورها حتى أنها جعلتني أتألم شوقًا لها وهي نائمة.

عدت للعمل، كنا نتواصل على مدار اليوم وحتى عودتي، كان قلقي عليها يشتعل حين تتأخر في الرد بعد أن لاحظت مدى خوفها من البقاء بمفردها خاصة في الأماكن المرتفعة.

لم أصدق محاولات الثبات التي ادعتها حتى تبدو قوية أمامي، كانت عينيها تخبرني عن ضياعها لحظة عودتي، وكان عليّ أن أجد لها ما يشغلها بعد أن منعتها من الخروج بمفردها، بعد أن أصبحت أخشى عليها من كل شيء.

(٦٣)

كنت أقضي نهاري في نوم لا يقطعه سوى اتصالات حازم التي تذكرني بوحدتي، حاولت أن أشغل نفسي بالدراسة أو القراءة لكن الأمر فشل سريعًا وفقدت التركيز.

عادت الأصوات إلى رأسي من جديد وأصبحت تطاردني طوال الوقت حتى أثناء النوم، كانت دائمة المقارنة بيني وبين جميع من حولي، وفشلت بالهرب منها فاستسلمت لها بالتدريج ورأيت أن معها حق، لم تكن المقارنة لصالحي يومًا وسيكتشف حازم هذا قريبًا ويرحل عني فجميع الفتيات حوله ناجحات وطموحات أما أنا فمجرد تمثال عرض فاتن لكن بلا روح أو حياة.

حتى بطلات رواياته كن قويات وجريئات بقوة شخصيتهم وطموحهم وزاد من خوفي أني وجدت شبهًا كبيرًا يجمع بيني وبين بطلة الرواية التي أهداني حازم إياها، «آنا كارنينا لـ تولستوى» حتمًا ذكرته بي بجنونها وتقلبات مزاجها وخوائها الداخلي، يا الله لقد فشلت حتى في التغلب على نساء الروايات الوهمية!

زادت حدة الأصوات وتحولت إلى مشاهد بصرية كانت تتفاعل معي فلم أعد أفرق بينها وبين الواقع وزاد الأمر بغياب تسنيم وروان، حتى مرام انشغلت عني بعملها ودراستها، أصبحت وحيدة تمامًا لا شيء لدي أفعله سوى الجلوس مع أفكاري المجسدة والجدال مع الأصوات التي تحتل رأسي. شعرت بأن حازم أصبح يتهرب من جنوني بالعمل.

يبدو أن دوري في المعاناة بدأ، كنت أعاني كي أفهم ما السر وراء تصرفات ميرال المتناقضة! وكانت تفاجئني بنوبات غضبها الشديدة والسريعة بدون أسباب تُذكر.

فاجئتني يومها بعتابها المقهور والذي تحول بالتدريج إلى صراخ غاضب حتى أنه من كان يراها سيظن بأنها تعرضت لخيانة بشعة على يدي، راحت تدور بالشقة في جنون وهي تسبّ وتلعن كل ما يعترض طريقها، كل هذا لأنها استيقظت لتجد أحذيتي في الشرفة كما تركتها بعد أن قامت بتنظيفها.

كنت قد تأخرت عن العمل بما يكفي ولم أجد ما أضعه بقدمي بعد أن اختفت جميع أحذيتي فارتديت حذاء الشاطئ البلاستيكي وذهبت، كانت تجلس في انتظاري عند عودتي وما إن وقعت عينيها على قدمي حتى انفجرت واتهمتني بأني أتعمد إظهارها بمظهر الزوجة المهملة، هل كان عليّ أن أوقظها من نومها المتقطع لسؤالها عن أحذيتي؟ حتمًا كانت ستفتعل عراك من نوع آخر وتتهمني بأني لا أراعيها ولا أهتم إلا بنفسي.

ظننت يومها أن آثار هذا الخلاف ستمتد حتى الصباح لكنها عادت بعد فترة وهي ترتدي فستان سهرة رائع، منحتني إحدى ابتسامتها الساحرة وجذبتني من يدي إلى الشرفة حيث العشاء الفخم الذي أعددته على ضوء الشموع والموسيقى الهادئة.

هل كانت تعتذر عما بدر منها؟ لم أكن أطمع في اعتذار بقدر ما كنت أتمنى معرفة السر الذي دفعها للبكاء من أجل حذاء، ربما كان للأمر علاقة بهرموناتها الأنثوية!

تحول مزاجها من جديد لسخرية لا تحتمل فانسحبت إلى مكتبي وأنهيت عملي متأخرًا، واتجهت إلى الفراش فلم أجدها، كانت الشقة غارقة في الظلام عدى زاوية صغيرة بالصالون يشعّ منها ضوء خافت

وصوت موسيقى حزينة، كانت تنتحب وصوتها يردد أحد أغانيها البائسة

There goes my mind racing And you are th reason.. ThatI'mstill breathing ..I'm hopeless now I'd climb every mountain. And swim every ocean.. Just to be with you And fix what I've broken.. Oh,'cause I need you to see That you are the reason.

- متى ستنتهي هذه الجنازة يا ميرا؟

قفزت مرعوبة كمن ضبط متلبس بالجرم.

حازم لماذا لم تذهب إلى النوم حتى الآن؟

- كنت أنتظرك.
- أنا معاقبة الليلة.
- من الذي تجرأ على عقابكِ؟
- عاقبت نفسي لأني ضايقتك، لا أدري ما الذي يحدث معي! لكن حور أخبرتني أنها تقلبات عادية بسبب اضطرابي اللعين، صدقني أنا لم أعد أحتمل ما يدور بداخلي، وفقدت التمييز بين خيالي وبين الواقع.
- لا عليكِ كلنا نمر بأوقات كهذه، لكن هل هذا يعني أننا سننام هنا الليلة؟
- هل ستنضم إليّ؟
- وهل لديّ خيار أخر مع أني لا أفهم؟ ماذا حدث من الأساس؟
- هيا إلى الفراش حتى لا أصاب بجلطة بعد كل ما شرحته لكَ ولا زلت لا تفهم.

أصبحت أتجنب إثارتها بشتّى الطرق، لكن الأمر تطور وتحول إلى جنون تام، عدت من العمل مبكرًا لأجدها في غرفة النوم تفترش الأرض وحولها ثيابها المتناثرة وكتبها الممزقة.

لم تلتفت إليّ حين اقتربت منها كانت منشغلة بتمزيق ساقها بسكين المطبخ، جذبت السكين من يدها بحذر ووقفت بجوارها مذهولًا، بادلتني النظرة الضائعة التي رافقتها على مدار الأيام الأخيرة، وانسابت دمعاتها وشهقاتها المتقطعة، تمالكت جزعي وحملتها إلى الحمام نظفت جروحها وضمدتها.

لحسن الحظ لم يكن جرحها بحاجة إلى تقطيب، ناولتها قرص مهدىء ونمت بجوارها، كانت ساكنة تمامًا مستسلمة لعناقي، أجلت سؤالها عن سبب فعلتها هذه إلى أن تهدأ.

همستْ من بين نحيبها:

- غني لي شيئًا بصوتك.

- أنتِ تكرهين قصائدي.

نظرت إليّ باستجداء أجبرني على المحاولة رغم أن حالتي لم تكن تسمح بالغناء، غنيت لها

«ها حبيبي لخاطري لا تأذي نفسك منو زعلك؟ أنت مني تزعل لك والله زعل الدنيا كلها ولا مكروه يمسك ابتسم هدي أعصابك خلِ راسك بين أيديا لك أدلل عليّا أدلل عليّا يا هبة ربي من السما وأجمل هدية»

انسحبت بعد أن نامت، وأعدت ترتيب الفوضى التي خلفتها، وقعت عيني على زجاجات الخمر الفارغة، هل عادت للخمور ثانية؟ ما الذي دفعها لهذه الحالة لقد كانت بمزاج جيد هذا الصباح؟!

لا في الواقع كانت تعاني منذ فترة وفشلت في التخفيف عنها، لقد أخطأت جدًا حين أجلت استشارة طبيبتها.

تواصلت مع «حور» لكن كانت في مؤتمر بالخارج، نصحتني بالعودة إلى منزل جدتي حتى لا تبقى ميرا بمفردها، وبمراعاة تدهور حالتها

النفسية، جمعت الأشياء الضرورية وانتظرتها حتى تستيقظ، لاحظت حركتها.

- كيف حالكِ الآن؟
- بخير، هل أنتَ غاضب مني؟
- لا تتخيلي كم كان خوفي عليكِ، لكن ما الذي دفعك إلى هذا؟!
- لم أعد أحتمل الفوضى التي بداخلي، كنت اشعر بك تبتعد عني رغم وجودك الدائم معي، وسيطرت عليّ فكرة أني غير جديرة بك وأنك ستلفظني قريبًا، وفقدت قدرتي على مقاومتها، أردت الحصول على بعض الراحة والهدوء لذا عدت للشرب، لكن شعوري بالوحشة لم يهدأ وشعرت بأني قد بلغت نهاية المطاف دون أن أصل إلى شيء، دفعني شعوري بالخواء والفشل للتساؤل عن جدوى بقائي على قيد الحياة أكثر من ذلك، جميع من حولي ناجحين، في حين أني أقف بمكاني منذ سنوات، حتى شقيقتي التي احتجزت بمصحة عادت لحياتها ونجاحها سريعًا، انظر إليّ أنا لا أجيد سوى التنقل من فشل إلى فشل، حتى الإقلاع عن الخمور فشلت فيه.

ضممتها إليّ بقوة هامسًا:

- ما الذي دفعك لإيذاء نفسك بهذا الشكل؟
- شعرت بالذنب والندم لعودتي للخمور، وظننت أن إحساسي بالذنب سيتوقف لو عاقبت نفسي.
- نحن بشر يا ميرال من الطبيعي أن تتكرر أخطأنا كان يكفيكِ أن تلجأي إلى الله وتتوبِ عن ما حدث.
- أخبرتكَ بأني فقدت تركيزي ولم أعي ما أفعله، ولا فائدة من الحديث معي.
- سنذهب للإقامة عند جدتي، ولنا حديث آخر فيما بعد.

استسلمت لقراري بسهولة أذهلتني لم أعد أفهمها كنت أشعُر بِها قريبة مني حد الالتحام لكنها تتلاشى بمجرد أن تمتد أناملي لمعانقتها، كسراب تجسد على شكل أنثى ناعمة منحتني حياة رائعة ثم تبخرت.

(٦٤)

لقد وقع ما كنت أخشاه وأدمنت حازم، إدمان يفوق احتمالي، كان وقع غيابه عني أشد من الإقلاع عن الخمور والمهدئات، وزادت عقلانيته وهدوء أعصابه من جنوني، تبدل الحال بيننا بشكل ساخر أصبحت أعاني من الوساوس، وهدأ هو بعد أن تأكد من امتلاكِ.

المشكلة كانت في مشاعري المتضاربة لذا عليّ التحكم فيها، تذكرت أن عمر حكى لي مرة عن شريحة تتحكم في الجانب العاطفي داخل الإنسان، فبحثت عنها، لكن احترت ما بين أضرارها ومميزاتها.

اتصلت به وسألته عن شريحة «لينورا» لكنه حذرني منها وزعم أنها كانت السبب في عدم عودته إلى وطنه بعد انتهاء الحرب، لأن غالبية الذين عادوا قاموا بوضع هذا الشريحة فقدوا عاطفتهم وقدرتهم على التفاعل والشعور فأصبحوا مجرد آلات وتحولت البلدة إلى مدينة باردة بسببها.

غرقت في حيرتي ما بين خوض التجربة والتخلص من مشاعري التي تُنغص عليّ حياتي وبين التعايش مع اضطرابي.

عادت حور من المؤتمر وذهبنا إليها.

- لقد قررت تركيب شريحة لينورا.

خيم الصمت بنا ورمقتني حور بدهشة وصاح بي حازم:

- هل جننتي حتى تتخلي عن نعمة الإحساس، لم أعد أفهم من أين تأتيكِ هذه الأفكار الكارثية؟!

- نعمتك هذه أصبحت نقمة حياتي، أنتَ لا تعرف شيئًا عن معاناتي، واكتفيت بتصديق قناع المرح الذي أضعه أمامك حتى تشعر بالرضا عن نفسك.

- ميرال اهدئي كل شيء قابل للنقاش، أعرضي لنا فكرتك.

- أنا أعيش في عالم من المشاعر السوداء المجسدة بالصوت والصورة، وتظل تطاردني أينما ذهبت، وفقدت قدرتي على البوح فصرت أشعر بالخرس، كل هذا مع غياب حازم عني، لا أعلم أين ذهب العاشق الذي أدمنته؟

انفجرتُ في النحيب فجأة وفقدت التحكم في مشاعر الإحباط التي سيطرت عليّ، ولم أحتمل نظرات الشفقة التي رأيتها في عين حازم فهربت من أمامه ومنعته حور من اللحاق بي.

- يبدو أنها عانت الكثير في الفترة الماضية حتى وصلت إلى هذا الانفجار.

- على العكس كانت هادئة ومرحة مع الجميع تعمل على دراستها بحماسة وتلتهم ما تقع عينيها عليه من كتب، كنت معها طوال النهار عبر الرسائل وإلى جوارها عند عودتي حتى ذهابنا للنوم، لم أتجاهلها كما ادعت.

- من الواضح أنكَ على جهل بحقيقة ما يعانيه الشخص الحدي مِن تخبط دائم بشكل يفصله عن الواقع.

- كيف هذا؟

- سلوكها في الفترة الأخيرة على سبيل المثال كان نتاج فرط تفكير حاولت التخلص منه بتقمص شخصية الفتاة المرحة ، لكن في الداخل كانت تعاني من شدة وساوسها.

- لكن أنا لم أتوقف يومًا عن التعبير عن مشاعري لها.

- أنا لم أتهمك بالتقصير أنا أشرح لك ما تمر به، التعامل مع هذا الاضطراب يشبه التعامل مع مريض مصاب بالحروق، لا بد وأن يتم التعامل بحرص حتى لا تشعر بأنها عبء عليكَ أو أنكَ ضجرت منها.

عادت ميرال من الخارج وجلست في هدوء وكأنها لم تمر بنوبة عاصفة منذ قليل.

- هل أنتِ بخير الآن يا حبيبتي؟
- لا داعي لشفقتك كنت أشعر بالاختناق وانتهى الأمر.
- ميرال هل ترغبين في إنجاح علاقتك بحازم؟
- هل صارحكِ برغبته في الانفصال عني؟
- لن يبعدني عنكِ سوى الموت حاولي أن تتذكري هذا أثناء نوبتك القادمة.
- أنا هنا من أجل الحفاظ على علاقتنا وسأجري تركيب الشريحة حتى تتوقف اضطراباتي.
- لن أقبل بالعيش مع زوجة بلا مشاعر.
- لا أحد يشعر بما أمر به كنت أقاتل كل يوم حتى أجد سبب يجعلني أستمر في الحياة.

تولت حور الحديث:

- لقد تسببت شريحة لينورا في انتحار الكثيرين بعد أن فشلوا في التعايش معها، كما أنها لا توقف مجسات الاستقبال الحسي لديكِ هي تتحكم فقط في ردة فعلك وتتركِك عاجزة عن التفاعل.
- لا أعرف حلّ آخر غيرها ولن أتناول المهدئات التي تصيبني بالفتور.
- هناك حل آخر بعيدًا عن المهدئات لكنه يتطلب منك الإرادة والصبر.

عدنا إلى المنزل وتجنب حازم الحديث معي حتى مساء اليوم التالي.

- لماذا أخفيتي عني ما يحدث معك؟ على مدار شهرين وأنا أتخبط بين أفعالك وتصرفاتك ولم أعد أعَرف الحقيقي منها من المزيف! في حين أني تركت نفسي أمامكِ ككتاب مفتوحًا.

- لأنك تتعامل معي بعقلانية باردة تثير أعصابي وتشعرني بأني مصابة بمرض معدي يستوجب الحذر منه، مع أن معظم تقلباتي قابلة للسيطرة، لكنكَ كنت تكتفي بكلماتكَ الباردة السخيفة مثلكَ، لا أدري لماذا لا تترجم كلماتك اللعينة هذه إلى أفعال إنسانية كالعناق مثلًا؟

- لم أكن أعرف كيف أتصرف وكان عليكِ مساعدتي بقليل من البوح.

- لم أحتمل أن تراني بهذا الضعف وخشيت أن تسمعني إحدى عباراتك السخيفة مثل (ميرال لا تعلقي نفسك بي حتى لا تنهاري عند غيابي، ميرال البشر محطات في حياة بعضهم بعضًا).

صدمت من مواجهتها:

- لم أظن أن كلماتي السخيفة ستظل محفورة برأسك، لقد كنت أواجه بها وساوسي وخوفي من فقدكِ هل فهمتي؟ الآنَ ما رأيك ببداية جديدة بدون أقنعة؟

وافقتُ على خوض رحلة العلاج النفسي، كنتُ أخضع إلى عدة جلسات أسبوعية، جلسة علاج نفسي أتحدث فيها عن حياتي وطفولتي، وجلسة جماعية للتوعية باضطرابي وبما يحدث معي، وجلسة خاصة بالجدل السلوكي نناقش فيها أنا وحور قناعاتي وآرائي التي اكتشفت أن معظمها خطأ وأنها كانت نتاج ذكرياتي المؤلمة.

لم أتخيل أن مجرد البوح سيكون منهكًا بهذا الشكل، كنت أعود الى المنزل فاقدة للطاقة، تطاردني أشباح الذكريات التي نبشناها، كانت صدمتي حين اكتشفت أني تأثرت بالبشاعات التي كانت تتهمني بها

شذى، حتى أصبحت قناعات راسخة بداخلي، لهذا كنت أعاقب جسدي؛ كنت أهرب من نفسي وأخشى البقاء وحيدة لقناعتي الخفية بأني بشعة لا أملك سوى جمالي.

ظلت حور تتكىء الجرح وتصر على إخراج الذكريات العالقة بداخلي، كنت أنهار بالبكاء أحيانًا وأحيانًا أمطرها بالسبّ واللعن، تحولت الجلسات إلى صراخ حتى يُخيل لمن يرانا أننا نتشاجر.

(٦٥)

كنت أراقب العلاقة بين حازم وميرال بحيرة، كنت أشفق على ميرال التي باتت سجينة المنزل بعد أن منعها حازم من الخروج بمفردها بسبب طريقتها المتهورة في عبور الطريق ونسيانها المفرط للأماكن والشوارع.

استغربت من تقبلها لقراره وظننت أنها أصبحت خاضعة لديكتاتورية حازم، لكن اكتشفت بعد أيام أن ميرال شخصية عابثة تثير جنون شقيقي بتصرفاتها المتقلبة، تغضب بدون سبب وتملأ البيت بالصراخ والشتائم، ثم تعود لتهدأ سريعًا وكأن شيئًا لم يكن.

كان حازم يبتلع غضبه منها بعد دقائق من مشاجرتهما ليجلسها على ساقه ويضمها إليه، كان يتفنن في دلالها فينتقي لها ثيابها ويصفف لها شعرها ويطلي أظافرها، رغم كل ما تفعله به.

تذكرت مشاحناتي مع مازن والتي كانت تمتد لأسابيع، لمجرد كلمة تفوهت بها دون قصد، حتى لزمت الصمت في النهاية أمام عصبيته كي لا أتعرض لهجره القاسي، بالطبع لم تكن المقارنة لصالحي، لكن تظل علاقتهما محيرة فكلاهما يحمل مزيجًا غريبًا من الصفات التي لا تطاق فوساوس حازم وسيطرته أمر لا تحتمله أيّ فتاة فما بالك بميرال المتحررة!

كنت أستيقظ فزعة على صراخ أحدهما بعد أن تعرض لمقلب على يد الآخر فبت انتظر أن تمر ساعات الصباح الأولى وتنتهي فقرة المقالب كي أنعم بنوم هادئ.

تخيلت ما سيفعله بي مازن لو فكرت يوما في إيقاظه بهذه الطريقة التي تفعلها ميرال سيطلقني حتمًا مع أول قطرة ماء أسكبها فوق رأسه، ترى كيف وصلت العلاقة بينهما لهذه الدرجة من الألفة؟

لم أتخيل يومًا أن يكون هناك مرض ما خلف مزاجيات ميرال وتصرفاتها المجنونة، اكتشفت هذا اليوم حين جلست أستمع إليها وهي تتحدث عن معانتها مع هذا الاضطراب، يا الله كيف استطاعت تحمل هذا الجنون؟!

كان المرض هو ما جمعهما إذًا، فالمعاناة الداخلية تجعل الإنسان يدرك قيمة الحب والمشاعر الصادقة أكثر من غيره ويقاتل من أجل الحفاظ عليه.

عدت إلى المنزل بصحبة جدتي وبداخلي وعيٌ جديدٌ بأن العلاقات لا تقام على العاطفة وحدها كما كنت أظن، لا بدّ أن يعرف كل طرف مميزات شريكه ويقدرها، ويحاول التعايش مع عيوبه.

لقد حفظت عيوب مازن عن ظهر قلب لكن لم أهتم بمميزاته، كان صريحًا ويشاركني دائمًا فيما هو مُقبل عليه ويتعامل معي كصديق مقرب، كان لديه الكثير من الصبر على حساسيتي المفرطة، لا أعرف أين كانت تختبئ هذه الصفات؟ حتمًا لو فتشت لوجدت أشياء أخرى.

(٦٦)

كان الحب عندي مرتبطًا بالخوف، ما إن أقع بحب أحدهم حتى أتعرض للهجر على يديه وما إن يطمئن قلبي لوجود أحدهم حتى أفقده، ولم تتوانى ميرال عن إشعال خوفي عليها برعونتها وعدم اهتمامها بنفسها، وزادت الجلسات من حدة تصرفاتها.

لم يكن من السهل عليها أن تتعرى من ذكرياتها وماضيها، فبعد أن ظنت أنها أودعت ذكرياتها البشعة داخل صندوق مُحكم فإذا بصندوقها الأسود يفتح رغمًا عنها.

كان من الصعب عليها أن تواجه حقيقة أن اضطرابها بدأ معها منذ طفولتها وبسبب أقرب الناس إليها، ظننت أنها تخطت الأمر بعد أن تحسنت علاقتها بشقيقتها في الفترة الماضية لكنها انتكست وعادت لتفتعل المشاحنات مع مرام التي استوعبت الأمر وتركت لها فرصة إفراغ غضبها المكبوت منذ سنوات.

زادت الجلسات من حدة كوابيسها ومع هذا استمرت في الرفض لتناول المهدئات، كانت تواجه اضطرابها العنيف وحيدة دون مثبطات تهدأ من حدة أفكارها ومشاعرها.

اعترفت لي بأنها ممتنة لوجودي معها رغم رفضها الشديدة لمحاولاتي للاعتناء بها، وأنني السبب الوحيد الذي يدفعها للاستمرار في العلاج، وبأنها تعرف جيدًا أنها لا تستحق شخصًا مثلي.

أعلم أنها تُعذب نفسها كل يوم بسببي وتظن أنها تعيق مسار حياتي، لكن كيف أجعلها تتخلص من شعورها اللعين بالذنب تجاهي؟!

- هل أنتِ مستعدة للذهب لقد بدأ المؤتمر؟

فاجأتني طلتها المبهرة، بفستانها الأسود القصير الذي رأيتها فيه بأول لقاء وشعرها المرفوع لأعلى على شكل تاج رقيق صنعته من جديلة صغيرة انسدلت منها خصلاتها الغزيرة في انسيابية لتغطي خصرها، ورسمت عينيها بخطين كُحل زادهما اتساعًا لكن لم تتخلى عنها نظرة الضياع التي تهاجمها كلما تعرضت لنوبة قلق.

- أنا مستعدة لكن لا أرغب في المشاركة.

- لماذا يا ميرا؟! سيكون لكلماتك مصداقية وستشجع الكثيرين على بدء العلاج.

- الأمر يشبه التخلي عن ثيابك والسير عاريًا بقارعة الطريق أمام حشد من الغرباء.

وصلت إلى القاعة وأناملها تتشبث بكفه، كان كلاهما في أوجّ أناقته، هو بكنزته البيضاء وبنطاله الأسود وهي بفستانها الأسود المنفوش.

افتتحت حور المؤتمر وتحدثت عن تخصصها وعن دور مؤسستها في تطور الطب النفسي وأكدت على رفضها الصريح لشريحة لينورا التي تفقد المريض أهم ما يميزه كإنسان من عاطفة ومشاعر.

استمعتُ لمشاركة المجموعة التي شاركتني رحلة العلاج وإلى رأي ذِويهم والمعاناة التي مروا بها معهم بسبب هذا الاضطراب، لأول مرة أدرك كمّ المتاعب التي كنت أثيرها حولي، لقد كان حازم على حق في خوفه الدائم عليّ.

كان الجنون يضرب الأشياء من حولي، منزلي وعائلتي وأصدقائي حتى زوجي كان مصاب بلوثة وساوس أحالت عقله إلى جحيم، من أين لي بالعقل إذًا وأنا لم ألتقي بشخص طبيعي طيلة حياتي؟

أفقت من شرودي بعد أن تردد اسمي مُعلَنًا عن دوري بالمشاركة، ربت حازم على كفي بحنان وتشجيع، فتخليت عن ترددي واعتليت المنصة، قدمت نفسي وبدأت الحديث، قائلة:

- الجميع هنا يتساءل كيف تكون الحياة مع اضطراب الشخصية الحدية، الأمر يشبه خليط بشعًا من انعدام الحياة والموت البطيء يتبعه فرط نشاط وتفكير، أشعر أحيانًا بأني على قمة الحياة، هادئة ومتزنة، ثم فجأة ينقلب إحساسي وأصل إلى القاع بسرعة تفقدني أعصابي وتجعلني أثور لأتفه الأسباب، تصبح مشاعري حساسة وتؤلمني التفاصيل الصغيرة التي لا يلتفت إليها معظم الناس، كأن ينظر أحدهم إلى ساعته أثناء حديثه معي فيجعلني أشعر بأنه ملَّ مني، أو أن يخبرني أحدهم أثناء معاناتي بأني أبالغ في تصرفاتي، وأنه يجب عليّ التفكير بإيجابية وتفاؤل أشعر وقتها بأني عالقة في عالم غريب لا أحد فيه يشعر بمعاناتي، هناك أيام رائعة أتحمّس فيها للحياة وأندمج مع من حولي كأي شخص طبيعي، فأشعر بنوبة سعادة وهدوء نفسي تنسيني معاناتي، لكن كل هذا ينتهي بمجرد أن أتعرض لضغط أو أواجه شعور بالرفض يدفعني للانزواء بعيدًا عن الناس، العلاقات الحميمية هي المعاناة الحقيقية لأي شخص مصاب باضطراب الشخصية الحدية، أجد نفسي وبدون قصد أدفع من أحب بعيدًا عني وكلما زادت مشاعري تزداد معاناتي، وكلما حاولت الاحتفاظ به بقربي أجده يبتعد عني لأني أسئت التعبير عن مشاعري، أسمع باستمرار أصوات بداخلي تخبرني بضرورة التوقف عن إفساد العلاقة لكن لا أعرف كيف أتوقف، فكل هذا يحدث دون وعي مني، أشعر أحيانًا بالرفض من الجميع، لا أحد يتقبلني كما أنا، الجميع يساومني إما أن أتغير وإلا سيتخلوا عني، كل هذا كان يدفعني للشعور بأني لا أستحق الحب وأنه من المستحيل أن يتحمل أحدهم العيش معي حتى الأوقات التي أشعر فيها بالحب تتحول بسهولة إلى

ألم ورفض بسبب بعض التعليقات الساخرة أو الكلمات القاسية، أحيانًا يسيطر عليّ الغضب ويتحكم في مشاعري وأفكاري فأستسلم للشعور بأني أستحق ما يحدث لي، يملأني الشعور بالذنب ويدفعني لإيقاع الأذى على نفسي حتى أتغلب على الألم الذي يسيطر عليّ، لكن هذا الشعور يزداد حدة ويجعلني أرغب في الموت بشدة، أشعر دائمًا بأني علقت داخل كابوس بشع لا أعرف كيف أستيقظ منه؟ وأعيش في خوف دائم بسببه، وأخشى أن يظهر الجانب المظلم بداخلي فينتهي زواجي بسببه، وليس لديّ الثقة الكافية للبوح بمشاعري وأفكاري، الحياة مع هذا الاضطراب تشبه السير وحيدًا داخل غابة مظلمة ومخيفة بدون شعاع ضوء أو بوصلة ترشدك إلى الطريق تحاول فتح عينيك باتساعهما لرؤية ما يدور حولك لكن لا تصل إلى شيء، الأصوات من حولك تزداد صخب وهمجية فتتوقع أن تتعرض للهجوم في أية لحظة ومن أي شخص، فتفقد قدرتك على التمييز بين عدوك وصديقك، بعد أن تعرضت لعدد مهول من الخيانة والغدر أفقدك الثقة بكل شيء، في النهاية لا يبقى أمامك سوى اختيارين، إما البحث عن المساعدة والعلاج أو الإقدام على الانتحار، لكن نحن المحاربون ضد هذا الاضطراب نملك قوة داخلية تمنعنا من الاستسلام للموت لذا نعاود المقاومة مرة بعد أخرى، هذا هو ما نمر به في اضطراب الشخصية الحدية؛ البعض سيظن أنها مجرد تقلبات مزاجية لكنه مخطئًا، فالأشخاص المزاجيون لا يشعرون بالضغط والفشل وعدم الإنجاز طيلة الوقت، المزاجي لا يشعر بالرفض أو الخوف الدائم من الفراق، المزاجي لا يعرف الشعور بالفراغ أو الغضب من أبسط الأشياء، ولم يجرب التقلب السريع من السعادة إلى الاكتئاب والهوس إلى الرغبة في إيذاء الآخرين أو إيذاء نفسه، المزاجي لا يملك تلك القدرة الرهيبة على التلاعب والخداع مثلنا، معظمنا لم يولد بهذا الاضطراب، بل هو أسلوب التربية السبب الأول فيما نعاني منه، أعلم

أن الكثير منكم عانى من القسوة والإهمال طوال حياته، البعض تجاوز هذا والبعض لم يتخطاها وهذا ما حدث معي، تعرضت في طفولتي للعنف الجسدي والسخرية والإهانة والأذى الجنسي وترسخت هذه الأمور بداخلي واستمرت معي، حتى أصبحت جزءًا لا يتجزأ من شخصيتي..

بدأت رحلة العلاج مجبرة ولم يكن الأمر سهلًا لكن النتيجة كانت تستحق المعاناة التي خضتها فأصبح لديّ الآن وعي بمشاعري وأفكاري الداخلية، وتوقفت كراهيتي لنفسي، أمورًا كثيرة تغيرت بداخلي، أصبحت أرى نفسي بشكل أفضل، أصبح لديّ إنجازاتي الخاصة ومعاركِ الداخلية التي أخوضها يوميًا، والأهم أني لم أعد أتهرب من مواجهة اضطرابي، لا زال لديّ الكثير لأتعلمه لكن ممتنة لما حققته حتى الآن..

كلمتي الأخيرة.. الاضطرابات النفسية والأمراض العقلية تختلف فيما بينها بشدة، والمرض النفسي يحتاج إلى علاج مثله مثل أي مرض جسدي، القرب من الله أمان وسكينة لكن هذا لا يتعارض مع حاجة المريض النفسي لعلاج ومساعدة مختص لذا عندما تجد شخص يعاني من الاكتئاب أو أي اضطراب آخر تعامل معه على أنه مريض يحتاج إلى علاج لا مواعظ دينية.

نصيحة لكل من يعاني من مرض نفسي لا تتخلى عن علاقتك بالله مهما بلغ يأسك وضعفك، لأن الله وحده القادر على مساعدتنا وإنقاذنا.

اضطراب الشخصية الحدية لا تعني الجنون ولا يدخل تحت قائمة الأمراض العقلية، نحن نملك وعي لكنه يتأثر أحيانًا بالضغوط أو بالمشاعر السيئة التي نتعرض لها.

كنت أستعد لمغادرة المنصة حين توالت الأسئلة.

- هل هناك أمل في الشفاء من اضطراب الشخصية الحدية؟
- لا أعرف حتى الآن، لأني لم أجربه بعد، لكن تعلمت التعايش مع اضطرابي.
- كيف تغلبتي على شعورِكِ بعدم الأمان وفقدان الثقة؟
- أدركت بأن الله سبحانه هو مصدر الأمان الوحيد في العالم، فأصبحت ألجأ إليه وأكتفي به.
- كيف تتعاملي مع مُصاب باضطراب الشخصية الحدية؟
- التعامل مع الشخص الحدي يتطلب الصبر لأنه يمر بمعاناة دائمة، عليك التحدث إلى عقله وقلبه، هذه الطريقة نجحت معي.

صعد حازم إلى المنصة بأناقته وابتسامته الهادئة، عانق يديها، وبدأ الحديث:

- على مدار عام كامل كانت زوجتي تسألني ما الذي يدفعكَ إلى البقاء معي في هذه المعاناة؟ كنت أجيبها لأني أحببتكِ كما أنتِ، أحببت كل ما رأيته فيكِ حتى الجانب المظلم منكِ وأتمنى لو كان باستطاعتي أن أنير هذا الجانب،

كانت ترمقني بأسى وخجل وكانت ترى أنها لا تستحق الحب، أدركت أن معها حق، بعد أن عاينتُ بعض الذي عاشته مع عائلتها، لا يمكن أن نحاسب مريضًا على مرضه دون أن نبحث عن السرّ وراء هذا المرض ونتفهم ما مر به.

- ما هي طبيعة العلاقة بينكما؟
- كيف تتوقع أن تكون علاقة مريض وساوس قهرية بمريضة شخصية حدية؟ كانت كل الطرق تؤدي بنا إلى نفق مظلم، وكان من المتوقع أن تنتهي علاقتنا سريعًا، لكنها استمرت لأننا أدركنا شدة احتياج كلٍّ منا للآخر، كنتُ أنسحب من الفراش كل ليلة عشرات المرات حتى

أتأكد من أن باب المنزل والنوافذ مغلقة جيدًا، وسكينة الغاز محكمة الغلق والموقد ومحبس المياه، فكانت تخبرني بأن تصرفاتي الغير منطقية هذه تشعرها بالأمان.

وأوقظها لأسألها هل سلمتي ثيابي إلى المغسلة، هل سجلتي موعد الجلسة القادمة وأكرر السؤال عليها مرات ومرات وفي كل مرة تجيبني بابتسامة هادئة، كانت تنظر لجنوني على أنه فرط اهتمام بها.

- كيف يمكن التعامل مع المصاب بهذا الاضطراب؟

- تعامل معهم بصراحة وصدق حتى تكتسب ثقتهم، ناقشهم في كل ما يقلقهم، قد تبدو مخاوفهم غريبة أو خيالية، مع هذا علينا أن نتعامل معها باهتمام وتفهم، علينا تقبلهم وعدم إجبارهم على التغيير لأن هذا يثير ذعرهم، عليك مراعاة حاجتهم الشديدة إلى الاحتواء والاهتمام دون شفقة أو دفع مقابل.

أنهى حازم حديثه فعادت ميرال إلى المنصة وأدارت تسجيل صوتي لها وأخبرتهم أنه إهداء خاص إلى زوجها ولكل من يتعامل مع مصاب باضطراب شخصية.

- أعلم أني لا أملك الكثير كي أمنحه لك غير أني بنيتُ لك قصرًا متواضعًا داخل قلبي وأحطته بسياج شفاف من ثنايا روحي كي تتمكن من متابعة الحياة بالخارج، واخترتك وحدك كي تشاركني قصري المتواضع جدًا أمام حضورك الرائع، ولكني أطمع أن تكون لي قمرًا يضيء عتمتي في الليالي الصيفية الكئيبة، وشمسًا حانية تحوي أيام شتائي الباردة..

اغفر لي فوضاي العارمة، فـ أنا لا أجيد ترتيب نفسي في حضرتكَ، وكلما التقينا يضرب الارتباك جذوري من الأعماق، وتتناثر حولي الأشياء التي أعددتها لاستقبالك، زرعت لكَ بأعماقي باقات من الأقحوان

والجوري لأني أعلم أنكَ مثلي تهوى الورود الفواحة وبإمكاننا أن نعتني بها سويًا، ستجد أيضًا في الشرفة عودًا قديم ومُشغّل أسطوانات عتيق ينتظر حضورك، أعلم أنكَ تهوى تناول المعزوفات القديمة كل ليلة مع وجبة العشاء تحت أنظار النجوم.

وغزلت لكَ شرشف أبيض من ذاكرتي وذكرياتي معك ستجده بمكتبتنا وزودتها بمدفأة حجرية كي نسترجع بها لحظات لقاءنا الأول حين كنت أنا مجرد عابرة بطريقك وكنتَ أنتَ قمر حياتي الأوحد.

اغفر لي المناطق الباردة بقصري، فـ قلبي اعتاد التعايش مع الوحدة منذ أمد بعيد أعلم أن فوضايا الداخلية متناقضة، فتارة أصبح صاخبة بشكل جنوني وأحيانًا أتحول إلى صحراء غامضة ومجهولة، ثم بلحظة أتحول إلى بلور زجاجي شفاف واضح كوضوح الشمس.

أعلم أني لا أعرف الوقوف في المنتصف وأن قلبي لا يميز سوى الأبيض والأسود، وبأن تنقّلاتي الحادة من أقصى الجنون إلى قمة الرزانة تستنزف طاقتك لكن أعدكَ بأن أهدىء من سرعة تقلباتي وأن أتعلم السيطرة على مزاجياتي حتى تستقر بداخلي وننظم معًا فوضاي.

عاهدني فقط أن لا تفقد الأمل مني ومن قصري المتهالك وأشيائي المشعثة، عدني أن تتناول لأجلي جرعات مكثفة من الصبر وأعدكَ أن أحول قصري إلى جنة لا يطأها مخلوقٌ سواكَ.

وقف يتساءل وهو يستمع إلى كلماتها الرقيقة، كيف نجحت في إبقاء شغفه بها مضطرمًا هكذا، هل كانت هذه هدية القدر له على صبره معها وتقبله لها؟ لقد كانت تستحق كل الصبر لديه وأكثر، وكان ممتنًا للقاءه بها ولمعاناته معها التي جعلته يستحق كل هذا الحب الذي لم يُصدق بوجوده قبل لقائها.

تمَّتْ